

مصر في فجر الإسلام

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

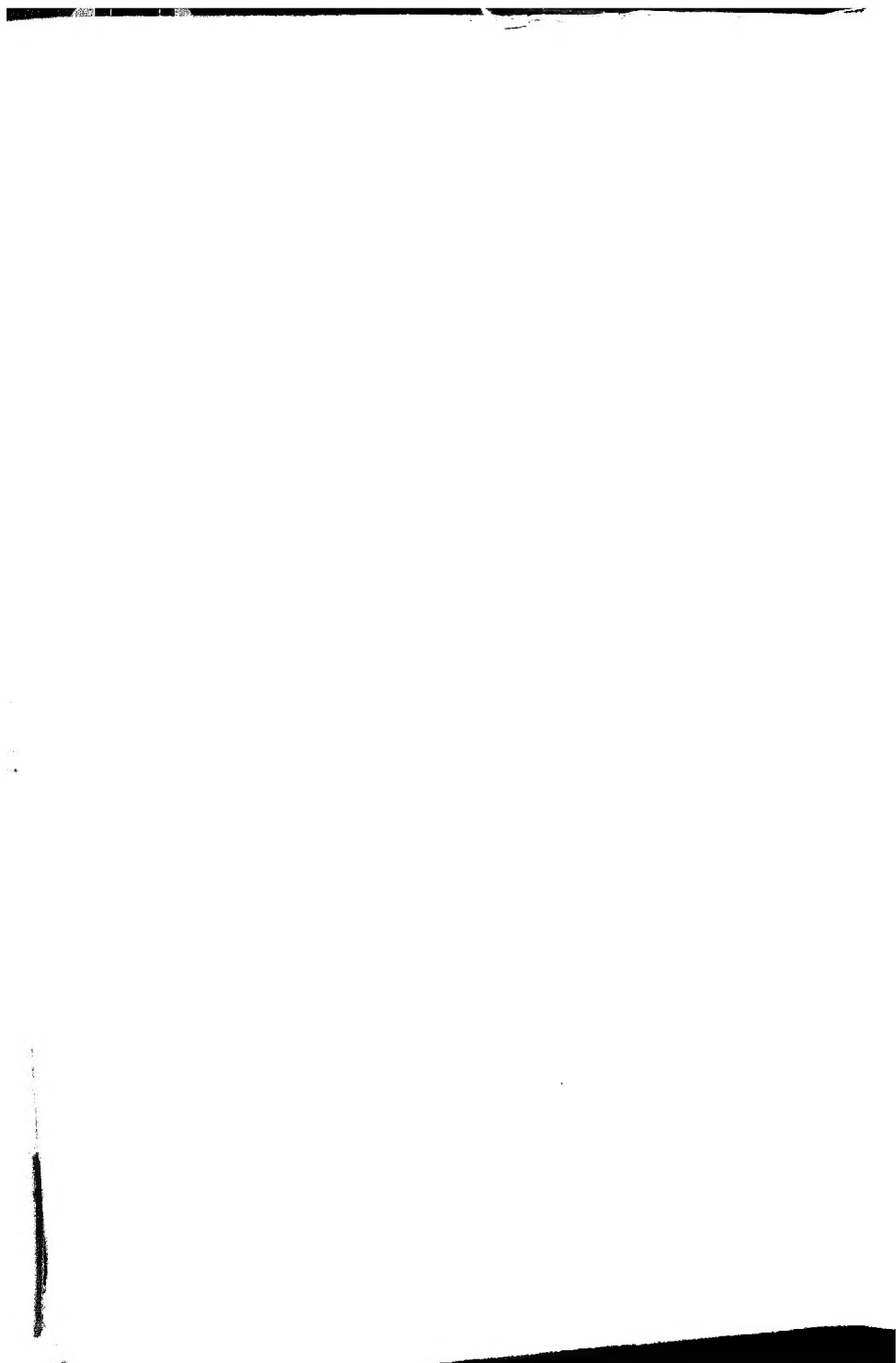
د. سيدة اسماعيل كاشف



0138443



Bibliotheca Alexandrina



رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان



٤٥٩

البرنس -

مَصْرُ فِي فَجْرِ الْإِسْلَامِ

مِنَ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ الْوَقِيمِ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ

تأليف

سَيِّدَةُ إِسْمَاعِيلَ كَاشَفُ

المطبع: المطبعة الكائنة في الإسكندرية
رقم المجلد: ١
رقم التسجيل: ١١٩٤



General Organization of the Alexandria Library (م.م.)
Bibliothèque d'Alexandrie



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

تاريخ مصر

تصدير

إن تاريخ مصر من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠) — ٨٢٥٤) تاريخ طويل ، يبدو غامضاً في كثير من الأحيان . وقد دعاني إلى الكتابة فيه أن المؤرخين لم ينفوا بدراسته العناية الجديرة به ، على الرغم من أن له في تاريخ مصر أهمية خاصة ، إذ تكونت فيه الأسس التي قامت عليها مصر الإسلامية ، وتحولت مصر خلال هذه الفترة إلى دولة إسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضيها القديم ، وأصبحت منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر ذات شأن عظيم جداً في الحضارة الإسلامية .

وقد كان لأستاذي الدكتور حسن إبراهيم حسن رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الفضل في توجيهي إلى دراسة التاريخ الإسلامي فله على ذلك وعلى ما أفدته من علمه وافر الشكر .

ولن يفوتني أن أشكر زوجي الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول ، على ما قدم لي من عون وإرشاد في تأليف هذا الكتاب ثم في الإشراف على طبعه .

سيرة اسماعيل طائف

حمامات القبة بالقاهرة

١ من شوال سنة ١٣٦٦ هـ

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٤٧ م

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب الرائد عن «مصر في فجر الاسلام» الذي كتبته الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، أستاذة التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى بكلية البنات - جامعة عين شمس، وإحدى أعلام التاريخ الإسلامي في مصر. وقد سبق لهذه السلسلة أن نشرت للأستاذة الدكتورة ثلاثة كتب في تاريخ مصر الاسلامية، هي مصر في عصر الولاة، ومصر في عصر الإخشيديين، ومصر الاسلامية وأهل الذمة.

والكتاب الذي بين يدي القارئ يعالج في بابه الأول نظم الحكم في مصر، ويتعرض للنظام المالي، والملكية العقارية، ونظام جباية الضرائب، والنقود الاسلامية. كما يتعرض للنظام الحربي، فيتناول الجيش، والبحرية، وتقاليد المسلمين في القتال.

أما الباب الثاني فيتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في الخلافة. فيتعرض للنزاع الذي قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثرها في مصر، وأثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر، ثم موقف مصر من المحنة بخلق القرآن.

ويتناول الكتاب فى الباب الثالث انتشار الاسلام والتعريب فى مصر، ويتعرض للقبائل العربية فى مصر واندماجها بالمصريين. كما يتناول فى الباب الرابع حضارة مصر فى فجر الاسلام، فيتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة، ثم يتعرض للحركة العلمية والدينية.

ويختتم الكتاب بخاتمة استعرضت فيها الاستاذة الدكتورة سيدة كاشف تاريخ وحضارة مصر فى تلك الفترة الهامة استعراضا علميا تحليليا على جانب كبير من الأهمية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، رأيت إعادة طبعه فى سلسلة «تاريخ المصريين» لإفادة الباحثين والمثقفين والمهتمين بتاريخ مصر الاسلامية. فعسى أن يجد فيه القارئ ما ينشد من متعة وفائدة.

والله الموفق

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

الفهرس

صفحة

مقدمة في الفتح العربي	١
الباب الأول : نظم الحكم	١٧
١ - النظام الإدارى	٢٠
٢ - النظام المالى	٣٧
الجزية والزكاة ٣٧ - الملكية العقارية وعربية الأرض أو	
الحراج ٤١ - ضرائب الصناعة والتجارة ٥٥ - الضرائب	
الأخرى ٥٧ - نظام جباية الضرائب ٥٩ - النقود الإسلامية	
فى مصر ٦٥	
٣ - النظام الحربى	٧٠
الجيش ٧٠ - البحرية ٨٧	
٤ - النظام القضائى	٩٩
الباب الثانى : موقف مصر من الحركات السياسية والدينية	
التي ظهرت فى الخلافة	١٠٩
١ - الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين ...	١٠٩
أ - موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان	١١٠
ب - أثر النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان	
فى مصر	١٢٠
٢ - النزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين . .	١٢٩
أ - دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك فى مصر ...	١٢٩
ب - زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر ...	١٣٥

٣ - الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية

إلى قيام الدولة الطولونية ١٤٨

١ - موقف الأمويين والعلويين في مصر من الخلافة العباسية ١٤٨

ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر ١٥٩

ج - مصر والمحنة بخلق القرآن ١٧٧

الباب الثالث : انتشار الاسلام وتعمير مصر ١٨٢

العرب والقبط ١٨٢ - الأقباط والنظام المالي ٢١٥ - القبائل

العربية في مصر ٢٥٠

الباب الرابع : حضارة مصر في فجر الاسلام ٢٦٣

١ - الزراعة ٢٦٣

٢ - الصناعة ٢٧٢

البناء ٢٧٣ - المنسوجات ٢٧٩ - الورق ٢٩١ -

الحشب ٢٩٣ - الخزف والزجاج والمعادن ٢٩٥

٣ - التجارة ٢٩٩

٤ - الحركة العلمية ٣١٤

الخاتمة ٣٣٧

المراجع ٣٥٣

جدول بأسماء الخلفاء والولاة وعمال الخراج وأصحاب الصرطة

والنفقة والبطارية في عهد الولاة ٣٦٧

الكشاف ٣٨٧

تصويب ٤٠١

مقدمة في الفتح العربي

كانت مصر ولاية رومانية ، ثم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على
كليوبترا في موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م
وقضائه نهائياً على دولة البطالسة فيها . ولا يهمننا في هذه المرحلة من تاريخها
الطويل إلا أنها كانت آخذة في الضعف والانحلال كما أن الإصلاحات
التي أدخلت فيها لم تكن لترى إلا إلى غرض واحد : هو تنظيم استغلال
البلاد حتى يعم النفع الكثير الأمباطورية لا السكان الوطنيين .

ولم يدع الرومان وسيلة إلا ابتكروها لاستغلال موارد البلاد إلى
أقصى حد ممكن (١) . ولم تختلف مصر في هذه الناحية في العهد البيزنطي
(٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كانت عليه في العهد الروماني (٣١ ق.م -
٢٨٤ م) (٢) بل ازدادت الأعباء المالية تمقيداً . ولم يجد أغلب المصريين
مخرجاً من هذه الحالة السيئة سوى الفرار إلى المعابد والأديرة . وجر زرادهم
وقراهم ، فانتشرت الفوضى في البلاد وعم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية
ولا أدل على ذلك من أن قبح مصر التي كانت روما تعتمد عليه لإطعام
أهلها لم يعد يكفي ، وكان لا بد لها من استيراد قح أفريقية مضافاً إلى قح
مصر منذ أوائل القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي (٣) . كذلك كان

(١) Johnson : Roman Egypt. vol. 11. p. 484

(٢) Munier : l'Egypte Byzantine. p. 76

(٣) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. p. 60

١٤٨ ..	١٤٨ ..	١٥٩ ..	١٧٧ ..	١٨٢ ..	٢٦٣ ..	٢٦٣ ..	٢٧٢ ..	٢٩٩ ...	٣١٤ ..	٣٣٧ ..	٣٥٣ ..	٣٦٧ ..	٣٨٧ ..	٤٠١ ..
--------	--------	--------	--------	--------	--------	--------	--------	---------	--------	--------	--------	--------	--------	--------

الشعب المصرى محروما من الاشتراك فى حكم بلاده وكان يعامل معاملة المغلوب على أمره .

ونعرف أن الأمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م) . منح الاسكندرية وعواصم المديرية مجالس «السناتو» أثناء زيارته لمصر^(١) . ولكن إصلاحه هذا لم يمد على المصريين بالنفع ، فضلا عن أنه لم يكن لهم حق الاشتراك فى مثل هذه المجالس ، كان الأمبراطور يرى من وراء هذا إلى تعزيز الوسائل التى تضمن له الحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب ؛ وكان عبثا يقع على كاهل المصريين الوطنيين .

ونعرف أيضا أن الأمبراطور Caracalla (سنة ٢١١ — ٢١٧ م) بمقتضى دستور انطونينيس Constitutio Antoniniana فى سنة ٢١٢ م أكل إصلاحات سفروس بمنحه الحقوق المدنية الرومانية civitas romana التى كانت تكسب أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية لجميع رعايا الأمبراطورية ما عدا طبقة deditticii ، وهذه الطبقة فى مصر كانت تتمثل فى السكان الوطنيين^(٢) .

وفضلا عن ذلك فإن اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربى كانت اللغة اليونانية^(٣)

كذلك حرم المصريون من الاشتراك فى جيش بلادهم . وقد استسلم المصريون فى معظم هذه الفترة ، وثاروا أحيانا أخرى .

وكان من أخطر الثورات تلك التى حدثت فى عهد الأمبراطور

Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine. pp. 391—395 (١)

Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine pp. 394—396 (٢)

Munier : l'Egypte Byzantine p. 89 (٣)

ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (١٦١ - ١٨٠ م) وتعرف بحرب الزراع ، أو الحرب البوكولية نسبة إلى المنطقة التي كانت تعرف باسم Boucolia في شمال الدلتا^(١).

ولكن كان يقضى على هذه الثورات دون هوادة ولم يلبث أن ظهر عامل جديد في الأفق حول الشعب المصرى من شعب وديع مسالم إلى شعب عنيد مقاوم ، ذلك العامل هو ظهور المسيحية في مصر وانتشارها فيها . فقد كانت مصر في طليعة البلاد التي تسربت إليها المسيحية في القرن الأول الميلادى ، وأخذت في الانتشار تدريجياً في جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى ، إلا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العدا^(٢) وكان بدء اضطهاد الحكومة لمسيحي مصر اضطهاداً منظماً خلال حكم الأباطور Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١ م)^(٣) وظلت المسيحية في مصر تلقى اضطهاداً كثيراً وتسامحاً قليلاً إلى أن ولى عرش الأمباطورية دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) فبلغ اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة وعناد . وقد تولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت في النمو فيما بعد . وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤ م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم في نفوس القبط^(٤).

Jouguet : op. cit. p. 369 (١)

Munier : l'Egypt Byzantine. p. 8 (٢)

Munier : op. cit. p. 8, Milne : A History of Egypt (٣)

Under Roman Rule. p. 128

Munier : op. cit. pp. 9-10, Milne: op. cit. p. 218 (٤)

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصراً مبيّناً لاعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧ م) بها ديناً مسموحاً به ضمن الديانات الأخرى في الدولة الرومانية . ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمي الوحيد في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وذلك في عهد الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م) الذي أصدر مرسوماً بذلك في سنة ٣٨٠ م^(١) ولم يلبث أن حرم العبادات الوثنية في مرسومين أصدرهما سنتي ٣٩٢ و٣٩٤ م^(٢) على أن مصر المسيحية لم تنعم بهذا النصر الذي أحرزه الدين المسيحي إذ ثار النزاع والجدل من أيام قسطنطين الأول ، بين المسيحيين حول صفات المسيح وطبيعته . وقد تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة في هذه المنازعات الدينية البحتة ، وعقدوا من أجل ذلك المجالس الدينية . إلا أن أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مناوئة لمعتقدات المسيحيين في مصر فاحتدم النزاع بين الفريقين ، وبلغ ذلك النزاع الديني بين كنيسة الإسكندرية والقسطنطينية أقصاه منذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى حينما اختلفت الكنستان حول طبيعة المسيح . فذهبت الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة Monophysite أما كنيسة القسطنطينية فقالت بأن للمسيح طبيعتين . وقد دعا الإمبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧ م) من أجل ذلك إلى مجمع ديني في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م^(٣) فأقر ذلك المجمع مذهب الطبيعتين ، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان ديسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة . إلا أن المسألة لم تكن مسألة دينية

Munier : op. cit. pp. 38-39 (١)

Munier : op. cit. p. 37 (٢)

Milne : op. cit. p. 221 (٣)

فحسب ، إذ اتخذ الخلاف الديني في مصر شكلا قومياً^(١) . فلم يقبل
ديسكورس Dioscorus ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا
على أنفسهم « الأرثوذكسين » (أى أتباع الديانة الصحيحة) ، ولا زالوا
يعرفون بذلك الاسم إلى اليوم ، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا
بمد الفتح العربي باسم الملكانيين (من الكلمة العربية « ملك ») لاتباعهم
مذهب الأمباطور^(٢) .

ومنذ ذلك العهد تعرف الكنيسة المسيحية في مصر باسم الكنيسة
القطبية الأرثوذكسية ، وتعرف أحياناً بالكنيسة اليمقوبية ، نسبة إلى يعقوب
البرادعي Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها المونوفيزيتي في النصف
الثاني من القرن السادس الميلادي — الذي زار مصر ضمن بلاد الشرق التي
زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية — ولكن يصعب أن نجد اسمه ضمن
الحوليات المصرية لأن الأقباط لم يقبلوا تدخل السوريين في شئونهم الكنسية
مثلاً تدخلت كنيسة القسطنطينية من قبل^(٣) .

ومما يدل على أن المسألة الدينية في مصر تطورت إلى مسألة قومية
أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس^(٤) عن رهبان أحد الأدبرة بأنهم لم
يحيدوا عن المذهب الأرثوذكسي ولم يقبلوا المذهب الخلقدوني لأنهم مصريون .
وبعد مجمع خلقدونية وقع المصريون — أبناء الكنيسة الأرثوذكسية
— تحت اضطهادات الأباطرة . وقد كتب أميلينو^(٥) Amélineau أن

(١) Munier : op. cit. p. 45, Wiet : Précis de l'hist.

d'Egypte, t. 11 ; p. 116

Munier : op. cit. p. 48 (٢)

Munier : op. cit. p. 63 (٣)

(٤) سيرة الآباء البطارقة ص ٩٨ ; (Patr. Orient, t. 1)

(٥) Etude sur le Christianisme en Egypte. pp. 1--2

حرمان ديسفورس وطرده من الكنيسة في مجمع خلقدونية كان فاتحة لأساسة عظيمة مثلت أدوارها في منتصف القرن السابع الميلادي وانتهت بؤوال سلطان المسيحية من مصر .

وقد فرح المصريون بثورة هرقل ضد الإمبراطور فocas (٦٠٢ - ٦١٠ م) وساعدوا قائده نيقثاس Nicatas الذي وكل إليه الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية^(١) .

وفرّح الشعب المصري أيضاً عندما تم تتويج هرقل إمبراطوراً في سنة ٦١٠ م ورحبوا بعقد جنوده^(٢) ، ولعل المصريين كانوا يعتقدون أن حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء .

وما لبث الفرس أن غزوا مصر سنة ٦١٦ م في عهد ملكهم كسرى الثاني^(٣) وبقوا سادة البلاد ، إلى أن اضطروا للجلاء عنها عندما حارب هرقل بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩ م^(٤) .

على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الديني فأصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمنع الناس عن الكلام في طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة ولم يفتن هرقل إلى أن مذهبه الذي جاول به التوفيق قد ياباه أهل مصر^(٥) كما أنه وقع فيها وقع فيه جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) من إنسان

(١) بتر : فتح العرب لمصر من

Munier : op. cit. p. 65 (٢)

(٣) بتر من ٦٣

Munier : op. cit. p. 68 (٤)

(٥) بتر من ١٥٥

الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس^(١) الذى يعرف عند مؤرخى العرب باسم القوقس .

وقد أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين إما الدخول فى مذهب هرقل الجديد ، وإما الاضطهاد . وقبل أن يصل هذا الحاكم الجديد إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١ م هرب البطرك القبطى بنيامين توقعاً لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد^(٢) .

وقد قامى الأقباط جميع أنواع الشدائد من جراء اضطهاد قيرس ، الذى فاق كل اضطهاد ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد ومنهم بعض الأساقفة . وصعد كثيرون ضده ومن بينهم الأب مينا أخ البطرك بنيامين رغم التعذيب والاضطهاد الذى ناله من جراء ذلك^(٣) . ومن ذلك نرى « أن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية من أسباب الولاء^(٤) » وتمهد السبيل بذلك لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية ، تلك هى دولة العرب .

فبعد أن أزال العرب تقريباً ملك الأكاسرة فى فارس عقب انتصارهم فى موقعة القادسية (أواخر سنة ١٦ هـ) ، واستيلائهم على عاصمتهم « المدائن » وبعد استيلاء العرب على بلاد الشام وفلسطين كان لا بد من التفكير فى غزو مصر .

(١) ساويرس بن الفقع : سير الأباء البطارقة ص ١٢٦ . ١ . Patr. Orient .
يقول ساويرس وأنفذ (يعنى هرقل واليا إلى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركاً
واليا مما) و Milne : op. cit. p. 115 .
(٢) انظر ساويرس بن الفقع : ص ٢٢٦ .
(٣) ساويرس : ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .
(٤) بطر : فتح العرب لمصر ص ١٧٠ .

ففي سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) عندما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية^(١)، للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوح في بلاد الشام وفلسطين، تظهر لأول مرة في المصادر العربية فكرة غزو مصر كأنها فكرة طارئة عنت لعمر بن العاص وحسنها للخليفة عمر بن الخطاب^(٢). وهذه المراجع تذكر أيضاً أن الفكرة ترجع إلى عمر بن الخطاب نفسه الذي أمر عمرو ابن العاص بالسير إلى مصر^(٣) ويذكرون أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد في فتح مصر بدليل أنه قال لعمرو إنه مرسل إليه كتاباً إن أدركه قبل دخوله في حدود مصر رجع ثانية وإن كان قد دخل في حدودها استمر في سيره^(٤)، ويقال أيضاً إن عمرو بن العاص خرج سرّاً إلى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب^(٥).

هذه الروايات وأمثالها، التي ينسجها مؤرخو العرب، ربما يقصدون منها أن يضموا حالة من العظمة فوق عظمة الفتوحات، ولكن لا يعقل أبداً أن فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف، ولا يعقل أن يسير عمرو إلى مصر سرّاً بدون استئذان خليفة كعمر بن الخطاب. نعم لعل

- (١) الجابية : قرية من أعمال دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣) .
 (٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمي الفرنسي) ص ٥١ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨ وخط المقيزي ج ١ ص ٣٢٨ وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ .
 (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ والبلاذري ص ٢١٢ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ وخط المقيزي ج ١ ص ٢٨٩ والنجوم الزاهرة لأبي الحسن ج ١ ص ٦ .
 (٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ واليعقوبي ص ١٦٨ - ١٦٩ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ والمقيزي ج ١ ص ٢٨٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٦ .
 (٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٢ وكتاب الولاة للسكندی ص ٧ - ٨ والمقيزي ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

عمرو بن العاص كان يعمل على الحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه ولكن يجب ألا ننسى أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الإسلامية بالشام ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم^(١)، ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بملكاتها في الشام. وغالبا ما خضعت مصر والشام في العصور المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود بين القطرين حداً منيعاً فاصلاً، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة. وقد كتب الأستاذ ليون كاتاني^(٢) Leone Caetani أن ثروة مصر الطبيعية العظيمة حتمت عليها منذ القدم ألا تعيش في عزلة عن بقية العالم ولذا نجد مصير مصر السياسي يرتبط دائماً بمصير الإمبراطوريات والأمم التي تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وخاصة على سورية وفلسطين.

والواقع أن العرب لم يجهلوا ثروة مصر حينذاك، خصوصاً وقد جاءها كثير منهم للإتجار في أيام الجاهلية نذكر منهم عمرو بن العاص^(٣) وعثمان بن عفان^(٤) والمغيرة بن شعبة^(٥)، ولا بد أن كثيراً من الأعراب والتجار العرب كانوا يقدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافي سترابون قال عن مدينة Koptos فقط

(١) للقلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي وميم هو السويس الحالية.

(٢) Anali dell'Islam, vol. IV, p. 65

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر (طبعة توري) ص ٥٣ والسكندی :

كتاب الولاة ص ٦ - ٧.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢.

(٥) المرجع نفسه ص ٩٩.

في الصعيد أنها مدينة نصف عربية^(١)

وقبل أن نبين باختصار كيف تم فتح العرب لمصر يجدر بنا أن نذكر أن الجيش البيزنطي في مصر لم يزد عن ٣٠,٠٠٠ جندي ، وكانت تعوزة الوحدة والانسجام كما كانت تنقسمه المنازعات والأحقاد الشخصية . ومع أن الجيش كان تحت رئاسة « سيد جند الشرق » *Magister militum per Orientem* ومقره في القسطنطينية ، لكنه لم يكن له قائد أعلى في مصر بل كان يخضع لحسة قواد كلهم على قدم المساواة . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة البيزنطية غيرت سياستها التي اتبعتها في أول الأمر ، وهي عدم تجنيد المصريين في الجيش ، إذ دلت أوراق البردي على أن معظم الجنود في هذا الجيش قبيل الفتح كانوا من الأقباط وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة وكان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة كما كانوا يملكون بالقرب من بلادهم ، وكانت مهمة هذا الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق وإخماد الثورات الدينية والاشتراكية في جباله الضرائب^(٢) ولنرى الآن كيف تم فتح العرب لمصر .

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين إلى مصر على رأس جيش مكون من أربعة آلاف محارب أو ثلاثة آلاف وخمسمائة^(٣) في سنة ١٨ هـ

(١) أنظر : Wiet : Art. Kibt. Enclopaedia of Islam vol. 11. p. 991

(٢) Cf. Munier : l'Egypte Byzantine pp. 77 — 78. Wiet : Hist.

de la Nation Egypt. t. IV, pp. 15—16

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ١٠١ واللاذري : فتوح البلدان ص ٢١٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨ وخطط القرظي ج ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ — ٦ .

(٦٣٩ م) ، ووصل إلى العريش في أواخر تلك السنة ومنها إلى القرما^(١) فلقى أول مقاومة هناك من الجنود البيزنطية استوقفته شهراً ولكنه تغلب عليها في أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) ، ثم واصل السير متغلباً على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دين^(٢) حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا في حصن بابليون^(٣) ، ويظهر أن المقاومة البيزنطية في الحصن كانت على أشدها بدليل أن عمرو استنجد بالخليفة عمر ابن الخطاب فأمدّه بأربعة آلاف رجل^(٤) ويقال إنه أمدّه بأثنى عشر ألفاً^(٥)

حاصر العرب الحصن بضعة أشهر وأخيراً اختلقت السفراء بين الروم والعرب وقد أضر العرب على ألا يقبل من الروم إلا الدخول في الدين الإسلامي أو دفع الجزية أو القتال . ولكن الروم المحاربين رفضوا تلك الشروط فاستؤنفت الحرب بين الفريقين ، حتى سلم الروم في النهاية صاغرين وقبلوا دفع الجزية^(٦) ويقال إن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن يحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام^(٧) ثم عقد العرب مع المصريين

(١) القرما هي مدينة بلوزيم Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر الأبيض وهي شرقي بورسعيد الحالية .

(٢) في تاريخ حنا القتيوسى ص ٥٥٧ يذكر اسماً آخر لها وهو تندونياس

Tendounya وهي تقع في شمال حصن بابليون

(٣) هو الحصن الذى بناه الأمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) وكان يسميه

العرب قصر الشمع أو الحصن .

(٤) تاريخ حنا القتيوسى ص ٥٥٧ وابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة

المعهد) ص ٥٦ وخطط القريرى ج ١ ص ٢٨٩ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٠٥ والقريرى ج ١ ص ٢٨٩ والبلاذرى : فتوح

البلدان ص ٢١٣ .

(٦) خطط القريرى ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٧) البلاذرى ص ٢١٣ - ٢١٥ والقريرى ج ١ ص ٢٩٠ .

معاهدة أجازها الخليفة عمر بن الخطاب^(١)

ولم تكن بابلون عاصمة مصر ولكنها كانت أهم مركز فيها نظراً لوقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد في مصر الإغريق الرومان .

وبالرغم من هذا الصلح اشترط القوقس أن لا يبت في أمر الروم نهائياً إلا بعد أن يكتب إلى هرقل بذلك ، فإن قبل الأمر طور سرى هذا الصلح عليهم ، وإن لم يقبل عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه .

ويفهم من هذا أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغاً منه بمقتضى هذا العهد بكنس الروم^(٢) . ولكن جاء جواب هرقل ليوم القوقس ويوبخه على تخاذله ويطلب منه أن ينهض هو والروم لمحاربة العرب ، تلك الفئة القليلة ، وألا يرضوا كالتقبط بالذلة ودفع الجزية للعرب^(٣) .

وتجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة المسلمين ، وسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها وأخذ في هدم المقاومات التي صادفها في طريقه ، حتى وصل إلى الإسكندرية وألقى عليها الحصار . وقد كان البيزنطيون يدركون أهمية الإسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيداً أنه إن لم يتم استيلاء العرب على الإسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها إذ تظل الإسكندرية شوكة في جانبهم . ويقال إن هرقل استعد للخروج

(١) إيلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٢) يطلق مؤرخو العرب لفظ روم على حاميات هرقل كما أنهم يستعملون لفظ

قبط مرادفاً للفظ مصريين (Butler : The Treaty of Misr. p. 29)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمي الفرنسي)

ص ٦٤ — ٦٥ والقريري : خطط ج ١ ص ٢٩٣ .

لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه^(١) ولكنه مات في ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٢٠ هـ)^(٢) قبل أن يفعل شيئاً . ويظهر أن مقاومة البيزنطيين في الإسكندرية كانت عنيدة بدليل استبطاء عمر بن الخطاب للفتح^(٣) ، ولا عجب فقد كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتي إليهم عن هذا الطريق . ويضاف إلى ذلك أن حصون الإسكندرية كانت منيعة ، وكان يحميها من جهة البر الغياض والبحيرات وترعة الإسكندرية^(٤) ولكن ساءت حالة الجيش البيزنطي لتنازع القواد ولا تقسام الرأي الإسكندري أثناء حصار العرب للمدينة^(٥) كما اضطربت أمور الدولة البيزنطية نفسها بعد موت هرقل . وقد صدق المؤرخ ابن العميد^(٦) إذ قال . « فوهنت شوكة الروم بموته » إذ ولي الحكم بعد هرقل ابنه قسطنطين وهرقل الثاني ونصبت الأمباطورة مارتينة Martine أم ولده هرقل أو هرقلonas شريكة لها في الحكم^(٧) فعملت هذه الأمباطورة على إنهاء الحرب ، لانشغالها وساسة البيزنطيين بالفتن الداخلية التي قامت من أجل النزاع على العرش ، وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام البيزنطيين المسيطرين على سير الأمور في مصر . ويذكر جنا النقيوسي^(٨) أن قيرس البطرك الخلقدوني لم يكن هو الذي رغب في السلام وحده وإنما رغب فيه السكان

(١) المقرئى ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) بطر : فتح العرب لمصر ص ٢٦١ .

(٣) المقرئى ج ١ ص ١٦٩ .

(٤) بطر : فتح العرب لمصر ص ٢٩١ .

(٥) حنا النقيوسي : تاريخ ص ٥٧٠ .

(٦) تاريخ المسلمين ص ٢٤ .

(٧) بطر ص ٢٦٢ .

(٨) Chronique. p. 573 (A)

والحكام ، ودومنتيانوس Domentianus^(١) الذي كان موالياً للإمبراطورة مارتينه ولذا اجتمعوا واتفقوا مع قيرس على إنهاء الحرب بمقد صلح مع المسلمين .

ذهب قيرس إلى بابليون — حيث كان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين — وهناك طلب الصلح فرحب به عمرو وعقد معاهدة بصرح أن نطلق عليها معاهدة بابليون الثانية ، تمييزاً لها عن المعاهدة الأولى ، وأن نسميها معاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . ومن شروط هذه المعاهدة حسب ما أورده حنا النقيوسي^(٢) أن تمقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر بابه (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٢١ هـ) وفي أثناءها يكف الروم والعرب عن القتال كما يتم جلاء حامية الروم عنها حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يعوذ جيش رومي ثانية إلى الإسكندرية ، وألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم ، وأن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية . وضمماناً لنفاذ هذا العقد يأخذ المسلمون ١٥٠ من الجند و ٥٠ من غير الجند كرهائن .

ونلاحظ من شروط هذا الصلح أنه عقد في نوفمبر سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) . وعقب سقوط الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجياً إلى سائر الأقاليم في مصر ويجدر هنا أن نلاحظ قلة ما ذكرته المراجع القديمة عن هذا الامتداد والطريقة التي تم بها . ونلاحظ أيضاً أن السبب الذي حل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم في الشام ، جعلهم يتجهون إلى برقة لتأمين مركزهم

(١) دومنتيانوس هو أحد الحكام البيزنطيين في مصر أثناء فتح العرب لها .

(٢) Chronique p. 575.

في مصر . فترى عمرو بن العاص - عقب الانتهاء من فتح مصر مباشرة - يسير إلى برقة (انطابلس) فيفتحها ويفرض عليها الجزية ^(١) ، وفي سنة ٢٢ هـ غزا عمرو طرابلس ويقال إنه غزاها سنة ٢٣ هـ ^(٢) ، وقد فكر عمرو بعد فتح طرابلس في غزو بلاد المغرب كلها ، إلا أن عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك ^(٣) ، وربما تخوف الخليفة من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة ولما ثبت أقدامهم فيها بعد .

ويمكننا أن نعتبر فتح برقة خاتمة لفتح وادي النيل كله اللهم إلا إذا تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية فإن عمراً لم يغفل تأمين هذه الحدود فبعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس حملة إلى النوبة في سنة ٢٠ هـ ويقال في سنة ٢١ هـ ، إلا أن تلك الحملة لم تستطع عمل شيء إزاء مقاومة النوبة . فكتب عمرو إلى ابن سعد يأمره بالجوع ^(٤) وقد عاد عبد الله بن سعد ثانية إلى غزو النوبة سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان . ووصلت حملته إلى دنقلة واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه الحملة بمقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط ^(٥) كانت أشبه

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة توري) ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٧١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) خطط القرطبي ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) يقول القرطبي في الخطط ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ : البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم : فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبت من صرعى فيكون معناه على هذا نبتة من المال أو يكون من قولهم لأن في بني تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض . فرقة منها وبقط الصبي فرقه ، والبقط أن تعطي الجبهة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة . ولكن =

بمعاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ، إذ كان أهم ما اشترط فيها ألا يعتدى أحدهما على الآخر ، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة ، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضاً^(١) .

وينبغي ملاحظة أن فتح مصر النهائي واستخلاصها من أيدي البيزنطيين لم يتم إلا في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني^(٢) (٦٤١ - ٦٦٨ م) (٢١ - ٤٨ هـ) الذي أرسل أسطولاً كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر إجلاء تاماً .

وقد تم استيلاء الجيش البيزنطي على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ، وبخرج مركز العرب في مصر وكان الوالي إذ ذاك عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان ولذا نجد أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمراً لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى في هذه المرة على الإسكندرية عنوة ثم صالح أهلها كما قتل قائد جيش الروم^(٣) .

== الأرجح أن كلمة بقط هذه من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق . انظر مادة Bakt في دائرة المعارف الإسلامية . C. H. Becker : Islamstudien, I p 150 . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد . انظر ابن عبد الحكم (طبعة توري) ص ١٨٨ - ١٨٩ والسكندی :

(١) انظر ابن عبد الحكم (طبعة توري) ص ١٨٨ - ١٨٩ والسكندی : الولاة والقضاة ص ١٢ - ١٣ والمقرئ : خطط ج ١ ص ٢٠٠ .
(٢) يذكر مؤرخو العرب أن هذه الحملة كانت في عهد قسطنطين بن هرقل ولكنها كانت في الواقع في عهد قنسطانز الثاني خفيد هرقل وابن قسطنطين . أما قسطنطين بن هرقل فقد توفي في مايو سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) .

(٣) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة توري) ص ١٧٥ - ١٧٨ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢١ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٩ والسكندی كتاب الولاة ص ١١ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٦٢ والمقرئ : خطط ج ١ ص ١٦٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦ .

الباب الاول

تتم الحكم

يحدد من كل معسر السيماني بمقتضى مداومة بابليون الأولى التي عقدت عقب استيلاء الساسين على حصن بابليون سنة ٦٠٠ هـ (٦٤١ م) . وقد أورد الطبري ^(١) ومن نقل عنه من المؤرخين مثل ابن خلدون ^(٢) والقليشندي ^(٣) وأبي الحسن ^(٤) هذا الصلح ، وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل معسر من الأمان على أنفسهم وممتلكاتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وحرهم ^(٥) . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يثقل ولا يساكنهم النوب ^(٦) . وعلى أهل معسر أن يسلموا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما جرى لصوتهم ^(٧) . فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا عن أبي بريثة ، وإن نقص نهرهم من

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

(٢) كتاب العبر وديوان البتدأ والحبر ج ٢ ص ١١٥

(٣) مبيع الأعشى ج ١٣ ص ٣٧٤

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤ - ٧٥

(٥) يقصد بهم أراشيهم الزراعية وبقية نهرهم نهر النيل . يقول السعدي في

مروج الذهب (رسالة الفامرة ج ١ ص ٢١١) : « وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحرأ غير نيل معسر لشكبه واستيعاره » ولا زلنا في كلامنا الدارج نطاق على نهر النيل اسم البحر .

(٦) النوب أهل النوبة

(٧) الصوت القموص

فجر الإسلام . (٢)

غايتة إذا انتهى رفع عنهم بقسدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أتى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب ، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ودم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على أن لا يُغزوا ولا يعنموا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله وعبد ابنه . وكتب وردان^(١) وحضر . فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح .

نرى من هذا الصلح أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية ، وأن قيمة الجزية^(٢) كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل في كل عام ، كما أنها كانت تدفع على ثلاثة أقساط في السنة . وفيما يختص بالروم في هذا الصلح عرفنا في المقدمة أن أمرهم كان مطلقا بموافقة الأباطور ، ولذا ترك لهم عمرو الخيار في قبول هذا الصلح . أما أهل النوبة فكانت مسائلهم تختلف عن مسألة الروم إذ كانت النوبة أثناء فتح العرب لمصر مملكة قوية مستقلة ولربما كانت الإشارة هنا إلى من كان يقيم في مصر من النوبيين .

(١) وردان مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه (ابن عبد الحكم : فتوح مصر

— طبعة تورى — ص ٩٣)

(٢) تفهم من لفظ الجزية التي ورد في هذا الصلح أنه يعني الجزية والخراج مما أجزية الرؤوس والضريبة العقارية ويلاحظ Van Berchem أن كلمة خراج كانت تعني أحيانا جزية الرؤوس وأحيانا تعني ضرائب أخرى تختلف في طبيعتها عن ضريبة الرؤوس والمعار . انظر : M. Van Berchem

ويحذر أن ننسب هنا إلى ما يراه بترل من أن صلح بابليون كان يختص بأهل مدينة مصر (بابليون) لا القطر المصري كله . ويؤيد بترل وجهة نظره هذه بأنه من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو القدس أن يمدوا صلحاً مع أهلها ، كما أنه في الوقت الذي عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحري . أما مقدار الجزية التي جاء في الصلح وهو ٥٠ مليون دينار^(١) فهذا ما يجب استبعاده^(٢) . ولكن رأى بترل يخالف ما ذكرته المصادر القديمة التي أوردت نص هذا الصلح إذ ذكرت هذه المصادر أن أهل مصر كلهم قبلوا هذا الصلح ودخلوا فيه . ونحن نوافق بترل في أن مقدار الجزية الذي ذكر في النص كبير ، بل نستبعد أن يكون قد فرض حتى على مصر كلها ، ولكن هذا الرقم البالغ فيه ، يرجح أن الصلح والجزية كانا على القطر كله لا على مدينة مصر وقد رأينا أيضاً ما كان لبابليون من الأهمية ، وأنها كانت بمثابة قلب مصر . وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة الفعلية كانت الإسكندرية . وحوادث التاريخ تربطنا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك ممناً سقوط الدولة كلها ، مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذي كان إيذاناً بسقوط الدولة الرومانية الغربية في أيدي البرابرة ، وسقوط باريس في سنة ١٨٧٠ م الذي كان إيذاناً بسقوط فرنسا في أيدي الألمان .

(١) لم يذكر في نص الصلح إذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وإنما ذكر الرقم فقط وهو ٥٠ مليون . ولكننا نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار لا بالدرهم (أنظر للقرنبي : النقود الإسلامية ص ١١)

(٢) Butler : The Treaty of Misr. pp. 25-26, 47-48

١ — النظام الإداري

لما فتح العرب مصر وجدوا بها نظاماً قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت في خلال العصور المختلفة ، فقصت عليهم الحكمة السياسية ألا يحسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلاداً راقية في نظمها متقدمة في حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ، ليشرفوا على الإدارة بوجه عام .

كان الخليفة يعين في مصر والياً يمثله ، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلاً أو ولاية عبد العزيز بن مروان ، ويقال للوالى أيضاً « أمير مصر » وللدار التي يقيم فيها والى مصر « دار الإمارة » . ونجد في أوراق البردي اليونانية اسم آخر للوالى هو سيمبولس ^(١) δυμβουλός .

وكان الوالى يؤم المسلمين في المسجد الجامع في صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة ، ولذا يطلق عليه أمير الصلاة ، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة . وإذا كان المسلمون يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ إمام ، كانت إمامة الوالى في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة . ولم يكن الوالى مسئولاً أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة . وكان يجمع أحياناً إلى سلطته إدارة المالية المعبر عنها بالخراج مما يحمله مطلق التصرف في الدولة ، وأحياناً يسند الخليفة عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولاً أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيراً إذ يصبح عاجزاً عن التصرف في الأمور المالية كما يشاء . ولذا كان لأمير

الخراج أهمية كبيرة وكثيراً ما يكون منافساً للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليل على أهمية عامل الخراج من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرواً على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو « أنا إذاً كمالك البقرة بقرنها وآخر يحملها ^(١) » . ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر .

وتبين أيضاً تلك الأهمية التى كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو ابن العاص ، عين معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠ = ٦٨٠ م) أخاه عتبة بن أبى سفيان (٤٣ - ٤٤ هـ) والياً على الصلاة فى مصر وولى وردان الخراج ، ثم خرج عتبة بن أبى سفيان إلى معاوية فى نفر من أهل مصر ، فسأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال أحدهم « حوت يحر يا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية لعتبة : اسمع ما يقوله فيك رعيتك . فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين حبيبتي عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أقبل فأبخل . فضم إليه معاوية الخراج ^(٢) .

ولعل أبلغ مثل يرينا مدى ما وصلت إليه سلطة عامل الخراج ، هو عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ، فقد ظل عاملاً على خراج مصر منذ ولى هشام الخلافة حتى خرج إلى إمارة أفريقية فى سنة ١١٦ هـ ^(٣) أو سنة ١١٤ هـ ^(٤) ، وفى

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة المهد العالمى الفرنسى — ص ٧٨

(٣) القرظى : خطط ج ١ ص ٢٠٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٣

خلال هذه المدة لتابع على حكم مصر خمسة ولايات^(١) ، وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة وتولييتهم برضى الخليفة . فزاه عندما تنازع مع الحر بن يوسف وإلى مصر سنة ١٠٨ هـ يكتب إلى الخليفة هشام يشكّيه ؛ وسرعان ما عزل الخليفة الحر عن ولاية مصر ، وولى بدله حفصا بن الوليد على الصلاة ، ولكن عبيد الله بن الحبصا كتب إلى الخليفة يقول « إنك لم تنزل الحر إذ وليت حفصا » . فجعل الخليفة الاختيار إلى عبيد الله فاختر عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وقد ولى مصر بعد عبد الملك بن رفاعه هذا ، أخوه الوليد بن رفاعه ، (١٠٩ هـ — ١١٧ هـ) ويقول أبو الحسن^(٣) : « ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لظروجه عبيد الله بن الحبصا المتولى على خراج مصر منها ، وقد تقدم عزل جماعة كبيرة من المال بمصر بسبب عبيد الله المذكور ، فدير عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستعمله على أفريقية ، فسار إليها عبيد الله بن الحبصا واشتغل بها عن خراج مصر » . ولعل من أسباب نفوذ ابن الحبصا أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرئاسة على الجيش فى الولاية ، ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر^(٤) . فوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ، وكان يقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقوده نيابة عنه . ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى

(١) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٧٢ — ٧٦

(٢) الكندى ص ٧٤ — ٧٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٦

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٧٨ وطبعة

بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة و طرابلس ، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة ، وكذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التي سارت لغزو أفريقية والنوبة^(١) كما غزا الروم في غزوة ذى الصوارى . وفي ولاية عتبة بن أبى سفيان (٤٣ - ٤٤ هـ) عندما شكأ قائد رباط الإسكندرية من قلة من معه من الجنود خرج عتبة ورابط فيها وذلك في سنة ٤٤ هـ^(٢) كذلك خرج الحر بن يوسف في ولايته على مصر مرابطا في دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧ هـ^(٣) . كما نرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم اشقاو أن يعجل في إرسال المال المفروض على كورته ليأمر للجند بمطائهم^(٤) ، ونجده أيضا يهتم بالإشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مراب الأسطول ويهتم بالمؤن التي يحتاجها بحارة الأسطول^(٥) كما يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو^(٦) .

وللوالى أيضا الإشراف على الشرطة ، وكان مقرها مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص . ولما بنى المباسيون مدينة المسكر التي كانت تقع شمالي الفسطاط عملت شرطة أيضا في المسكر وقيل لها الشرطة العليا^(٧) ، وربما وصفت بالعليا لأهميتها . وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد

(١) الكندى ص ١٢

(٢) الكندى ص ٣٦

(٣) الكندى ص ٧٤

(٤) Grohmann: Arabic Papyri. vol. 111. pp. 12-13. Becker: Neue

Arabische Papyri. Der Islam. 11. pp. 251-262

Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri. 11. p. 277 (٥)

Bell : op. cit. 11, pp. 375-376 (٦)

(٧) القرئزى : خطط ج ١ ص ٣٠٤

في المصادر القديمة ، مثل كتاب الولاية وكتاب القضاة للكندى وكتاب
النجوم الزاهرة لأبى الحسن . وفي حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذى
يعين صاحب الشرطة ، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون حين عين
صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التى كانت فيها سنة ٨٣١٧^(١)
وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالى يؤم الناس فى الصلاة إذا مرض
الوالى ، ويحكم الولاية إذا خرج الوالى من مقر ولايته . فعزى خارجه بن
حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص^(٢) ،
ونرى عابس بن سعيد المرادى صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن
مروان والى مصر فى حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان
سنة ٦٧ هـ^(٣) . ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يسميه الخليفة واليا
على البلاد إذا ما عزل الوالى أو مات أو تنحى عن أمور الولاية . فمثلا كان
حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل أن يلى على صلاة مصر من قبل الخليفة
هشام بن عبد الملك^(٤) . وتكاد المراجع العربية لا تذكر شيئا عن أعمال
الشرطة فى مصر ، ولكن لابد أن الولاية كانوا يمهّدون إلى صاحب الشرطة
بتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضونها وببشر الأمن فى البلاد ، كما كانت
وظيفة صاحب الشرطة فى الخلافة نفسها ، ولا بد أنه كان لصاحب الشرطة
عمال فى العاصمة وفى الأقاليم لتنفيذ أوامره . ونلاحظ أن استتباب الأمن فى

(١) الكندى : كتاب الولاية ص ١٩٢ وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢

ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٠٥ والكندى ص ٣١ — ٣٢

(٣) كتاب الولاية للكندى ص ٤٩

(٤) الكندى ص ٧٤ — ٧٥

مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم ، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر ما يمكن من الضرائب . ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن في البلاد إلى الولاة لا إلى أصحاب الشرطة لأن الوالى هو الرئيس الأعلى في الولاية وهو الذى يأمر صاحب الشرطة بذلك ، فثلا نسمع فى عهد ولاية يحيى بن داؤد الخرسى الشهير بـ ابن عمود والذى يعرف بأبى صالح (١٦٢ - ١٦٤هـ) أنه لما قدم إلى مصر وجد بها السبل مخيفة ، لكثرة المفسدين وقطاع الطرق ، فأخذ فى قمع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة . وقد بلغ من استتباب الأمن أنه منع غلق الأبواب والحوادث ليلا حتى جعلوا عليها شرائج^(١) القصب والشباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا ، كذلك منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال : من ضاع له شيء فليأدأه ؛ فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : « يا أبأ صالح احفظها »^(٢) .

وبالطبع كل هذه الأشياء لم يقم بها أبو صالح ، وإنما قام بها صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكن الوالى كان هو الأمر الناهى ، وكانت الأحوال فى مصر تتوقف على درجة حزمه وشدة أو لينه وضعفه .

كذلك كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ، فى ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٣٥٣ هـ نراه يتشدد فى نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد « ثم التفت إلى أرخوز »^(٣) (صاحب

(١) شرائج جمع شريحة وهى ياب من القصب يعمل هكذا كين

(٢) الكندى ص ١٢٢ وأبو المحاسن : النبوم الزاهرة ج ١ ص ٤٤

(٣) فى الكندى أرخوز ص ٢١٠

شرطته) وحرضه على أمور أمره بها ، فشدد أرخوز المذكور عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر وسجن المؤمنين والنوائح^(١) .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة في تلك الفترة أيضاً وظيفة صاحب البريد ولم تكن تلك الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين ، إنما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد في عهد الدولة العباسية . ويقال إن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبعه في ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بمهارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة .

وقد وصلت إلينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) ، كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير إلى أوامره بصنعة الأميال^(٢) وبمهارة أربعة طرق تخرج من إيلياء^(٣) ومن دمشق^(٤) . وقد اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزاً تنتشعب منه الطرق إلى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدي إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما . هذا ، ولم يكن البريد نظاماً يستعمله الشعب إنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، ويظهر أن الخلفاء استعملوا نظام البريد في

(١) أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣٧

(٢) صنعة الأميال هي مسح الأراضي لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل .

(٣) أيلياء هي بيت المقدس (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٤٢٤)

(٤) van Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum* (Jérusalem t. I; pp. 20, Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I. pp. 18-16)

أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاية الأقاليم وعمالها^(١). ولم أجد في المصادر القديمة ذكراً لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر اللهم إلا في موضع أو موضعين ، فيذكر الكندي في كتابه الولاية والقضاة أن صاحب البريد بمصر كتب إلى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجند^(٢)، وفي موضع آخر يذكر أن صاحب البريد في مصر في ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ — ١٧٥ هـ) أراد أن يتدخل في عمل قاضي مصر إذ ذاك أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحرابي فلم يكن من القاضي إلا أن استمعى عن القضاء^(٣) ويظهر أن إغفال ذكر أصحاب البريد في تلك المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها .

تحدثنا حتى الآن عن الوظائف الرئيسية التي كانت وقفا على القاضيين ،

(١) كان أبو جعفر المنصور يقول . ما كنت أحوجنى إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم فليل له يا أمير المؤمنين من هم قال . هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن قصت واحدة وهمي ، أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة . آمه قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال . صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة . الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧ — ويقول قدامه بن جعفر في كتاب الخراج عند كلامه على ديوان البريد ص ١٨٤ — ١٨٥ : «والذي يحتاج إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج منه إلى السكافي المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ »

(٢) ص ٢٠٣

(٣) ص ٣٨٤

وستحدث عن وظيفة القاضي في فصل آخر ، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال في يد أهل البلاد .

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين مصر العليا ، ومصر السفلى . فيذكر ابن عبد الحكم^(١) أن الخليفة عمر بن الخطاب توفي وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض^(٢) ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد . ولنا نظرنا أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض ما نعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها . ويذكر الكندي^(٣) أنه في ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ — ١٢٧ هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدى الحضرمي .

من هذا يتبين أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان الرئيسيان كانا مقسمين إلى أقسام أو كور ، ويقال إنه كان بها ثمانون كورة^(٤) ، وهذه كانت مقسمة بدورها إلى قرى . ولفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني κορυ كورة التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي pagarchie أى أن العرب احتفظوا بنظم

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة توري — ص ١٧٣

(٢) أسفل الأرض أى مصر السفلى أو الوجه البحرى . وكان مقسما جغرافيا إلى الحوف الشرقى شرق فرع دمياط والحوف الغربى غربى فرع رشيد وبعث الريف بين فرع رشيد ودمياط (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٠ — ٣٩٠)

(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٨٤ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ والمقرئزى : خطط

البيزنطيين الإدارية وكان على رأس الكورة « صاحب الكورة » وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بحار كوس^(١) παγαρχος فنجد مثلاً قوة بن شريك وإلى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠ - ٩٦ هـ) يرسل كتاباً إلى بسيل صاحب اشقوه^(٢) وفي كتاب آخر يخبر صاحب الكورة بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطال كورته وإلى موازيت القرى^(٣). وهنا مرة أخرى نجد كلمتين غريبتين على اللغة العربية ! فكلمة جسطال هنا بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أي مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمعناها رؤساء أو مشايخ القرى . ويرى الأستاذ جاستون ثييت^(٤) G. Wiet أن كلمة جسطال مقابلة للكلمة البيزنطية أو جستاليوس αγγελιαρχος ، وأن كلمة ما زوت مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس μειζωτερος .

ومما سبق تبين إلى أي حد أبقى العرب على النظم التي وجدوها في البلاد ، بل أبقوا على الأسماء كما كانت من قبلهم . ومع أن مصر كانت مقسمة إدارياً إلى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالي العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللإستقلال محلياً بأمور إقليمهم ، فكان الحكم في مصر مركزياً إلى أقصى حد ،

(١) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte t. 11, n. 127

(٢) Becker; Neue Arabische Papyri pp. 251-252, Grohmann, (٢) Arabic Papyri, vol. III p. 12

اشقوه كانت كورة من كور الصعيد وهي الآن كوم اشقاوين أبو تيج وطهطا في مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شعاعاً من النور على حكم قوة بن شريك في مصر .

(٣) Becker : op. cit. pp. 254. Grohmann, op. cit. p. 17

(٤) Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11; p. 127

وكانت اللامركزية ممدومة في البلاد ، فكما أن الوالى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة رى الوالى بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة . ولقد ألقت أوراق البردى التى كشفت في كوم اشقاو شعاعا من النور على حكم الولاة في مصر ، وخاصة في العهد الأموى ، ويوجه أخص في عهد ولاية قره بن شريك (٩٠ - ٨٩٦ م) إذ عرفنا من تلك الأوراق إلى أى حد كانت تمتد سلطة الوالى في الأقاليم ، فنراه يرسل كتباً كثيرة إلى عماله يطلب منهم ما يجمع من الضرائب ، وفي الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئا يكرهونه ^(١) ، ثم رى الوالى يرسل إلى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد عمله حتى يكلمه في هذا الأمر ^(٢) . وهنا مرة أخرى رى أنه كلما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى أيضا صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم في مصر . وفي كتاب آخر نجد قره بن شريك يرسل إلى صاحب كورة اشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى مالا لآخر ، ويطلب منه أن ينظر في أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر ^(٣) . ونجد أيضا كتابا لقره يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين ^(٤) . وفي كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون في بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منها الصناع ^(٥)

Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 247-248, Grohmann (١)

Arabic Papyri vol. III. pp. 3-5

Grohmann : Arabic Papyri. vol. III. p. 28

(٢)

op. cit. pp. 30-31

(٣)

van Berchem : Une Page Nouvelle de l'Histoire d'Egypte. (٤)
p. 161

Bell : Translations of the Greek Aphrodite Papyri (Der Islam, Band II) p. 271 (٥)

هذه كلها أمثلة تربينا إلى أى حد تغفلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا ، كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين . وقد احتاج الوالى تبعا لذلك إلى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله إلى مختلف الجهات فى مصر وإلى الخليفة نفسه . ولذا نرى فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاية أسماء الكتبة الذين كانوا يحورونها^(١) ، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء . ويشير القلقشندى^(٢) إلى وجود ديوان إنشاء فى ذلك العهد من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية ، إلا أنه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصرأ عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية المز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاعرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة ، فذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه » .

وقد كان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية ، إذ نجد إشارات كثيرة خلال المصادر القديمة تبين سلطة والى مصر وإشرافه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة إلى هناك ، فنرى مثلا أن عبد العزيز ابن مروان والى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) يقع سوء تفاهم بينه وبين حسان ابن النعمان الغساني الذى قدم من الشام ليتولى أمر جيوش المغرب ، فيمزله ريولى

Grohmann : op. cit. pp. 5, 8, 13, 20, etc (١)

(٢) مسبح الأعشى ج ١١ ص ٢٨

موسى بن نصير أمر المغرب^(١) . كذلك رى صالح بن علي بن الله العباسي في ولايته الثانية على مصر (١٣٦ — ١٣٧ هـ) يولى أبا عون على جيوش المغرب^(٢) .

على أن هذا الإشراف الذى كان لولاة مصر لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عاملها وولاتها . ولكن كانت تضم برقة والمغرب أحياناً تحت سلطة والى مصر مباشرة ، فقد جمع لمسلمة بن مخلد والى مصر (٤٧ — ٦٢ هـ) أمر مصر والمغرب^(٣) ، كما امتدت سلطة صالح بن علي في ولايته الثانية على مصر الى المغرب وفلسطين^(٤) ، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم إلى والى مصر يزيد بن حاتم (١٤٤ — ١٥٢ هـ) برقة بالإضافة إلى مصر^(٥)

ونلاحظ أن ولاية مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقد كان معظم الوظائف الكبرى في الدولة الإسلامية حينئذ للعرب دون سواهم .

وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعالمهم على الولايات قسطاً كبيراً من الحرية ولذا ظهر في الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن الماص وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن عبد الله القسرى وعبد العزيز بن حمران وموسى بن نصير وغيرهم . وفي عهد الدولة الأموية في مصر نجد معاوية يولى عمرو بن الماص صلاة مصر . وخراجها ويجمعها طعمة له بمد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، فظل عمرو من سنة ٣٨ هـ إلى سنة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) الكندى ص ١٠٢

(٣) الكندى ص ٣٨

(٤) الكندى ص ١٠٢ وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٨

(٥) الكندى ص ١٠٢ وأبو الحسن ج ٢ ص ٣

٤٣ هـ حين وفاته . ونجد مثلاً مسلمة بن مخلد يظل والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ - ٦٢) وتوفى هو وال عليها ، وكذلك عبد العزيز بن مروان يظل في ولايته على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة (٦٥ - ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل في حكم البلاد من مقره في القسطنطينية أولاً ثم في حلوان التي أمر ببنائها في سنة ٧٠ هـ ، واتخذها عاصمة له على أثر وقوع الطاعون بمصر^(١) أو على أثر مرضه بالجذام^(٢)

وفي العصر العباسي يتغير الحال ؛ فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولاية مصر من قبل خلفائها بعض ولاء من عناصر فارسية . وكان آخر وال عربي على مصر عنبسة بن إسحق (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ)^(٣) على أنه ظهر عنصر جديد في الدولة العباسية اعتمد عليه الخلفاء وهو عنصر الأتراك . وقد بدأ الخليفة المتوكل (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم ، إذ رأى فيهم قوماً يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس . وسرعان ما تغفل الأتراك في الدولة وأصبحت يبدؤ شؤنها الحربية والمدنية . ونجد مصر تتأثر بتلك السياسة أيضاً فيلها ولاية من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ)^(٤)

- (١) الكندي ص ٤٩ وخط المقرئ ص ١ ص ٢٠٩ وأبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣ .
(٢) أبو صالح الأرمني : كنائس وأديرة مصر ص ٦٦ وسعيد بن بطريق :
التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠ .
(٣) الكندي : كتاب الولاية والقضاة ص ٢٠٢ وخط المقرئ ج ٢ ص
٢٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) الكندي : كتاب الولاية والقضاة ص ٢٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة

ج ٢ ص ٣٠٨

وأم ما نلاحظ في حكم مصر في العصر العباسي كثرة تغيير الولاية ، وقد يكون هذا راجعاً إلى بعد مقر الخلافة العباسية (أعنى بغداد وسامرا) عن مصر ، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاية مصر في الحكم طويلاً لئلا يعلموا في الاستقلال بالبلاد . وقد يكون ذلك راجعاً أيضاً إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقي بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عني هؤلاء الخلفاء بتولية ولاية كثيرين في مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاية .

على أن ما كانت تخفاه الدولة العباسية من استقلال الولاية قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التي اتبعتها ، فنجد عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) إتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤديوا مالا معيناً للخلافة . ولا ريب في أن النظام الإقطاعي في الشرق كان يختلف اختلافاً كبيراً عنه في الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرق والغرب أن الإقطاع الأوروبي كان يتوارث في أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة أما في الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان في الغرب يقطعون مع الأرض بمكس النظام في الشرق . وقد أقطع الخليفة الرشيد إفريقية (تونس الحالية) لإبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٤ هـ^(١) ، وربما تكون قسمة العالم الإسلامي إلى قسمين إقطاعيين في عهد الخليفة المتتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) الذي عاصره أحمد بن طولون ، والذي قسم الدولة العباسية إلى إقطاعين : شرق وغربي ، على أن يحكم القسم الشرق أخوه الموفق ويحكم القسم الغربي ابنه المفضول إلى الله ، ربما تكون هذه

القسمة قد سبقها قسمة أخرى في عهد الخليفة المأمون ، فيذكر الطبري^(١) أنه في سنة ٢١٣ هـ ولي المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم وقد ثبت المعتصم من الحكم من ثبت وعزل من عزل في البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردي على أنه في سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التي تصدر إلى الولاة باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه^(٢) . وقد علمنا من نص « بروكول »^(٣) تاريخه ٢١٧ - ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذي كان واليا على مصر في سنة ٢١٧ - ٢١٩ هـ في حين أن كيدر هذا كان والي الذي أقامه الخليفة مباشرة^(٤).

ولما ولي المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧) هـ هذا حذو الرشيد والمأمون . فاقطع أشناس التركي ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردي أن القائد أبا جعفر أشناس تولى الإمارة على مصر في سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكم بنفسه وهذا يدل على مكانة أشناس ، فقد كان يذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكمه دولة تمتد من بغداد إلى آخر حدود المغرب . كما ضربت السكة باسمه الذي نقش على الموازين والمكايل^(٥) ، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويمين ولائها من قبله إلى أن توفي سنة ٢٣٠ هـ .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٧٩

(٢) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١١

(٣) كان درج البردي يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى من هذه الأوراق باليونانية Protocol $\pi\rho\omicron\tau\omicron\chi\omicron\lambda\lambda\omicron\nu$ وكانت تشمل على الكتابة الرسمية التي تسمى الآن بالطراز (جرومان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ج ١ ص ٤)

(٤) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١١

(٥) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣ هـ) مصر لإيتاخ التركي إقطاعاً له^(١) ولم تقتصر سلطة إيتاخ على مصر ، بل رى الخليفة التوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) يفوض إليه في سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والبدية مضافاً إلى مصر^(٢) . ولكن لم يلبث التوكل أن أمر بالقبض على إيتاخ في المحرم سنة ٢٣٥ هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر^(٣) الذى ظل بولى ولاية مصر إلى أن توفى التوكل وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) . وفي سنة ٢٥٤ ولى ابن طولون بالنيابة عن باكباك التركى صاحب إقطاع مصر^(٤) على أن سياسة إقطاع الأتراك ولاية مصر أدت إلى نتيجة لم تكن فى الحسبان . إذ كان هؤلاء التواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم فى العاصمة خوفاً من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على النابر كما يدعى للخليفة^(٥) . وتدل الوثائق البردية على أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معاً فى خطبة الجمعة^(٦) . وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد ، فإنه لم يكن فى استطاعتهم أو لم يدر بخلد هم أن يراقبوا نوابهم ، ولم يكن من المسير على نائب والٍ له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مركز الخلافة نفسها . وهذا ما حدث فى عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الإسلامية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م) .

- (١) أبو الحسن : النجوم ج ٢ ص ٢٥٥ (٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٧٥
(٣) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٧٨ (٤) القرزى : خطط ج ١ ص ٣١٣
(٥) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٤
(٦) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

٢ — النظام المالى

الجزية والزرقة

قبل أن نبدأ بتفصيل الكلام على النظام المالى للعرب في مصر يجدر بنا أن نشير أولاً إلى معنى الجزية والخراج . فالمعروف أن الجزية هي الضرائب المفروضة على الرؤوس أما الخراج فهو ضريبة الأرض ، ولكننا كثيراً ما نجد في المراجع خلطاً بين هاتين الضريبتين فنرى الجزية تعنى ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضي معاً . ويلاحظ Van Berchem^(١) أن كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية ، وأيضاً جزية الرؤوس ؛ وأحياناً تطلق على ضرائب أخرى تختلف في طبيعتها عن هاتين الضريبتين .

بعد فتح العرب لمصر ، وأعنى هنا بعد معاهدة بابلون الأولى ، فرض العرب على أهل مصر الجزية ، وهاك نص ما ذكره المؤرخون . « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها^(٢) من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ القانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاً^(٣)هم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع

(١) la Propriété territoriale et l'impôt p. 21

(٢) أعلاها وأسفلها أى الوجه القبلى والوجه البحرى

(٣) العريف : العالم بالشيء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء . ويذكر De Sacy

أن العريف معناها كاتب وهي المقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب

Sur la Nature et les Révolutions du droit de propriété p. 179

من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفضوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة^(١) .

هذا فيما يتعلق بالجزية التي فرضت على أهل النمة في مصر كما ذكرها بعض المؤرخين . ويذكر البلاذري^(٢) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً . ولا نفهم من هذا النص إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه إذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذري بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساوا في دفع الجزية . ولكن لو كان العرب عاملوا أهل النمة في مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، وكان العرب قد عادوا بذلك إلى تعسف الحكم الروماني والبيزنطى الذى كان يبنى ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والإسلام الذى يدعو إلى الإنصاف والمعدل ، كما لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة ، التى كانت ترى إلى التحجب إلى أهل البلاد وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وإنما بحسن السياسة .

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأى الذى يقول بمساواة الازمين فى دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففى كتاب من قررة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه بحمد يأمروه بأن يرسل

(١) ابن عبد الحكم (طبعة المعهد الفرنسى) ص ٦٣ — ٦٤ وخط القرزى

ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٤

كشفاً بالأما كن المختلفة لمعرفة عدد الرجال في كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أدائها وما يملكه كل رجل من الأراضي وما يقوم به من الأعمال . ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل^(١) ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلاً في عمله ، ولما هدده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولا كفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم . وفي كتاب آخر بحث به قرة بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل في تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كي يسمع ما يقولون^(٢) .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفاً من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية : فشخص يدفع ديناراً ، وآخر ديناراً ونصفاً ، وثالث ثلثي دينار ، ورابع ديناراً وثلثاً وهكذا^(٣) . وهذا

Bell. Translations of the Greek 'Apurodito, der Islam, II, (١)
p. 272

Bell op. cit. pp. 281-282 (٢)

Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III (٣)
pp. 197-178, 201-203, 217, 219, 220-221.

بلا شك راجع إلى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص . ويجمع الفقهاء أيضا على أن الجزية كانت تتناسب إلى حد ما مع ثروة الشخص فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط اثنا عشر درهما^(١) وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن صاحب إخواننا^(٢) قدم على عمرو بن العاص فقال له « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر^(٣) لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة . لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزائن لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم^(٤) » وهذا يبين لنا أن العرب لم يحددوا الجزية على أهل الزمة في مصر ، وإنما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون ، وترك تقديرها للوالى أو الخليفة . وذكر ابن عبد الحكم^(٥) في رواية له عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهبة عن يونس عن ابن شهاب « أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ويحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج ص ١٠١ والمأوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨

(٢) إخواننا بالكسر ثم السكون والثون مقصور وبعض الناس يقول إخوانو ووجدته في غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم واحفيت في السؤال عنه بمصر فلم أجده من يعرفه إلا بالخاء وقال القضاى وهو يمدد كور الحوف الغربي وكورتا إخوان ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الاسكندرية وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ١٦٦) .

(٣) في المخطوط المقرئى ج ١ ص ٧٧ « فتصير لها »

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤

ومخطوط المقرئى ج ١ ص ٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٣

المهادين ما سعى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر في أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم .

وكانت الجزية في مصر تدفع نقدا بالدنانير وكسور الدنانير ، وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ما ورد في قطع « الاوستراكا » وفي أوراق البردي المكتوبة باليونانية باسم دُمُزْيَا δημοσια أما في أوراق البردي العربية فتعرف باسم الجزية^(١) .

وكما كانت الجزية تجبي من أهل النعمة كان يجبي من المسلمين الزكاة أو الصدقة ، ويقول المقرئ^(٢) أن أول من جبي الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولكن أوراق البردي أثبتت غير ذلك ، إذ تبين منها أن الولاة في مصر كانوا يقومون بحماية فريضة الزكاة ويتسلم الأهالي إيصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الإسلامية . ولدينا إيصال يرجع إلى القرن الثاني الهجري (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص^(٣)

المسكنة العقارية في مصر وضريبة الأرض أو الخراج

قبل أن نتعرض للشكلام على ضريبة الأرض أو الخراج يجدر بنا أن نعرف موقف الفاتحين أزاء أراضي المصريين . وهنا يعترض الباحث سؤال

(١) Crum Coptic Ostraca, p. 3, 37, van Berchem : Une page Nouvelle de l'hist. d'Egypte p. 161., Becker: Neue Arabische Papyri pp. 253-254, Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. pp. 16-17

(٢) المخطوط ج ١ ص ١٠٨

Grohmann : Arabic Papyri vol. III. p. 177

(٣)

طلالما واجه المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، وهو « هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ؟ وذلك لأن الأراضى التى تفتح صلحا تكون فيثا للمسلمين ^(١) فإذا كانت مصر فتحت صلحا ، بدون قتال وبمقتضى عهد ، يتفق المصريون مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج التى تدفع لهم دون أن يمس الفاتحون أراضى المصريين أو يأخذوها منهم عنوة وقهرا .

أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شئء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير ^(٢) » فالخمس الذى لله عز وجل مزدود من الله تعالى على الدين سعى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، وذلك إلى الأمام يضمه فيمن حضره منهم بعد أن يجتهد رأيه ويتحرى العدل ، وما بقى بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية ^(٣) .

وأما إذا كانت مصر فتحت عنوة فإنها تصبح غنيمة للفاتحين كما بينا سابقا وتخرج أراضى المصريين من أيديهم ولا يكون لهم أى حق فيها . ولذا وجب أن نعرف هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ، لئلا نرى أى الأحكام طبقت عليها فيما يختص بالأراضى . وقد اختلف الأمر على المؤرخين

(١) التى . هو ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج (ابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٣)

(٢) سورة الأنفال آية ٤١

(٣) ابن آدم القرشى : ص ٣ - ٤

في ذلك مثل ابن عبد الحكم^(١) ثم القرظي^(٢) وأبو المحاسن^(٣) والسيوطي^(٤) فترى المؤرخ الواحد منهم يكتب أن بعض الرواة ذكر أن مصر فتحت عنوة ، والبعض ذكر أنها فتحت صلحا ، وفريق ثالث قال إنها كلها فتحت صلحا إلا الأسكندرية أو الأسكندرية وبعض قرى الوجه البحرى فإنها فتحت عنوة .

فالرواة الذين أخذ عنهم هؤلاء المؤرخون والذين قالوا أن مصر فتحت صلحا إلا الأسكندرية يبررون نظريتهم بأن حصن بابليون — الذى حدد فتحه مصير مصر السياسى — فتح صلحا لا عنوة عمقتى المفاوضات التى جرت بين المقوقس وعمرو بن العاص ويثبتون نظريتهم بأنه كان للمصريين عهد بينهم وبين العرب . وأن الأسكندرية فتحت صلحا فى الفتح الأول ولكن لما انتقض الروم سنة ٦٢٥ هـ ، فتحها العرب عنوة وقهراً ، والفريق الذى يقول إن مصر فتحت عنوة يثبت نظريته بأنه لم يكن للمصريين عهد ولا عقد . وهنالك فريق وسط يقول إن مصر فتح بعضها صلحا والبعض الآخر عنوة كالأسكندرية وبعض القرى التى ظاهرت الروم على العرب .

على أنه مهما اختلفت آراء هؤلاء المؤرخين فإنهم لم يختلفوا فى أن مصر أجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا . وقد ذكرت آنفاً أن صلح بابليون

(١) فتوح مصر وأخبارها . طبعة المعهد ص ٧٤ — ٨٢

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩ — ٢٠

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

عقد بعد فتح المسلمين للحمص عنوة وذكرت أن فتح الحصن هو الذى حدد مصير مصر السياسى . أى أن مصر فتحت عنوة ، وفى الوقت نفسه قبل العرب أن يمنحوا المصريين عهداً ، فالعرب فى الواقع كانوا يعتبرون أنفسهم محازين للروم لا المصريين . كما أنه عند ما فتح العرب الإسكندرية سنة ٦٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصاراً على الروم وعلى قائد الأمبراطور قنسطن الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . ويؤيد ذلك الرأى ما ذكره البلاذرى^(١) فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص . إذ قال « اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً والتج^(٢) » فى أمرها أن أبى (يعنى عمرو بن العاص) قدمها فقاتله أهل اليون^(٣) ففتحها قهراً وأدخلها المسلمين ، وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبى إنه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود وإقراركم الأرض فى أيدي أهلها بممرونها ويؤدون حراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلاننا قال . فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفرأ منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرباب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل ، رزقاً للمسلمين مجتمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمون

(١) فتوح البلدان ص ٣١٤ — ٣١٥

(٢) التج ما تخلص إليه النفس وترتاح له وتسر به

(٣) اليون — يعنى بها بابليون

فأكرم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف ورنسا^(١) أو عمامة وسراويل^(٢) وخفين في كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً^(٣) . وكتب عليهم بذلك كتاباً وشرط لهم إذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم وأبنائهم ، ولا يسبوا ، وأن تقرأ مواهمهم وكنوزهم في أيديهم ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحاً . ولما فرغ ملك اليوننة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع

مثل صلح اليوننة فرضوا به وقالوا : هؤلاء الممتنعون^(٤) قد رضوا وفتحوا . فنحن به أقنع لأننا فرش^(٥) لا منعة لنا . ووضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب^(٦) ديناراً وثلاثة أرباب طعاماً وعلى رأس كل حالم

(١) البرنس : قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام . كل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به
(٢) السروال لباس يستر النصف الأسفل من الجسم . والكلمة فارسية وهي مؤنثة وقد تذكر

(٣) كانت الأتواب القبطية مشهورة بدقة صنعها وغلاء ثمنها .
(٤) الممتنعون : الأقوياء المتحصنون الذين لا يقدر عليهم
(٥) فرش : المراد بها أهل فرش والفرش هو القضاء الولسع من الأرض
(٦) الجريب وحدة تقاس بها الأرض . قال الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١٤٦
فأما الجريب فهو عبارة عن عشر قصبات في عشر قصبات والفدان الحالى كما تعلم يساوى ٣٣٣ قصبة مربعة .

ويقول الأب أنستاس السكرملى في كتابه النقود العربية وعلم النبات ص ٣١ .
أن أهل البصرة يعرفون الجريب إلى عهدنا هذا وهو عندهم نحو من مائة نخلة . ومن غير النخيل أرض سعتها هكتار . (الهكتار ١٠٠٠٠ متر مربع)

دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن ذلك رى أن الأراضى ركت لأهل البلاد ولم تقسم بين الفاتحين .
وكذلك جاء فى نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر :
« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم
ومالهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم ويرم ويحرم لا يدخل عليهم شيء
من ذلك ولا ينتقص » (١) .

وورد أيضاً نص آخر أنه من الشروط التى اصطلح عليها أهل مصر
مع الفاتحين أن تكون « لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء
منها » (٢) .

وهكذا نرى أن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ،
بالرغم من فتحهم لمصر عنوة ، وذلك بناء على العهد بينهم وبين المصريين
وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين ويفسرون ذلك بأن « الغنيمة جميع ما أصابوا
من شيء قل أو كثر حتى الأبرة إلا الأرضين فإن الأرضين إلى الإمام إن رأى
أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك ، وإن رأى أن
يدعها فيثا للمسلمين على حالها أبداً فعل بعد أن يشاور فى ذلك ويجهد رأيه
لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ وابن خلدون : كتاب
التاريخ ج ٢ ص ١١٥ والقفشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤ وأبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة المهد — ص ٦٤ وخط المقرئ
ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه ^(١) »

ولاريب في أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهي عدم تقسيم الأراضي بين الفاتحين ولا سيما أنه لم يفعل ذلك في مصر وحدها بل في العراق والشام . فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضي بينما الجهاد يناديهم في كل مكان ، كما أن العرب في جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالي البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم ولا بد أن عمرا كان يسترضي جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والفتنائم الأخرى غير الأرض . ولعل أبلغ مثل يربنا سياسة عمر لإزاء الأراضي المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذي بعث به إلى سعد بن أبي وقاص حين فتح العراق يقول فيه « أما بعد فقد بلغتني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى المسكر من كراع ^(٢) ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين وأترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ^(٣) » .

الآن وقد عرفنا أن العرب أبقوا أراضي المصريين على حالها يجدر بنا أن نرى ما كانت عليه الملكية العقارية في مصر زمن الفتح وكيف أن الغزوات

(١) ابن آدم القرشي : كتاب الخراج ص ٤ — ٥

(٢) السكران : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٣ — ١٤ وابن آدم القرشي : كتاب

الخراج ص ١٣ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٥ — ٢٦٦

الأجنبية التي توالى على مصر كانت سبباً في إضمار الملكية فيها ، إذ كان الغزاة ينتزعون الأراضي من الأهالي أو يمنحونهاهم حق الانتفاع فقط .

وفي عهد الرومان وخاصة منذ القرن الثاني للميلاد ترى زيادة ملحوظة في الأراضي التي يمتلكها المصريون وكان أصحاب هذه الأراضي يؤدون ضريبة عقارية للدولة^(١) . ويقول Van Berchem^(٢) أن عمر بن الخطاب حول الأراضي التي فتحت خارج جزيرة العرب إلى أراضى وقف متبعا في ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى جزيرة العرب . وكأن عمر أراد بتحويله الأراضي المفتوحة إلى أراض موقوفة أن يضمن للجماعة الإسلامية في عهده وفي المستقبل أملاكاً عامة ، لا يتصرف فيها . وإنما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الإسلامية .

على أنه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر . فإذا كانت الأراضي قد سارت وفقاً في هذه البلاد كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فقط . ولكن صلح بابليون قد أقر أراضي المصريين على حالها وأمنهم عليها ، ونحن لانستطيع الجزم بأن المصريين كانوا يملكون حق الانتفاع فقط قبل الفتح ، خصوصاً وأنه وجدت ملكيات قامة زمن البطالسة وزادت تلك الملكيات في عهد الرومان . كذلك تدل الأوراق البردية التي ترجع إلى عهد الولاة على أنه كان يحق لأهالي مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة^(٣) ، وهذا طبعاً مما ينقض نظرية الوقف .

Jouguet: l'Egypte Gréco-Romaine p. 348

(١)

La Propriété territoriale. p. 23

(٢)

(٣) انظر جرومان : الأوراق البردية العربية . الجزء الأول ص ١٢٩ — ١٣٠

و ١٣٢ — ١٣٣ و ١٤٠ و ١٤٦ — ١٤٨

فرض الرب على أراضي المصريين ضريبة عقارية تعرف بالخراج ، ونعرف مما ورد في أوراق البردى وما ذكره المؤرخون أن الخراج في مصر كان يجبي عينا وتقداً ، ففي كتاب من قرة بن شريك سنة ٩١ هـ إلى أهل شبرا بسبرو من كورة أشقوه نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قسماً^(١) ، وضريبة الطعام هنا تعني الخراج أو جزءاً منه . كذلك حفظ لنا ورق البردى إيصالاً عن خراج سنة ٢٣٣ هـ دفعه بعض الأشخاص ويشين منه أن الخراج دفع تقداً^(٢) . وفي كتاب آخر من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل إليه القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه إذا وجد الأهالي صعوبة في دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها تقداً ويحدد له ما يعادل عدداً معيناً من الأرداب تقداً ، ولكنه يطلب منه أن يعمل على إرسال القمح لا النقود^(٣) ويذكر البلاذري^(٤) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه جمل على كل جريب ديناراً وثلاثة أرداب طعاماً . وفي رواية أخرى للبلاذري^(٥) عن يزيد بن أبي حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والمسل والنحل على دينارين دينارين ، فالزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه . ويذكر اليعقوبي^(٦)

Becker: Neue Arabische Papyri. p. 267, Grohmann : Arabie (١)
Papyri. vol. III. p. 48

Grohmann : ap. cit. vol. III, pp. 141-142 (٢)

Beil : Translations... (Der Islam, Band III) p, 271 (٣)

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٥

(٥) المصدر السابق ص ٢١٦

(٦) تاريخ ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧

أن عمرو بن العاص جبي من مصر أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم^(١) لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة أردب أردبين . يتبين مما سبق أن الجزية كانت تدفع نقداً بينما كان الخراج يدفع عيناً وتقداً . وكان يطلق على الضريبة التي تدفع عيناً في أوراق البردى المصرية اسم « ضريبة الطعام » أما في أوراق البردى اليونانية فكانت تعرف باسم امبوليه εμπολη^(٢) . ويجدر أن نشير هنا إلى أن القمح كان أهم ما يجبي من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحياناً غير الفلال ، الزيت والمسل وأنواع الطعام الأخرى^(٣) . وكان يصرف من المال الذي يجبي عطاء الجند الرابط في مصر^(٤) ، كما أن أرزاق الجند في مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام^(٥) .

وكان الخراج في مصر يجبي على أساس مساحة الأراضي التي يمتلكها الشخص كما كان الحال في عهد الرومان والبيزنطيين . على أنه كان يراعى في ذلك حالة فيضان النيل في كل عام ، لارتباطه بالزراعة ، وقد وضع ذلك تماماً من نص الصلح الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كما ذكرنا سابقاً . وكذلك كان يراعى في تقدير الخراج كمية المحصول التي تنتجها

(١) يعنى بخراج الرؤوس هنا الجزية

(٢) Bell : op. cit. p. 271, van Berchem : Une page Nouvelle de l'histoire d'Egypte p. 161, Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV, p. 169

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٥ و Art. Kibt, Encyclopaedia of Islam vol. II p. 998, Bell (der Islam. Band XVII p. 8)

(٤) Becker, Neue Arabische. pp; 251-252, Grohmann: Arabic Papyri vol III pp; 12-18, van Berchem : Une page Nouvelle; p; 161

(٥) Bell : op. cit. p. 271, pp. 383-384, van Berchem op. cit p. 161

الأرض وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو غامرة . وقد كتب الماوردي^(١) في هذا المعنى فقال إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج ونقصانه « أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزرع بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها ، والثاني ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار؛ فبها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث ما يختص بالسقي والشرب لأن ما التزم المؤنة في سقيه بالنواضح^(٢) والدوالي^(٣) لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السيج^(٤) والأمطار . ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدان والأسواق وبمدها لزيادة أثمانها ونقصانها ، وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجه ورقة^(٥) ولا يعتبر فيما يكون خراجه حبة^(٦) ، وتلك الشروط تعتبر في الحب والورق .

لاشك إذن في أن الضرائب التي كانت ترسل إلى الخلافة كانت عينا ونقداً وأنه عقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح إلى المدينة كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة . وهذا مما حدا بالأب لامانس^(٧) Lammens على القول بأنه لم تكن لمصر سوى أهمية اقتصادية إذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب .

والمعروف أن عمر بن الخطاب كتب في سنة ٢١ إلى عمرو بن العاص

(١) الأحكام السلطانية من ١٤٢ — ١٤٣

(٢) نضح البعير الماء : حمله من بئر أو نهر لسقي الدرع

(٣) الدالية : الناعورة يغيرها الماء والأرض تسقى بدلو أو بناعورة ، والجمع دوال

(٤) السيج : الماء الجاري الظاهر

(٥) الورق هنا بمعنى النقود

(٦) الحب بمعنى الفلال

Un Gouverneur Omayyade d'Egypte. p. 102

(٧)

يعلمه ما فيه أهل المدينة من الشدة ، ويأمره أن يبعث إليها ما يجمع من الطعام في الخراج ، فكان ذلك يحمل إليها ومعه الزيت . وانقطع في فتنة عثمان ثم حمل في أيام معاوية ويزيد ، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم لم يزل يحمل إلى زمن المنصور^(١) . ومن ذلك نرى أن مصر بدأت تميز الحجاز عقب الفتح مباشرة وكان ينقطع ذلك المورد أيام الفتن والثورات . وقد ذكر البلاذري أن الطعام ظل يرسل إلى خلافة أبي جعفر والقصود هنا أنه ظل يرسل إلى زمن أبي جعفر عن طريق البحر ، وذلك لأن أبا جعفر أمر بطم خليج أمير المؤمنين الذي كان الوسطة بين مصر وبلاد العرب بحرا ، وقد كانت الغلال ترسل أولا إلى المدينة بوصفها مقر الخلافة ، ولكن الواقع أن إرسالها لم يبطل إلى يومنا هذا — إذا استثنينا فترات معينة — بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة وبالرغم من التنثيرات السياسية التي حدثت في مصر وفي الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التي تشير إلى مقدار ما كان يرسل نقداً إلى بيت المال في مقر الخلافة . فيقال إنه في زمن معاوية أرسل واليه على مصر مسلمة ابن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار^(٢) . إلى بيت المال ، بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما تحتاجه وبعد إرسال القمح إلى الحجاز ، ويذكر ساويرس^(٣) أن ما كان يحمل إلى بيت المال مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما تحتاج إليه البلاد .

ونلاحظ أنه وجدت في مصر منذ الفتح العربي أراض امتلكتها

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢

(٣) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient. T.V.) ص ١٨٩

حكومة العرب ، إذ كان هنالك قبل الفتح أراضى يمتلكها الأباطرة امتلاكاً خاصاً غير تلك الأراضى التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أ كانوا من الروم أم من المصريين . فهذه الأراضى التى كانت ملكاً خاصاً للأباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح ، لا بد أنها آلت إلى الخليفة ، وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضيايع التى استولت عليها طريقة الإقطاع . وقد زادت هذه الضيايع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة agri deserti أثناء الحكم العربى نفسه .

وتذكر النصوص أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر أحد الصحابة منية الأصبع^(١) بمصر فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له إلى أن مات . واشتراها بعده ذلك الأصبع بن عبد العزيز بن مروان من ورثته . وكانت أقدم وأفضل قطعة بمصر^(٢) .

ونلاحظ هنا أن نظام الإقطاع بدأ فى عصر الولاة ولكن بدئه وتطوره يختلفان عن نظام الإقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الإقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن هو من الأمراء والأشراف . بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الإقطاع الإسلامى فى مصر إلا فى نهاية المصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل

(١) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدرداش

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٣٧ — ١٣٨ والمريزى :

المخطط ج ١ ص ٩٦ والبيوطى : حسن المخاضرة ج ١ ص ٦٦

الإقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضي للإقامة فيها وزراعتها . كما لم يوجد في الإقطاع بمصر حق الوراثة الذي كان يتمتع به أصحاب الإقطاع في أوروبا .

ونعرف أن الأراضي التي امتلكها المملعون كان يدفع عنها العشر زكاة لما كما يزكي المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ويذكر الفقهاء أن الأرض الموات أرض عشر أيضاً أي أن من يحبسها يدفع العشر ولا يؤدي عنها خراجاً^(١) . ومن الوجهة النظرية كان القبطي الذي يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ، ولا شك في أن ذلك حدث طويلاً ، ثم رأت الحكومة أن في هذا جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلاً بالأرض نفسها وأصبح القبطي إذا اعتنق الإسلام لا تدفع أرضه من الخراج . والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة ومالياتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامي وما إلى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره في مالياتها . بل إن هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج جزية ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصبح هذه الأرض عشرية^(٢)

ونلاحظ أن الخراج الذي يفرض على الأرض التي صولح أهلها على أن تكون لهم يسمى خراج جزية ، أما الخراج الذي يفرض على الأرض التي صولح أهلها عليها على أن تصير وقفاً يسمى خراج أجرة . ولا يسقط عنها بإسلامهم

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٧٠

Becker : Islamstudien t. II. p. 281

(٢)

أو بانتقالها إلى غيرهم من المسلمين بمكس خراج الجزية^(١) ولا نعرف أن مصر فرض عليها خراج أجرة لأن أرضها لم تكن وفقاً كما بينا ، وإنما كان خراجها خراج جزية . والواقع أن نظام الأرض في فجر الإسلام وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظاماً مطاطاً مرناً ولم يستقر إلا بعد ذلك بقرون طويلة . والمعروف أن الأرض في مصر في عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكها أو كانت ملكاً لأحد المسلمين . ونعرف أن القبط والمسلمين على السواء ثاروا في العهد العباسي من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم .

ضرائب الصنائع والتجارة

كانت حكومة العرب منذ الفتح تفرض ضرائب على الصنائع والأجراء . وتقدر هذه الضرائب بقدر احتياهم^(٢) . وكان العرب في مصر — كالبيزنطيين — يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس^(٣) .

ويقال إن ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان والياً لمصر بن

(١) الأحكام السلطانية من ١٣١—١٣٢ و ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ١ من ١٥٢—١٥٣

(٣) يذكر جرومان : Arabic Papyri. vol. III. p. 9 أن كلمة مكس مشتقة من اللفظ السرياني ماكسو makeo ، ويذكر القرطبي أن أصل المكس في اللغة الجبائية يقال مكسه يملكه مكسا ، والمكس دزائم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، والمكس هو المثار ويقال للماثر صاحب مكس . والمكس أيضا انقاص الثمن في البيعة ومكس درهم معناه نقص درهم في بيع ونموه . وعصر القوم معناه أخذ عصر أموالهم ، والمثار هو قابض المعسر (الخطوط ج ٢ من ١٢١)

الماص على المكس في مصر^(١). وأثر عن ذريق بن حيان الذي كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه قال « إن الخليفة كتب إليه أن يراقب من سر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً ، فإن نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئاً ، وإذا سر عليه أهل الزمة أخذ منهم من كل عشرين ديناراً ديناراً وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجارتهم عشرة دنانير ، فإن نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئاً . وألا يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء العام وأن يكتب لهم كتاباً بما أخذ منهم^(٢) .

ويظهر أن هذه الضرائب التي يحددنا عنها المؤرخون كانت تؤخذ من التجار الذين يتاجرون في مصر نفسها أعني أنها كانت تؤخذ على التجارة الداخلية . وكان مقر إدارة هذه الضرائب في الجهة التي عرفت باسم المقس وهي قرية أم دنين التي كانت تقع شمال القسطنطينية ، وإنما سميت المقس لأن العاشر أو صاحب المكس كان مقره هناك فقبل المكس وقلب فقبل المقس^(٣) .

وثبتت أوراق البردى وجود هذه الضرائب التي تفرض على التجارة الداخلية^(٤) .

وكما اهتمت حكومة العرب في مصر بفرض ضرائب على التجارة

(١) خطط القرطبي ج ٢ ص ١٢٣

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ١٢٢

(٣) المصدر نفسه ص ١٢١

(٤) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 256 Grohmann: Arabie

Papyri. vol. III. p. 8, van Berchem: Une Page Nouvelle p. 164.

الداخلية في البلاد فإنها لم تنس أيضاً أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بثغورها أو التي ترد إليها أو تصدر منها . فيذكر المقرئ (١) أنه كان يجبي من التجار في الثغور المصرية ، وهي دمياط وتينيس ورشيد وعيذاب وأسوان والأسكندرية ، ضرائب مقررة . فالكس قبل الإسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق ، أو حق فرض الضرائب التي تجبي في الموانئ والبلاد التي على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو المشور (٢).

الضرائب الأخرى

كانت حكومة العرب في مصر تفرض على المصريين ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذين يعمرون في البلاد من هذه الضرائب ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من زل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام (٣) . ولعل السبب الذي حدا بالعرب إلى ذلك هو أنهم في أول عهدهم بمصر كانوا جنوداً وكانت إقامتهم قاصرة على الماصمة التي بنوها لأنفسهم أو في الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وواجب الضيافة هذا أخذه العرب من الرومان والبيزنطيين في مصر .

وقد ورد في نصوص أوراق البردي ذكر لضرائب غير عادية . فنرى قرة بن شريك يطالب في رسائله إلى صاحب أشقوه بجمع تلك الضرائب

(١) المخطوط ج ١ ص ١٠٩

(٢) Van Berchem op. cit. pp. 164-165

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة المهد ص ٦٤ ومخطوط المقرئ : ج ١ ص ٢٩٢

والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

العادية أو بجبايتها من الناس بالعدل^(١) وربما كانت حكومة العرب تفرض هذه الضرائب تبعاً لازدياد مصروفات الدولة عن إيراداتها . ونعرف أنه في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر (١٦٧ - ١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب^(٢)

لأولى ابن طولون تضر ألتي ضرائب كان قد ابتدعها ابن المدر^(٣) ومحدثنا المقرئ^(٤) عن هذه الضرائب فيقول : إن أحمد بن محمد بن مدين لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي تراءه البهائم مالا سماء الراعي ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماء المصيد إلى غير ذلك ، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلال . والخراجي ما يبيع مساهة ، أما الهلال فهو ما يبيع مشاهرة . وكان الهلال يعرف في زمن ابن المدر وما بعده بالرافق والمعاون وهي ألهاها ابن طولون . ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد في أوراق البردي أن ابن المدر ولي خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقرئ بعد سنة ٢٩٠ هـ^(٥) وتبين من أوراق البردي أنه فرضت ضريبة صراحي المواشي وضريبة الصيد بين سنتي ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ^(٦)

(١) Bell: op. cit. pp. 272, 281-282

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٢٥

(٣) الكندي : ص ٢٠٥ - ٢١١ والمقرئ : ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣

Zaky M. Hassan : les Tulunides, p. 38 و

(٤) خطط ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٧ - ١٠٩ و ج ٢ ص ٢٦٧

Zaky Hassan : op. cit. pp. 244-246 و

Zaky Hassan. op. cit. p. 87 (٥)

(٦) جروغان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البريدية العربية ص ٧

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذاً إلى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة إلا أنه كان يمتاز بتبسيطه بمض الشئ ، فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب التافهة التى استحدثها البيزنطيون ، إلا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى . وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب إقطاع مصر من الترك كما يتبين من أوراق البردى^(١)

نظام جباية الضرائب

اتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها .

فى كتاب من قرعة بن شريك فى سنة ٩١ هـ إلى صاحب شبرا بسير ومن كورة أشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ ١٠٤ دينار ومن ضريبة الطعام ١١ أردبا من القمح^(٢) ، وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ إلى أهل شبرا أجيح بنوتيه من كورة أشقوه يذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٣٧ ديناراً^(٣) ، وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ايرميوطس من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٢٨١ ديناراً^(٤) . وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها إليه

Zaky Hassan: op. cit. p. 244

(١)

Becker: Neue Arabische Papyri p. 267, Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 48

(٢)

Becker: op. cit. p. 267, Grohmann: op. cit. p. 51

(٣)

Becker: op. cit. p. 268, Grohmann op. cit. p. 54

(٤)

الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاماً يشبه النظام السالف .
فقرى قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية
الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كي يختاروا
رجالا أمناء أذكيا ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر
استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة ،
يطلب منه أن يرسل إليه نتيجة عملهم بمد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب
منه أيضاً أن يكتب أسماء وألقاب وعمل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير
الضرائب ، ويندره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من
الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب
الكورة أيضاً أشد عقاب^(١) .

وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم^(٢) والمقرئى^(٣) والسيوطى^(٤)
من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « أقر قبيلها على جباية الروم ،
وكانت جبايتهم بالتعديل ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل
أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها
فيقنظرون في البهارة والخراب حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا
بتلك القسمة إلى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على
احتمال القرى وسعة المزارع »

من هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل

Bell : op.cit p. 282

(١)

(٢) فتح مصر ، طبعة تورى ، ص ١٥٢ - ١٥٣

(٣) المخطوط ج ١ ص ٧٧

(٤) حنن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، ويشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة .

وقد قام فى مصر فى العصر المملى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات^(١) الأراضى ، ويشبه نظام الالتزام ، الذى وجد فى العهد الرومانى ، فيقول المقرئ^(٢) : « وكان من خبر أراضى مصر ، بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لشكاحهم المسلمين ، أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من القسطنطينية فى الوقت الذى تنهى فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظلم والاستجارة وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانة على أقساط وبحسب له من مبلغ قبالاته وضمائنه لتلك الأراضى ما يتفق على عمارة جسورها وسعة ترعها وحفر خلجها بضراية مقدرة فى ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والتقبلين ، يقال لما

(١) يذكر دى ساسى أن كلمة قبالة معناها أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة أو يلتزم بتنفيذ عهد أو ارتباط
Sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale p. 200

(٢) الخطوط ج ١ ص ٨٢

تأخر من مال الخراج البواقي . وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة^(١) ودارا كوا البلاد^(٢) كلها وعدلوها تعديلا جديداً فزيد فيها يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيها يحتاج إلى التقيص فيها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار السكك^(٣) منزلا لأمراء مصر فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون »

من الوصف السابق نعرف أنه كان يقوم في جامع عمرو ثم في جامع ابن طولون مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسني المحصول الطيب) وكان التقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما يتفق في كرى الترع وما إلى ذلك . ولسنا نعرف تماماً تفصيل علاقة التقبل مع رجال الإدارة

وقد ظهرت في العصر العباسي مسألة ضمان الوالي لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها في مصر^(٤) وتبين هذا مما ذكره الكندي^(٥) والمقريزي^(٦) عن محمد بن الأشعث والي مصر (١٤١) —

(١) تحويل السنة مئة تحويل السنين القمرية إلى شمسية فإذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجمع الخراج في مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة وهذا ضد طبيعة الأشياء . وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قرية أى يحذف كل ٣٣ سنة قرية خراج سنة . وهذا ما يسمى لتحويل (خطط المقريزي ج ٦ ص ٧٣ De Sacy: Sur la Nature et les Revolutions p. 200

(٢) الفعل راءك والاسم دوك . معناها هجر الأراضى ومسحها . De Sacy: op. cit. p. 200

(٣) في الواقع كانت القطائع هي مقر أمراء الدولة الطولونية منذ أن بنى أحمد ابن طولون لا السكك

Zaky M. Hassan: Les Tulunides pp. 243-244 (٤)

(٥) الولاة والقضاة ص ١٠٩

(٦) الخطط ج ١ ص ٣٠٦

١٤٣ هـ) إذ قال: « فلما استقر محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد
الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد
عليه وأشخص إلى وإن أبي فأعمل على الخراج ، فعرض عليه ذلك فأبى »
أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله .
ويبعد أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر ، ولكن من العقول أن
يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث ، وذلك خشية المجز عن
القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان ، أو
لأحتياجه إلى المال للتنفقه على الإدارة وعلى الجند .

وكانت الضرائب بعد الفتح — إذا استثنينا الضرائب غير المادية —
تجبي كل سنة قرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد
وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية . وقد اضطرب العرب
إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية ، فكانوا يسقطون
سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قرية ، وسماوا ذلك الازدلاق لأن
لكل ثلاث وثلاثين سنة قرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب ^(١) .

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون
إيصالات عرفت فى أوراق البردى العربية باسم براءة ^(٢) وكان جابى الضريبة
المينية ينتخبه السكان ويسمى القبال ^(٣) ونسمع عن قبال قرية فى ورقة
ردية كتبت سنة ١٣٤ هـ ^(٤)

(١) انظر الحريزى — خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣

Grum : Coptic Ostraca. pp: 36-87, Grohmann: Arabic Papyri (٢)
vol. III. p. 141-142

Papyri Schott-Reinhardt I. 45 (٣)

Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102 (٤)

وكانت الضرائب المينية المكونة من الجيوب ترسل إلى أمراء الماشع
أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال^(١)
طريق فروعه في الأقاليم ، وكان يشرف على كل فرع من فروع المال
الأقاليم موظف يسمى الجسطل^(٢)

ويظهر أنه كانت تتبع في مصر في ذلك العصر وسائل الشدة في
الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل وإلى مصر خرج إلى الخليفة الرشيد
سنة ١٨٧ هـ وسأله أن يبعث معه بالجيش لأنه لا يستطيع استخراج الخ
من أهل الحوف إلا بجيش . ولكن عفو بن سليمان ضمن للخليفة حيث
جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخليفة الخراج^(٣)

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجري مدى
التي كانت تتبع في جباية الأموال ، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما
من الأموال يضرب عشرة سياط ويفرم في سلب ماله ديناراً^(٤) .

(١) :Translations of Greek papyri (Der Islam II) p. 271. 381

(٢) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب في مصر
الديوان فأبجوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقبطية إلى أن أمر عبد
بن عبد الملك بحرب هذا الديوان سنة ٨٧ هـ

(٣) : Neuer Arabische Papyri. p. 353; Grohmann. op.
vol. III p. 17

(٤) الكنتى : ص ١٤٠ ومترجما ص ٢٢١ — ٢٢٢

Grohmann · Arabic Papyri vol. III. p. 104 (٥)

النقود الإسلامية في مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وبألاً يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكم الرومان من قبل (١)

وكان العرب في الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة ، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب . فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام أقرهم على ذلك ، وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق (٢) . وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان (٣) ، على أن القرظي (٤) يذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه في سنة ١٨ هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها « محمد رسول الله » وفي بعضها « لا إله إلا الله وحده » . ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » (٥) .

(١) آدم مئز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٦

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٥ - ٤٦٦ والقرظي : النقود الإسلامية

ص ٢ - ٤

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقفطندى : صبح الأعشى ج ١

ص ٤٢٤ وأبو الحسن : النجوم ج ١ ص ١٧٦

(٤) القرظي : النقود الإسلامية ص ٤ - والقرظي : إغاثة الأمة ص ٥١ - ٥٢

(٥) القرظي : النقود الإسلامية ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢

فجر الإسلام - (٥)

وقد سك معاوية في خلافته أيضاً دراهم ودنانير^(١). ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة ، ويقال إنه أول من ضرب الدراهم المستديرة كذلك ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، فلما قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال : « ما نبق من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً »^(٢)

غير أن هذه النقود التي سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمرؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان^(٣). كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية ، إلى أن ولي عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور في الدولة بمسد القضاء على منافسيه والخارجين عليه ، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها في جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية^(٤).

(١) القرظي : النقود ص ٥٠ وإغارة الأمة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) القرظي . النقود ص ٥ — ٦ وإغارة الأمة ص ٥٣

(٣) انظر القرظي : النقود ص ٤ — ٦ وإغارة الأمة ص ٥١ — ٥٣

19—17 De Sacy : Traité des monnaies Musulmanes pp. والأب الساس

الكرمل : النقود العربية وعلم النيات ص ٢٧ — ٣٣

(٤) روى المؤرخون أن السبب الذي حدا ببسب الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أناكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما نكرهونه . قال فكتب ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنّها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره في ذلك فلم يكن منه إلا أن قال . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولا تصف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير . فقال عند الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك ، وضرب الدنانير (البلاذري . فتوح البلدان ص ٢٤٠ والقرظي : النقود ص ٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧)

ولذا ترى عبد الملك يضرب الدينارين والدرام في سنة ٦٦ هـ بعد تعديل
في أوزانها مما يتفق والزيادة . وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها
لتضرب نقودها بمقتضى السكة التي ضربها عبد الملك^(١) . ورعا حمل المؤرخين
على القول بأن عبد الملك بن صروان أول من ضرب النقود في الإسلام كونه
نظم سك النقود وجعلها وزناً واحداً وجعلها تسرى في جميع أنحاء المملكة
الإسلامية ، لأننا رأينا أنه ضربت نقود فعلا قبل عبد الملك . والحق أن
لعبد الملك الفضل الأول في إصلاح السكة وتوحيدها في أنحاء الدولة الإسلامية
والاستغناء عن النقود الأجنبية . وهذا مما يسهل كثيراً في انتظام المعاملات ،
إذ أن كثرة ضرب العملة الموجودة في بلد ما تدعو إلى الاضطراب في
التعامل ، وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكتته وأحياناً
يفترون في أوزانها . ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ صار الخلفاء
العباسيون يضربون سكا أيضاً .

□ □ □

تدل قطع « الاستراكا »^(٢) على أن المعاملات بين الأهالي في مصر قبل
الفتح كان أسماها العملة الذهبية المعروفة بالدينار tremision, solidus
denarius^(٣) ، أى أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب^(٤) . ويذهب علماء
الاقتصاد السيامي إلى القول بأن نظام المعدن الفردى الذهبى لا يمنع استعمال

(١) انظر : القرزى : شذور النقود ص ٦ — ٨ والأب انتلس الكرمل :

النقود العربية ص ٣٤ — ٣٩

(٢) قطع من الفخار والأحجار ، كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ، ولا سيما
الافريق والفراتة والقطر ، واستندت منها علماء الآثار كثيراً من الحقائق التاريخية .

(٣) Crum : Coptie Ostraca. pp. 23. 46. 78. 79. 80

(٤) إذا كان أساس النظام النقدي في الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهب

gold standard (الدكتور عبد الحكيم الرفاعى . الاقتصاد السياسى ج ١ ص ٤٧٩)

نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية ، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التي لها قوة إبراء غير محدودة^(١) ، وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة^(٢) ، ولا نجد في الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية في مصر وتعرف بالهرايم^(٣) . ويظهر أن النقود الصغيرة التي كانت تستعمل في مصر إذ ذاك — كالكروش وكسورها اليوم — كانت العملة البرزنية^(٤) .

ويقول المقرزي^(٥) : « أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً في سائر دولها جاهلية وإسلاماً ، يشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب » .

وتؤيد أوراق البردى وقطع الاستراكا ما ذكره المقرزي ، إذ تشهد كلهما بأن الجزية والضرائب وإيجار لأراضي وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدينانير وأقسامها ، وتعرف الدينانير في أوراق البردى اليونانية باسم solidi^(٦) . ويظهر أن مصر بعد الفتح كان يتعامل فيها بالدينانير الذهبية التي كان يتعامل بها قبل ذلك ، ولا بد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها

(١) أي تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون — عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٤٨

(٢) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٨

(٣) Crum : op.cit. p. 23

(٤) Crum : op. cit. p. 28. 42. 45

(٥) النقود الإسلامية ص ١١ وإغاثة الأمة ص ٦٢

(٦) Crum: Coptic Ostraca. pp.36—37, Bell:(der Islam 11).pp.271.

. 274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri. pp. 254—267 etc.,Grohmann

Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, vol. 111. pp. 17, 31 48. 141

بمد الفتح . ويدكر Quatremère^(١) وSauvair^(٢) أن الكاتب القبطي
بشندي Picendi أسقف فقط الذي عاصر فتح العرب ، كتب كتابا إلى
أساقفة أمته (وهذا الكتاب محفوظ في مكتبة باريس) يقول فيه : « إن
العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة السيد
المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذي
يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الاسمين معا على النقود الذهبية » .
وربما ظلت النقود الأجنبية في مصر يتعامل بها جنبا إلى جنب مع
النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير
الأجنبية ، أى أن السكة في مصر خضعت للسكة الإسلامية ، وهذا مظهر
من مظاهر التبعية دون شك . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة
في الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث في عهد أحمد بن طولون^(٣) .
وفي ذلك يقول القرزى^(٤) : « ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة
وسكتها إنما هي سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد
ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية » .

Mémoires géographiques et Historiques sur l'Egypte t. 1, (١)
p 343.

Matériaux (Journal Asiatique. Septième Série T. XIV) pp. (٢)
456—457.

Stanley Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic (٣)
Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp 135-6

(٤) النقود الإسلامية ص ١٢

٣ — النظام الحربي

١ — الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقي بها جيش احتلال عربي ولم يشرك العرب المصريين في هذا الجيش ، ولم يرد في صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاستئغال بالجندية . وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفاً منهم من أن يحجي المصريون روح القومية المصرية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فأرأوا من الحكمة أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية . وربما كان العرب يشكون في كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعباً يتقد حساسة وشجاعة ، ولم يكونوا قد تنعموا بعد وغمرتهم تلك الروح التي تقصر الشعوب حين تعتاد الترف والرخاء .

ولا أدل على هذه الروح المنوية القوية وهذا الجهاد في سبيل الله من تلك الكلمات التي فاه بها عبادة بن الصامت رسول عمرو بن العاص أثناء المفاوضات التي جرت بين العرب والروم قبل فتح حصن بابليون ، إذ قال للمقوقس : « أنا قد وليت وأدبر شبابي وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنعما رغبتنا وهمتنا للجهاد في الله واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا من حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً . وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً لأن غاية أحدنا من الدنيا كلمة يا كاهنًا

يسد بها جوعه لليلة ونهاره وشعلة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاء وإن كان له قطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمكس جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه ^(١) .

وقد حرم الخليفة عمر بن الخطاب على الجند في مصر وفي سائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض ، لئلا يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال والنعيم . والحق أن العرب بهرتهم ثروة البلاد التي فتحوها ، بل إن رغبتهم في الاتقاع بخيراتهما العظيمة كانت من الأسباب التي شجعتهم على المضى في حروبهم وشجذت همهم للغزو والفتوحات ^(٢) .

(١) خطط القرينى ج ١ ص ٢٩١

(٢) ليس في هذا ما يشين الإسلام في شيء ولا سيما من قوم كالعرب لم تحمد الطبيعة على بلادهم بنى وخصب يجملان العيش فيها سهلا ميسورا . فانتظار الغنيمة كان من أسباب الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادى وظل من العوامل المعروفة في الحروب حتى العصر الحديث . وحسبنا أن نذكر قول بونابرت للجنود الذين ساروا على رأسهم لغزو إيطاليا سنة ١٧٩٦ : « أيها الجنود ! أنتم حرمة وليس لديكم الغذاء الطيب الكافى والحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولكنها لا تستطيع أن تعطىكم شيئا وسوف أقودكم الآن في أخصب سهول الدنيا وستصبح في يديكم مقاطعات غنية ومدن كبيرة ... »

ولا يغوتنا أن المؤرخين العرب أنفسهم قد فطنوا إلى هذا السبب الاقتصادى فكتب البلاذرى مثلا : « قالوا لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستقرم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محاسب وطامع وآتوا المدينة من كل أوب ... » (فتوح البلدان . ط القاهرة سنة ١٩٠١ ص ١١٤) راجع أيضا

وقد بدا خطر هذه الروح للخليفة عمر بن الخطاب فأراد كيح جاح الجند لأن واجب الجهاد كان يناديهم في كل مكان ، فلم يرض بتقسيم الأراضي بينهم كما رأينا ، بل حرم عليهم الاشتغال بالزراعة . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) في رواية له عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد بأن ينموا الجنود من الزرع والمزراعة^(٢) لأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل .

وكتب الماوردي^(٣) أن من واجبات أمير الجيش « أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابة العدو وصدق الجهاد » . ويرى Lane-Poole^(٤) أن من أسباب تلك السياسة أن الاستثمار الدائم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر بن الخطاب ، وأنه كان حريصاً على أن يظل الجند على أهبة الاستعداد للانتفاع بهم في أى مكان آخر عن امتلاك الأراضي والاستقرار ليكونوا مستعدين دائماً للجهاد والحرب .

ولكننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي فليس امتلاك الجند الأرض شرطاً للاستثمار المنظم . ولا يعقل أن جيوش المسلمين كانت حملات للنهب والسلب . بل الأرجح أن عدم امتلاك الأراضي كان سياسة موضوعة وأنه جزء من سياسة نشر الدين الإسلامى ونفوذ المسلمين ، تلك السياسة التى حرص العرب على اتباعها في البداية فخببتهم إلى الشعوب التى غلبوها على

(١) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢

(٢) إذا أجز المالك جزءاً من أرضه واتفق مع المستأجر على أن يؤدى الايجار من المحصول عرف ذلك باسم الزراعة . وفى القاموس زارع فلان أى عامله على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها

(٣) الأحكام السلطانية ص ٤٢

A History of Egypt in the Middle Ages p. 15

(٤)

أمرها ، وكان لهذه السياسة أكبر الأثر في تثبيت أقدامهم في البلاد التي حلوا بها . فالاحتلال العربي ذكرنا بالاحتلال الروماني قديماً والاحتلال الإنجليزي حديثاً ، فإننا لا نلصق تدخل كبيراً من جانب تلك الشعوب في نظم البلاد المفتوحة رغم أنهم يستغلونها استغلالاً منظماً وينتفعون بثرواتها أيما انتفاع ويحتفظون لأنفسهم بالحكم والسيادة والرياسة العليا لها . وطبيعي أن الكلام على « احتلال عربي » لا ينصرف إلا إلى الفترة السابقة لتعريب مصر واندماج المصريين والعرب لتأليف الأمة المصرية الحديثة .

ويعزو المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده ، فكان لابد من ضبط الأموال وتقرير المعطاء المفروض للأجناد وأسرانهم وما إلى ذلك مما تطلبه أمور الدولة بعد اتساعها ، وكان في مصر ديوان للجند تدون فيه أسماءهم وأسرانهم لتقرير المعطاء والأرزاق اللازمة لهم . وأول من دون ديواناً للجند في مصر هو عمرو بن العاص ، ثم ابن عبد العزيز بن مروان^(١) تدويناً ثانياً ، ودون قرة ابن شريك التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ - ١٠٢ هـ) التدوين الرابع^(٢) . وكان الجند يثبتون فيه على حسب قبائلهم التي ينتمون إليها ، ونلاحظ هذا في نظام الجيش الذي فتح مصر ، إذ كان مقسماً على حسب القبائل ، وفي مدينة القسطنطين أيضاً التي اختطها العرب اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى . وكان أهل الديوان في مصر

(١) في كتاب الولاية والقضاة يذكر الكندي أنه تدوين عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، ولكن القريري يذكر أنه تدوين عبد العزيز بن مروان ، وهو الصحيح

(٢) الكندي ص ٧١ وخطط القريري : ج ١ ص ٩٤

زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً^(١). ويذكر ابن عبد الحكم^(٢) والمقريزي^(٣) أن معاوية بن أبي سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أسماءهم وأسرانهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه. والذي حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان ما رآه من تفرق قبيلة قضاعة في القبائل الأخرى، فاستأذن الخليفة يزيد بن عبد الملك ليستخرجهم من كافة القبائل ويجعلهم في قبيلة على حدة فأذن له بذلك^(٤).

ونجد بعد هذا أن قبيلة قيس مثلاً تلتحق بالديوان زمن الخليفة هشام بن عبد الملك^(٥). ومن يقرأ أخبار الولاة يجد عادة أن كل وال جديد يصحب معه نفرًا من قبيلته وعشيرته، وكان هؤلاء الولاة عرباً حتى نهاية الدولة الأموية. أما في الدولة العباسية فقد جدت عناصر أخرى فارسية دونت في الديوان. ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربي والفارسي، وقوام هذا العنصر الجديد الجنود الأتراك الذين استكثر منهم المتصم وأثبتهم في الديوان. بل إن المتصم لم يقف عند هذا، فقد أمر واليه على مصر كيدير نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم في سنة ٢١٨ هـ ففعل ذلك كيدير^(٦)، وكان من أثر هذا أن انتشر العرب في أنحاء مصر يسمون

(١) مخطوط المقرئ ج ١ ص ٩٤

(٢) فتوح مصر — طبعة توري — ص ١٠٢

(٣) المخطوط ج ١ ص ٩٤

(٤) الكندي: الولاة والقضاة ص ٧٠ — ٧١

(٥) الكندي ص ٧١

(٦) الكندي: ص ١٩٣ ومخطوط المقرئ ج ١ ص ٩٤

وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التي كانت إلى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

ويستنبط من أوراق البردي أن الوالي كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراهم^(١) أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان^(٢) .

ولسنا نعرف تماما المبادئ التي كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند وهل كان ينظر إلى القبيلة وسابقتها في الإسلام وفضلها في الجهاد ، أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واسطناعاً لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الرجل ليستطيع أن يتفق منه على فرسه

ويذكر الماوردي أن تقدير المطاء كان بحيث يفنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن ، فقد كان من الواجب أن يراعى في تقدير المطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذراري والمهاليك ، والثاني عدد ما عنده من الخيل والظهر^(٣) . والثالث ظروف الموضع الذي يحل فيه من القلاء والرخص . وإذا مات أحدهم أو قتل أصبح عطاؤه إرثاً من بعده يأخذه ورثته . ويختلف الفقهاء في ذلك ، فبعضهم

Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 251—252, Grohmann: (١)

Arabic Papyri vol. 111. pp. 12—13

Bell : Translations of the Greek Papyri (Der Islam, Band (٢)

11.) p. 271

(٣) الظهر : الركاب التي تحمل الأثقال

يقول إن ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ،
والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطائه ، وهذا فيه تشجيع للجنود
على التجند .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة ،
فالخليفة عثمان بن عفان أول من زاد في عطاء الجند^(١) ، ولكن هذه الزيادة
لم تستمر بده ، فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منمها . فنجد مثلاً عمر بن
عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) يكتب بزيادة أعطيات الناس في ولاية أيوب
ابن شرحبيل (٩٩ - ١٠١ هـ)^(٢) وبأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمنمها
(١٠١ - ١٠٥ هـ)^(٣) . كذلك كانت الحال فيما يخص بالأرزاق ففي
رواية عن ابن لهيعة أن أرزاق المسلمين كانت اثني عشر أردباً في كل سنة
فنقص أردبين أردبين فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولي حفص بن الوليد
(في ولايته الثانية ١٢٤ - ١٢٧ هـ) صيرهم إلى اثني عشر اثني عشر^(٤) .
ويجدر ملاحظة كثرة هذه الكمية التي كانت تصرف للفرد الواحد ، ولكن
المفروض أن كل رجل يعول أسرة . على أن إنقاص العطاء والأرزاق كثيراً
ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين في مصر ،
خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وفي خلال الدولة العباسية عند ما أصبح
العرب يملكون أراضي زراعية ، إذ أصبحوا يؤدون خراجاً وفي الوقت نفسه
يأخذون عطاء ، وإنقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء
المالية على العرب ، وهذا كان سبباً في ثورتهم بمصر كما سنرى . ولا أدل على

(١) خطط المقيزي ج ١ ص ٩٢

(٢) الكندي : الولاة والفضاة ص ٦٨

(٣) الكندي ص ٧٠

(٤) الكندي ص ٨٢

كثرة الاضطرابات والمشاكل التي قامت بين العرب بسبب المطاء والأرزاق من أنه في عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ — ١٩٤ هـ) بمصر ثاروا عليه حيناً أعطاهم المطاء ثلثاً عيناً^(١) وثلثاً بزاً^(٢) وثلثاً قحاً ، ووقعت فتنة عظيمة قتل بسببها فريق من الجند ومن أهل مصر في المسجد الجامع وانقض أهل الرملة على بمض الأموال وهي في طريقها إلى دار الخلافة وأخذوا منها عطاهم كاملاً وقالوا . هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا^(٣)

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما إلى ذلك من الرتب التي لم تتيين تماماً الفرق بين كل منها في فجر الإسلام ، ومن المحتمل أن المرفأ كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاهم على رأس كل سنة . ويقال إن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قطع المطاء عن جند مصر سنة فكتب إليهم كتاباً يعتذر فيه في السنة التالية ، ويقول « إني إنما حبست عنكم المطاء في السنة الماضية لعدو حضري فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بمطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنئياً مريئاً وأعوذ بالله أن أكون أنا الذي يجرى الله قطع المطاء على يديه^(٤) »

ومن أقوال الفقهاء في هذا الصدد^(٥) : « ويكون وقت المطاء معلوماً

(١) العين : الذهب المضروب أو الدينار خلاف الفضة المضروبة

(٢) البز : الثياب من الكتان أو القطن . السلاح والجمع بزوز

(٣) الكندي : الولاية والقضاة ص ١٤٦

(٤) الكندي ص ١٩٤ وخطوط القرظي : ج ١ ص ٩٤

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦

يتوقمه الجيش عند الاستحقاق وهو معتبر بالوقت الذى يستوفى فيه حقوق بيت المال ، فإن كانت تستوفى في وقت واحد من السنة جمل العطاء في رأس كل سنة ، وإن كانت تستوفى في كل شهر جمل العطاء في رأس كل شهر ، ليكون المال مصروفا إليهم عند حصوله فلا يحبس عنهم إذا اجتمع ولا يطالبون إذا تأخر ، وإذا تأخر عنهم السطاء عند استحقاقه وكان حاصلا في بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة ، وإن أعوز بيت المال لمعارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أزراقهم ديناً على بيت المال وليس لهم مطالبة ولى الأمر به ، كما ليس لصاحب الدين مطالبة من أعسر بدينه » كذلك اشترط على المصريين ضيافة الأجناد ، فمن نزل عليه جندي أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام^(١) ، وهذا كان يوفر على الحند كثيراً من الساء عند انتقالهم من جهة إلى أخرى في أنحاء مصر .

ولا يسمح المقام هنا بأن نعرض للتجنيد في الإسلام عامة من حيث إنه كان تطوعاً في البداية ثم دخله نوع من الإلزام في عصر بني أمية ، فافئلاً نكاد نرى في المصادر العربية ما يساعد على أن نجلى غوامض هذه المسألة وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع وإلزام كان يتغير بين حين وآخر بتغير الأمراء واختلاف ظروف القتال وقوة الخلافة نفسها ونوع العناصر التى كانت تتمتع عليها في تكوين الجيوش الإسلامية .

وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا في جيش مصر أثناء الفتح العربى لها ، وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبدوا المصريين عن الاشتراك في الجيش

(١) ابن عبد الحكم — طبعة المعهد — ص ٦٤ والقرىزى — خطل ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

إذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا في صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكاً فعلياً فيه ، وينقلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية في خدمة الجيش وفي أوقات الضرورة القصوى كما كان عملهم مقصوراً على مصر وحدها ، ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا في الديوان ، إنما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندي^(٢) أن مواحيز^(٣) مصر كان يمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل^(٤) التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة فإذا جاء شهر أبيب فرق القاضي أموال السبيل التي جمعت من الأحباس على المطوعة ، ومن كان فقيراً من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ومراقبة^(٥) .

وبحسن هنا أن نشير إلى اهتمام الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لأهمية موقعها ، فمصر تقع في منطقة يسهل منها التوسع جنوباً وغرباً وشرقاً بل وشمالاً عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أي أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما إذا تطرق إليها انضعف فإن العدو يهددها من هذه الجهات . أي أن مركز مصر يتطلب السهر دائماً على شئونها والعناية

(٢) الولاة والقضاة من ٤١٨ — ٤١٩

(٣) الماحوز : المكان الذي يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام ، ويذكر Dozy أن الماحوز في سوريا معناه الحدود (Supplément aux dictionnaires Arabes)

(٤) أحباس السبيل : الأوقاف التي توقف في سبيل الله

(٥) مرهابة : اسم لحد مصر الغربي بينها وبين برقة . في خطط القرينى ج ١ ص ١٦ « قال القاضي : الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقبة وفي آخر أرض مرهابة تلي أرض انطابلس وهي برقة » وفي ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٧٠ لوبية ومراقبة كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل .

بالجيش الذى يحمىها . وليس غريباً أن ترى الرواة ينسبون إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبد الله بن لهيعة عن حديث لعمر بن العاص أنه قال « حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم بدمى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم في رباط إلى يوم القيامة ^(١) » وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال في خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لمسكت الأعداء حولكم ولاشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ^(٢) » ولا بد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة ، ونعلم أن حامية الاسكندرية أو رباطها كانت اثني عشر ألفاً (٤٣ - ٤٤ هـ) ، ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم ^(٣) . ونستطيع أن نلخص هذه الزيادة الكبيرة إذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاماً كان كله يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفاً من الجنود .

وقد ظلت مصر طوال هذا العهد قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوباً وغرباً ، إما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، وأما لمشاركة جيوش الخلافة في حملاتها للتوسع غرباً ، فمنذ ما ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر في خلافة

(١) خطاط القرىزى ج ١ ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦

(٣) السكتى ص ٣٦

عثمان بن عفان خرج منها لغزو أفريقية^(١).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان خرجت جيوش الخلافة من مصر لغزو أفريقية أيضا. ومن القواد الذين اشتهروا بغزوها في عهد معاوية عقبة ابن نافع الفهري^(٢) وغزيت أفريقية من مصر أيضا في خلافة عبد الملك بن مروان^(٣)، وفي أوراق البردي أن المصريين اشتركوا في الأسطول الذي ذهب لغزو أفريقية بحرا في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٤)، والواقع أن غزو أفريقية كان منذ البداية على يد الجند من الحامية العربية في مصر.

وكتب البلاذري « كان أهل برقة يمشون بخراجهم إلى والى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالغرب »^(٥) وكان إخضاع برقة وطرابلس على يد جنود عمرو بن العاص، ولكن فتح شمالي أفريقيا بدأ سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) بقيادة خلفه في ولاية مصر عبد الله ابن سعد ومعه جنود من حامية مصر وجنود آخرون أمده بهم الخليفة عثمان بن عفان. وقد نجح الجيش الاسلامي في الوصول إلى الموضع الذي تقوم فيه الآن مدينة القيروان، ثم انحدر إلى الجنوب الغربي وأوقع بجيش البيزنطيين هزيمة منكرة عند سببلة وأصاب غنائم كثيرة، ولكن البيزنطيين كانت لهم حاميات أخرى في قلاع حصينة ومدن منيعة، ولعل

(١) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ص ١٨٣ — ١٨٤ والبلاذري : فتوح

البلدان ص ٢٢٦ — ٢٢٧ والكندي : الولاة والقضاة ص ١٣

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٤ — ١٩٧ والبلاذري : فتوح البلدان ص

٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) ابن عبد الحكم . شرحه ص ٢٠٠ — ٢٠١ والبلاذري . شرحه .

ص ٢٢٩ .

Bell : op. cit (der Islam II) p. 279 (٤)

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٢

.. فجر الإسلام - (٦)

عبد الله بن سعد كان يخشى أن يعودوا إلى الهجوم فقبل ما عرض له عليه عظماء إفريقية حين تقدموا إليه بأن يترك البلاد على أن يأخذ منهم غرامة حرية كبيرة . فرجع الجيش إلى مصر مثقلا بالفنائم بعد حملة دامت نحو عام كامل أدرك فيها ضعف إفريقية وسهولة فتحها وبذر فيها الفوضى وشجع قبائل البربر على الخروج على طاعة البيزنطيين .

وكان منتظرا أن يعود العرب في مصر إلى غزو إفريقية ولكن أزمة الخلافة والنزاع بين علي ومعاوية والشأن الذي كان لمصر في الثورة على عثمان ثم النزاع على الخلافة من بعده كل ذلك ترك لأفريقية فترة هدوء وسلام وأبعد عنها الفاتحين المسلمين نحو سبعة عشر عاما .

ولا استقرار الأمر لبني أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وعاد الجند المسلمون في مصر إلى التطلع نحو الغرب ولكن عمرو بن العاص توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه ابنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج زعيم الحزب الأموي بمصر أثناء النزاع بين علي ومعاوية . وخرج معاوية بن حديج إلى أفريقية بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) . فهزم جيشا بيزنطيا كبيرا نزل من البحر عند Hadrūmetum (سوسة الحالية) واستولى على حصن جولاء ثم رجع إلى مصر محملا بالفنائم .

وأتى بعد ذلك دور احتلال إفريقية وفتحها فتحا منظما ، وكان ذلك على يد عقبة بن نافع الذي شيد مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ - (٦٧٠ م) وبالرغم من ذلك فإن إفريقية لم تصبح في عهده ولاية قائمة بذاتها تتبع الخلافة مباشرة ، بل ظلت ملحقة بولاية مصر ، بل إن عقبة بن نافع نحى عن حكمها حين عهد معاوية بن أبي سفيان بولاية مصر والمغرب لسلمة بن مخلد الأنصاري

فولى المغرب أبا المهاجر أحد مواليه . ولكن عند ما ولى الخلافة يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى قيادة المسلمين في إفريقية سنة ٦٢ هـ (٦٨١ م) فقام بحملة واسعة النطاق في شمالى إفريقية هزم فيها جيوشاً من الروم والبربر وتقدم إلى أن وصل إلى شاطئ المحيط عند طنجة ، ويروى أنه قال حينئذ : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك » . على أن عقبة لم يحسن سياسته ولم يفد من هذه الانتصارات ، بل اتحد ضده الروم والبربر بزطامة كسيلة . وقتل عقبة وانهزم جيشه سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) واضطر المسلمون إلى التخلي عن كل فتوحاتهم غربى برقة وارتد عن الإسلام معظم البربر الذين كانوا أسلموا قبل ذلك .

ولم يستطع المسلمون أن يبادروا بالأخذ بالثار ، فقد شغلهم عن ذلك ما كان من نزاع بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومناфسه عبد الله بن الزبير ، ثم انتهز عبد الملك فترة هدوء فأرسل إلى إفريقية جيشاً سيره أخوه وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان ، وعقد لواءه لزهير بن قيس البلوى . واستطاع المسلمون أن يهزموا جيوش الروم والبربر سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) وقتل في هذه المعركة كسيلة زعيم البربر وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان ورحل يريد الرجوع إلى مصر ولكنه فوجئ في برقة بحملة أنزلها الروم من البحر حين بلغهم أنه تقدم من برقة إلى إفريقية وترك برقة خالية فعاثوا فيها فساداً وقاتلوه هو ومن معه حين عادوا من إفريقية في طريقهم إلى مصر وكان النصر للبزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده . وعزم الخليفة عبد الملك ابن مروان على الانتقام لهذه الهزيمة وكان النزاع بينه وبين عبد الله بن الزبير قد انتهى بقتل عبد الله ، فاستطاع الخليفة أن يرسل إلى إفريقية جيشاً كبيراً بقيادة حسام بن النعمان الفسافى . ونجح هذا الجيش في طرد الروم من

قرطاجنة بمساعدة الأسطول الإسلامي سنة ٨٧٧ (٦٩٨ م) ثم تحول إلى البربر في جبل أوراس حيث نجحت زعيمتهم « السكاهنة » في توحيد كلتهم وهزمت المسلمين . فتقهقر حسان ومن بقى من جيشه إلى برقة . وظل فيها خمس سنين ، كانت السكاهنة خلالها تحكم إفريقيا حكما مطلقا قوامه الظلم والمسف ، والظاهر أنها ظنت أن المسلمين يريدون استغلال بلادها ، وحمل الغنائم منها فلجأت — حين شعرت بقرب هجومهم — إلى تخريب البلاد وهدم المأثر وقطع الأشجار مما أثار الحضر والشتغلين بالزراعة من سكان البلاد سواء أكانوا من البربر أم من الروم ، واستطاع المسلمون بقيادة حسان ابن النعمان أن يفيدوا من هذه الحال ، ورحب بهم كثيرون من السكان واستطاعوا أن يوقعوا بجيش السكاهنة هزيمة منكرة ، وانتهت بقتلها مقاومة البربر . وعاد حسان إلى القيروان ثم عزله الوليد بن عبد الملك . وفي سنة ٨٨٦ (٧٠٥ م) . أرسل الخليفة إلى إفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة . وهكذا أصبحت إفريقية منذ ذلك الحين ولاية مستقلة في حكمها عن مصر ، بعد أن كانت منذ بدأ الفتوح تتبعها في الإدارة وتلقى منها الجيوش الفاتحة .

على أن مصر لم تكن مركزا للممليات الحربية البرية فحسب ، بل كان على المسلمين أن ينفوا بحماية سواحلها ، وقد أثبتت الحوادث أنهم كانوا محققين في ذلك ، فكثيرا ما أغار الروم على الأسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد رأينا أن الروم نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين وأغاروا على الأسكندرية سنة ٢٥ هـ وتقدموا منها إلى الدلتا يريدون إخراج المسلمين من مصر . وتم طرد الروم على يد عمرو بن العاص .

كذلك اشتبك عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر مع الروم في

سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م)، وكانوا تحت قيادة الأمبراطور قسطنطين الثاني^(١) (٦٤١ م) الذي كان يحاول طرد العرب من مصر واسترداد الأسكندرية كما فعل في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ويقال إن مراكب الروم في هذه الغزوة كانت ألف مركب أو سبعمائة، أما المسلمون فقد لقوهم في مائتي مركب، ورغم هذا فقد انتصر المسلمون عليهم، وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها^(٢)، ويقال إن هذه الغزوة كانت في سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) وأن ريحا شديدة فرقت الروم^(٣)، وقد تناهت غزوات الروم بعد ذلك على الشواطئ المصرية، ففي إمرة مسلمة بن مخلد على مصر نزل الروم بالبرلس في سنة ٥٣ هـ ففرج المسلمون إليهم برأ وبحراً واستشهد في تلك الغزوة وردان مولى عمرو بن العاص^(٤)، ثم نزل الروم على دمياط في سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٥) أي أن غزوتهم هذه كانت في أوائل ولاية قررة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) أو في أواخر ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ - ٩٠ هـ)، وكذلك نزل الروم ببغديس^(٦)

(١) يجدر أن نشير هنا إلى أن المراجع العربية تذكر دائماً قسطنطين بن هرقل لاقسطنطين.

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ - ١٩٠ والكندى ص ١٣. وخطط القرظي ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٩١.

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٨ وخطط القرظي ج ٢ ص ١٩٠.

(٥) خطط القرظي ج ٢ ص ٢١٤.

(٦) تليس : بكنرتين وتشديد النون وباء ساكنة والسين مهلة : جزيرة في بحر مصر (يعني هنا بحيرة المنزلة) قرية من البر ما بين دمياط والفرما في شرقها (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٨٢). ويقول القرظي في الخطط ج ١ ص ١٨١ « وما زالت تليس مدينة عامرة ليس بارض مصر مدينة أحسن منها ولا الحصن من عماراتها إلى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب في سنة أربع وعشرين وستائة فاستمرت خراباً ».

في سنة ١٠١ هـ في إمرة بشر بن صفوان (١٠١ - ١٠٢ هـ) وقتل في تلك الغزوة أميرها مزاحم بن مسعدة الرازي^(١) في جمع من الموالي^(٢) وفيهم يقول الشاعر :

الم تر بع فتخبرك الرجال بما لاقى بتئيس الموالي^(٣)

وفي خلافة هشام بن عبد الملك نزل الروم دمياط في إمرة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر في ثلثة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة ١٢١ هـ^(٤) . ويذكر المقرئ^(٥) أنه لما قامت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون وما استتبع ذلك من الفتن في مصر طمع الروم في هذه البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين . كذلك أغار الروم على مصر في ولاية عنبسة بن إسحاق فنزلوا بدمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا عدداً كبيراً منها ثم مضوا إلى تنيس وأقاموا بأشتومها^(٦) ، ويظهر أن غزو الروم في تلك المرة كان وقعه شديداً ؛ فان الخليفة المتوكل أمر ببناء الحصون في دمياط وتنيس والفرما ، فأنفقت في ذلك الأموال العظيمة ، وبدى في بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ^(٧) .

(١) في الكندي ص ٧٠ . يقول إنه « ابن أحر بن مسعدة الرازي » .

(٢) الموالي هنا معناها أهل البلاد الوطنيين أو المصريين .

(٣) الكندي ص ٧٠ وخط المقرئ ج ١ ص ١٧٧ .

(٤) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .

(٦) الأشتوم بالضم ثم السكون والنون وتاء مشتاة مضمومة والواو ساكنة وميم

موضع قرب تنيس . (ياقوت . معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٦) .

(٧) للكندي ص ٢٠١ - ٢٠٢ وخط المقرئ ج ١ ص ١٨٠ - ٢١٤

ويذكر ابن عبد الحكم^(١) والسيوطي^(٢) أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الإسكندرية جعل عمرو بن العاص ربع الجند لرباط^(٣) الإسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويمقهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضاً ، ويقال إن عمر بن الخطاب كان يبعث في كل سنة جنداً من أهل المدينة ليرابط بالإسكندرية ، وكان يكتب الولاة قائلاً : « لا تفعلها ولا تكشف رابطها ولا تأمن الروم عليها » ، وكذلك اتبع عثمان بن عفان سنة عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله بن سعد في هذا الشأن يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرثين فأزيم الإسكندرية رابطها ثم أجز عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر » .

ولا نعلم إذا كان هذا يحدث في حامية الاسكندرية فحسب أو في الاسكندرية وحاميات البلاد الأخرى . وربما كان تغيير الحاميات ونقلها يقصد به العرب راحة الجند وتجنب تعويدهم على الإقامة في مكان واحد كما يتبع في جيوش العصر الحديث .

ب — البحرية

« ساهمت مصر بنصيب وافر في إنشاء الأساطيل الإسلامية الأولى ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد الذي خلف عمرو بن العاص في حكم مصر كان أمير البحر الثاني في الإسلام . أما أمير البحر الأول فكان معاوية ابن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير له الخلافة . فكان

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة توري — ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧١ .

(٣) الرباط : المكان الذي يربط فيه الجيش . والجمع ربط .

المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد . وبعد أن كان البحر الأبيض المتوسط في عهد جستنيان بحيرة بيزنطية أصبح بفضل مصر والشام بحراً إسلامياً . ولا فني أن سكان مصر ولا سوا القبط كان لهم الفضل في بناء السفن وتشديد دور الصناعات في وادي النيل وفي تونس والشام^(١) .

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التي كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً^(٢) . ولكن عند ما اتسمت امبراطوريتهم وشملت شعوباً وأممًا بحرية ، وعند ما

(١) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية في ممالك معين وسبأ وحير ياقليم اليمن كانوا يستغلون بفل التجارة بين مواطن المدييات القديمة في الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام وكانت سفنهم تمر عبر باب البحر الواقع جنوبي شبه جزيرة العرب والذي أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربي — ومهما يكن من شيء فإن الامبراطورية الإسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التي قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف في البداية من قبائل مظهرها رحل . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن في القرآن مواضع شتى يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي) ، أما البحر فقد جاء وصف أحواله في سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات في بحر لم يمشه من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) راجع مقال الأستاذ هـ. برت جالسكي عن « البحر في تاريخ المسلمين وثقافتهم » ، وقد نصر في كتاب Hans Mzik

Beitrage zur historischen Geographie (Leipzig 1929) p. 42

ومع ذلك كله فلا يستطيع منصف أن ينكر ما حققه المسلمون رغم ذلك من السيادة على البحر الأبيض المتوسط في فترة من تاريخهم . راجع أيضاً ملدة « سفينة » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية :

اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر في البحار ،
بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عوناً لهم في تحقيق أمانهم
في مد سلطانهم وغزو الروم في عقر دارهم .

لم يكن البحر يركب للغزو في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام أو في
خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو في
الإسلام العلاء بن الحضرمي وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ، إذ ندب أهل
البحرين وكان أميراً عليها إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة
ففرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء ، وأمر بتأخير سعد بن أبي
وقاص عليه .

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبي سفيان — وهو يومئذ على
جند دمشق والأردن — على الخليفة عمر بن الخطاب في غزو البحر معللاً
ذلك بقرب الروم من حصص ، ولكن الخليفة لم يوافقهم على ذلك لأنه خشى على
المسلمين من ركوب البحر وقال في ذلك : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل
فيه مسلماً أبداً » وسرعان ما غيرت الدولة العربية سياستها هذه ورأت
ضرورة إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر وذلك في خلافة عثمان بن عفان ،
فقد وافق على القتال في البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعاً لا يحمل
عليه أحد .

فغزا المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت
وغيرها من الجزائر ، بل إن معاوية بن أبي سفيان غزا مضيق القسطنطينية في
سنة ٣٢ هـ^(١) ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر من قبل

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٧٧ . راجع أيضاً : Lammens :

Etude sur le règne du calife omayyade Moawia Ier pp. 52, 270, 279

عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطيين ببحراً في غزوة ذى الصواري وانتصر عليهم رغم حداثة العرب في الحروب البحرية ورغم قلة سفنهم . وكان طبيعياً أن يستخدم العرب في غزواتهم البحرية شعوب الأهم التي فتحوها والتي صرنت على ركوب البحار منذ القدم . وإذ كنا في معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية ومن المال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تعد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » في مصر يدل على المكان الذي تبنى فيه السفن الحربية . وقد عقد القريري في كتابه الخطوط (ج ٢ ص ١٨٩) فصلاً في ذكر المواضع المروفة بالصناعة ، كما أشار في مواضع أخرى من هذا الكتاب (ج ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست في سنة ٥٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التي حلت بالمسلمين في قتالهم . وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحياناً « جزيرة مصر »^(١) ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت في مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ ، فعبد الله بن سعد غزا غزوة البحرية في سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يبنون بيناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) وأن قتال الروم جعل المسلمين يبنون بصناعة السفن في جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بما أن كانت الصناعة في مصر وحدها . فيذكر البلاذري^(٢) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم

Maspero et Wiet : *Materiaux pour servir à la Géographie* (١)
d' Egypte p. 68 ; et G. Wiet : *Corpus Inscriptionum Arabicarum* ,
Egypte II. pp. 197—199.

السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار للصناعة في عكا .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية بأمره بأنخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطن بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما يحتاجه من خشب لصنع المراكب (٢) .

ويظهر أن بناء السفن في مصر كان له شأن عظيم في فجر الإسلام ولا سيما في العهد الأموي فقد ألقت أوراق البردي شعاعاً من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامية المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين .

وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو والتي ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة (٣) وفي القلزم (٤) وفي الإسكندرية (٥) ، فبمض تلك الأوراق

(١) فتوح البلدان ص ١٧٧ .

(٢) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) ص ٣٨ — ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٣٣ — ٣٤ من كتاب « في مصر الإسلامية » الذي أخرجه الدكتور زكي محمد حسن والبيكاشي عبد الرحمن زكي .

(٣) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 92

(٤) Bell : (Der Islam vol. II) p. 277

(٥) Bell : (Der Islam vol. II) p. 280

يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالاً وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان يتفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى^(١) ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها^(٢) تخمين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول^(٣) .

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب^(٤) أو أسطول المشرق^(٥) والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

ولا بد أن المصريين كانوا يصنعون أيضاً سفنًا نيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيراً للنقل^(٦) والتجارة فى ذلك العهد . وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضاً ، فيذكر المقرئى (الخطط ج ٢ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى

(١) Bell : (Der Islam vol. II) pp. 271, 272, 279, 280

(٢) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا
Leiturgia أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم .

(٣) Bell : op cit. pp. 277, 279. & (der Islam vol. XVII) p. 8.

(٤) Bell: op. cit. vol. II. p. 279

(٥) Bell : op. cit. vol. XVII. p. 6—8

(٦) انظر مقال فييت عن المواصلات فى مصر فى المصور الوسطى ص ٤ — ٦

سنة ٣٣٨ هـ في خلافة التوكل وفي ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشواني ^(١) برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد المارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جلته فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالات بينال المسلمون من العدو وبينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو فإنها كانت تسيّر من مصر والشام ومن إفريقية » وأشار المقرئ في هذه المناسبة إلى تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين وإلى اقتداء الأسرى المسلمين في بلاد الروم وكتب المقرئ أن بعض مناطق وادي النيل كان بها أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية . ولكن المقرئ (المخطوط ج ١ ص ١١٠ - ١١١) يموّد فيقول إن هذا بطل جميعه في زمانه أي في عصر المماليك واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسى هذا من الديوان . وإن كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى ألغى ، فإن من المحتمل أن هذا

(١) الشونة : المركب المد للجهاد في الحرب والجمع شوان

الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما في نهايته.
ومما يذكره المقرئ أيضاً أن القرظ وهو ثمر شجر السنط كان لا يتصرف فيه إلا الديوان وإذا وجد مع أحد شيء منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك. ما وجد معه ، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع . ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل في عصر المماليك .
ومن هذا نرى أن صناعة السفن في مصر ، وخاصة السفن الحربية المعدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ ، كانت من أهم الصناعات في فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر في عظمة الدولة الإسلامية البحرية ، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم في إنشاء أسطولها الحربي . بل المعروف أن بناء السفن كان في البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبي سفيان . وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم الممال والفلاحين المصريين في دور الصناعة التي أنشأتها في المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردي . ثم أصبحت الخدمة في الأسطول شرفاً عظيماً يتمناه كل امرئ في مصر . ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التي كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن في البحر . فند أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر في البحر المتوسط ، واستطاعت مصر في خلافته أن تهزم الروم في موقعة ذي الصواري البحرية . وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صواري السفن التي التحمت في القتال فيها ، وتسمى في الكتب الأوربية واقعة فونيكه phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثمر فونيكه غربي الإسكندرية^(١) . والحق أن هذه

(١) Justus Perthes : Atlas Antiquus Tab 18 D 3 ولكن مظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبي آسيا الصغرى بجوار ثمر فونيكس Phoeninx راجع M. Canard : Expedition des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926) وانظر ما كتبه الدكتور زكي محمد حسن في هذا الصدد في عهد شهر مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

المركة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ومما ذكره القرزى في وصفها أن قسطنطين بن هرقل^(١) قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤ هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة . وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا في ألف مركب (١٩) بقيادة قسطنطين بن هرقل « وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهراني الناس فقال : بلغني أن ابن هرقل قد أقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا على . فأكلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفندتهم ثم قام ثانية فكلّمهم فأكلمه أحد فجلس ، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شيء فأشيروا على ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله أركبوا فركبوا . وإنما في كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر ... فلقوم فاقبلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لثلاث تنصيبه الهزيمة وجمعت القوارب تحتلف إليه بالأخبار فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال : غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف . قال : غلبت الروم (بضم النين) ! وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال . قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو

(١) يجدر الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قنسطانز بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية .

بجتر مركب عبد الله إليهم فقام علقمة بن يزيد العطيقي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب ف ضرب السلسلة بسيفه فقطعتها . فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسياسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ - وكان الفاس ينزون بنسائهم في المراكب - من رأيت أشد قتلاً ؟ قالت : علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله قد خطب بسياسة إلى أبيها فقال له إن علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فإن تركها أفعل ، فكلم عبد الله علقمة فتزوجها عبد الله بن سعد ثم مات عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن يزيد ^(١) .

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة في البحر المتوسط . وإليك نص ما ذكره ابن خلدون في « المقدمة » (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين في هذا البحر : « وكان المسلمون لمهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المألومة من الفتح والفنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفرنج » وإذا كان الفضل لمظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التي فتحوها والتي تملوا منها هذا الفن والتي استخدموها في حاجتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين وليس في المراجع العربية ما يمكننا بواسطته أن نعرف شيئاً يستحق

(١) خطط القرزى ج ١ ص ١٦٩ . وقد أثبتنا بهذا النص الطويل لما فيه من أخبار بطرقة عن أساليب القتال البحري عند المسلمين . راجع أيضاً : G. Wiet , L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne t. IV, pp. 29,30,

الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها في فجر الإسلام ، ولكن أكبر الفطن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم في ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، بل إن السفن التي صنعت بحصر للمسلمين في البداية « أخذت أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص في واقعة الإسكندرية »^(١) وطبيعي أن المراكب الحربية كانت متنوعة في أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التي أطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والمشاريات والشلندات والمسطحات^(٢) . وإذا كنا لا نعرف تماماً معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ما عرف بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية في العصور الوسطى ، وكان في بعضها أبراج وقلاع للدفاع والمهجوم وفي بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط ، وكان بعضها لحمل المؤن لرجال الأسطول والبعض الآخر لحمل الخيل^(٣) وما يعرف من تقاليد المسلمين في القتال حينئذ أنهم كانوا في بعض الأحيان يصحبون نساءهم في المراكب البحرية^(٤) .

على أن تاريخ البحرية عند المسلمين لا يزال يحتاج إلى بحوث طويلة ، لأن أخبار البحر وركوبه كثيرة في كتب الأدب والتاريخ وتقويم البلدان

(١) اسماعيل سرهنك : خفائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٠ حاشية ه وما جاء فيها من مباحث وانظر مادة سفينة في ملحق دائرة المعارف الإسلامية

(٣) راجع جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠ — ١٨٢ عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتها (في أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٢ م)

(٤) راجع القريرزى : خطط ج ١ ص ١٦٩ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة

فلا بد من جمعها للدراسة ما يمكن الوصول إلى معرفته عن أساطيل الحرب والتجارة في الأمم الإسلامية المختلفة^(١). وقد ظهر باللجنة الأردنية سنة ١٩٣٥ كتاب عن البحرية الإسلامية للسيد سليمان ندوى في جمعية الدراسات الإسلامية بمدينة بمبای . كما ظهر في لندن سنة ١٩٢٨ مؤلف بالإنجليزية عن تاريخ البحرية الإيرانية للسيد هادي حسن . ومعنى المستشرقون الفرنسيون في بلاد المغرب بدراسة الملاحة والبحرية عند المسلمين في تلك البلاد . ولكن هذه الدراسات كلها لم تؤت ثمارها بعد .

(١) من الأبحاث الطيبة التي ظهرت حديثاً في هذا الميدان تاريخ الأسطول العربي للأستاذ محمد ياسين الجوى (دمشق ١٣٦٤ هـ : ١٩٤٥ م) .

٤ — النظام القضائي

أدخل العرب في مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الإسلامية ، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، أما الذميون فكان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكوا إلى القاضي المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل . قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ^(١) » .
ويذكر الكندي ^(٢) أن القاضي خير بن نعيم الحضري (١٢٠ - ١٢٨ هـ) كان يقضى بين المسلمين في المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ؛ وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم .

ونجد القاضي محمد بن مسروق الكندي (١٧٧ - ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول في المسجد الجامع كالمسلمين ليقضى بينهم ^(٣) .

كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ^(٤) ، ولكن لما كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسه ولا سيما بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، نجده يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى الولاة حكم الولايات المفتوحة . فنجد الخليفة عمر بن الخطاب يعين أول قاض بمصر وهو قيس بن أبي الماص

(١) سورة المائدة آية ٤٥ .

(٢) الولاة والقضاء ص ٣٥١ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاء ص ٣٩١ والقلشندي : صبح الأعشى ج ١

ص ٤١٨ - ٤١٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ - ١٨٣ (فصل في الخطط الدينية الخلافية)

السهي (سنة ٢٣ هـ^(١)) ونرى معاوية بن أبي سفيان يولى القضاء بها سليم ابن عتر النجيبى (سنة ٣٠ — ٦٠ هـ^(٢))، ويولى الخليفة هشام بن عبد الملك القاضي يحيى بن ميمون الحضرمى فى سنة ١٠٥ هـ^(٣). وكذلك كان الحال فى عهد الخلفاء العباسيين، فكانوا هم الذين يولون القضاء، فترى الخليفة أبا جعفر المنصور يولى القضاء عبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥ هـ^(٤)، وكذلك فعل من بعده من الخلفاء. ولكن بمض القضاء كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه، فترى إلى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) يولى القضاء عبد الرحمن بن حنيفة الأكبر (٦٩ — ٨٣ هـ) وعندما يبلغ الخليفة هشام بن عبد الملك أن قاضيه يحيى بن ميمون الحضرمى ساء السيرة يكتب إلى واليه على مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ — ١١٧ هـ) يطلب منه أن يزيله قائلا: «أصرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا وتخبر القضاء جندك»^(٥) رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من الصيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعندئذ عزله الوليد وولى القضاء توبة بن نمر الحضرمى سنة ١١٥ هـ^(٦).

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٠٠ — ٣٠١

(٢) الكندى ص ٣٠٣

(٣) الكندى ص ٣٤٠

(٤) الكندى ص ٣٦٨ — ونلاحظ هنا أن الكندى يناقض نفسه حين يقول: «ثم ولى القضاء بها عبد الله بن لهيعة مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة» فالواقع كما رأينا وكما يذكر الكندى فى مواضع أخرى من كتابه أن الخليفة هو الذى عين معظم قضاة مصر قبل ابن لهيعة. (٥) يستنبط من «قضاء الجند» هنا أن العرب فى مصر حتى أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك لم يكونوا إلا جنوداً أو أن الذين أسلموا من الصرغين لم يكونوا سوى أقلية بديلة انه لم يهتم بالتسميم فى خطابه بل خص القضاء على الجند. ولكن قد يكون المقصود بكلمة جند هنا المنطقة الحربية

Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٦) الكندى ص ٣٤١ — ٣٤٣

وأحيانا كان الوالى يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك . فبزى وإلى مصر داوود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ - ١٧٥ هـ) يولى الفضل بن فضالة القضاء سنة ١٧٤ هـ ، ثم يرد كتاب الخليفة الرشيد بأقراره فى السنة نفسها (١) .

هذه أمثلة أوردتها لأبين أن سلطة القضاء كان مرجعها إلى الخلافة مباشرة ، إذ كان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر . وكان القضاء فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا مما يستدعيه حسن سير العدالة ، فى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاية مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين وكثيرا ما مات القضاء فى مصر وم فى مناصبهم ، فوجد القاضى سليم بن عتر التجيبى يتولى القضاء عشرين سنة (٤٠ - ٦٠ هـ) (٢) بينها يتعاقب فى حكم مصر فى عهده أربعة ولاة هم عمرو ابن العاص وعتبة بن أبى سفيان وعقبة بن عامر الجهنى ومسلمة بن مخلد ، وزى عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر على القضاء أربعة عشر عاما ويظل يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ - ٨٣ هـ) فى ولاية عبد العزيز بن مروان (٣) ، ونجد القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى على القضاء فى مصر نيابة عن خليفتين متوالين هما سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) وعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) (٤) ، وعلى عبد الله بن لهيعة

(١) الكنى ص ٣٨٥

(٢) الكنى ص ٣٠٣ - ٣١١

(٣) الكنى ص ٣١٤ - ٣٢٠

(٤) الكنى ص ٣٣٣ - ٣٣٤

الحضري^(١) القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ - ١٦٤ هـ)^(٢) نيابة عن الخليفة أبي جعفر النصور ثم المهدي ، بينما يلي مصر في هذه المدة سبعة ولاية . ولم يكن القاضي ليرضى بأن يتدخل في أحكامه أحد ، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التي تحاط بالهيبة والإجلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبيرة يتفق مع خطورة العمل الذي يؤديه ، ولا نعرف أن والياً من ولاية مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء . ولم نسمع عن حدوث تصادم بين حكم القاضي وسُلطان الوالي في مصر الذي نحن بصدده سوى ما حدث إزاء مسألتين تسمان الأحوال الشخصية^(٣) .

ولدينا أمثلة كثيرة ترينا إلى أي حد كان القاضي مستقلاً لا يقبل أي وساطة أو شفاعة ، وشديداً في أحكامه إذا ما تبين له الحق . فيروى الكندي^(٤) أن توبة بن نمر الحضري لما ولي القضاء بمصر (١١٥ - ١٢٠ هـ) « دعا امرأته عفيرة فقال : يا أم محمد . أي صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرم ، قال : فاسمى . لا تعرضي لي في شيء من القضاء ولا تذكريني بخم ولا تسأليني عن حكومة ، فإن فعلت شيئا من هذا فأنت طالق ، فإما أن تقبلي مكرومة وإما أن تذهبي ذميمة . فانتقلت عنه فلم تكن ثانيه إلا في الشهر والشهرين » .

(١) عثر على شاهد قبر عبد الله بن لهيعة الحضري . وهو شاهد من الرغام كتب اسمه سنة وفاته وهي جادى الآخرة سنة ١٧٤ هـ وعُفُوْظُ الْآنَ بِدَرِ الْآثَارِ الرِّيةِ بِالْقَامِرَةِ .

Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, pp. 42-48

(٢) الكندي ص ٣٦٨ - ٣٧٠

(٣) الكندي ص ٣٦٧ و ٤٢٧ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(٤) الكندي ص ٣٤٢ - ٣٤٣

وروى عن خير بن نعيم في ولايته على القضاء (١٣٣ - ١٣٥ هـ) «أن رجلا من الجند قذف رجلا من الأهالي نفاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا، وأمر بحبس الجندی إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر، فأرسل أبو عون (والى مصر إذ ذاك) فأخرج الجندی من الحبس، فاعتزل خير بن نعيم وجلس في بيته وترك الحكم، فأرسل إليه أبو عون فقال: لا، حتى ترد الجندی إلى مكانه» (١).

وروى أيضا أن صاحب البريد شفع في خصم إلى القاضي أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الحزى (١٧٠ - ١٧٤ هـ) فكتب إليه الحزى: «ما أنت والقضاء! عليك تدبير دوابك وبراذعها وكنس زبولها» وما لبث أن استغنى عن القضاء فأغنى (٢).

وروى عن القاضي عيسى بن المنكدر (٢١٢ - ٢١٤ هـ) أن رجلين اختصما إليه فقاضى لأحدهما على الآخر ولم يكتف بذلك بل أمر صاحب الحق بأن يضجع خصمه ويضع قدمه على خده لينذه بالحق (٣).

ومع ذلك فلم يكن كل قضاء ذلك العصر موسومين بالمدالة والزاهة، بل وجد أحيانا القاضي المرتضى والقاضى غير الزيه. فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضي يحيى بن ميمون الحضرمى (١٠٥ - ١١٤ هـ) عن ولاية القضاء لما بلغه أنه لم ينصف يتيا احتكم إليه بعد بلوغه (٤)، كما اتهم هذا القاضي بأن كتبه كانوا يقبلون الرشوة وهو يعلم ذلك ولا ينههم (٥).

(١) الكندى ص ٣٥٦

(٢) الكندى ص ٣٨٤

(٣) الكندى ص ٤٣٧

(٤) الكندى ص ٣٤١

(٥) شرحه ص ٣٤٠

وقيل كذلك أن القاضي عبد الرحمن ابن عبد الله العمري (١٨٥ — ١٩٤ هـ) جمع من الرشوة أموالاً كثيرة^(١).

ولم يكن هناك محكمة خصة للفصل في القضايا، إنما كانت مجالس القضاء تعقد في جامع عمرو بن العاص بالقسطة.

ويذكر الكندي أن القضاة كانوا يحملون للقضاء بين النصارى يوماً في منازلهم إلى أن جاء القاضي محمد بن مسروق فأذن لهم بالدخول في المسجد^(٢) ولا بد أن ولاية القاضي كانت تمتد على الأراضي التي كانت تدخل تحت سلطة الولاية السياسية، كما أن الاختصاص النوعي *ratione materiae* للقاضي كان غير محدود سواء أكان في الأمور المدنية أو الجنائية^(٣).

وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامي وهي القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس.

وكان بعض القضاة يرجع أحياناً إلى الخليفة في المسائل الدقيقة، وربما كان ذلك خوفاً من الأفراد بالآراء في مسألة ربما يخطئ فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه في حلها استئناساً برأيه وضماناً للمدالة. ومن ذلك أن القاضي عياض بن عبيد الله الأزدي استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة، فأفتاه فيها^(٤)، وأحياناً كان الخليفة لا يبدى رأياً بل يفوض الأمر إلى القاضي، فقد استفتى القاضي عياض

(١) شرحه ص ٣٩٧

(٢) شرحه ص ٣٩٠

(٣) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte T. 11; pp. 124-125

(٤) الكندي ص ٣٣٤ — ٣٣٥

الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة أخرى فكتب إليه : « إنه لم يبلغني في هذا شيء وقد جعلته لك قاض في رأيك ^(١) » وكذلك نسمح أن القاضي عبد الله بن يزيد بن خذامر استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسائل فأفتاه فيها ^(٢) . على أننا لا نعثر في مصادر هذا العصر على قضاء يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز في المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتقواه في الدين .

لكننا نلمس خلال هذه المصادر أن الخلفاء كانوا يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر إذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة وأنهم يتدخلون في أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك يحيى بن ميمون الحضرمي عن ولاية القضاء لعدم إنصافه يتيا تظلم إليه بمد بلوغه ^(٣) ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم إحدى القضايا حين تبين أن حكم القاضي فيها لم يكن منزهاً عن الغرض ^(٤) .

وقد انتشرت بمصر في العصر العباسي المذاهب الأربعة المعروفة اليوم . على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدر عن أحكامهم وفقاً له . وكان أول قاض بمصر يقول بقول أبي حنيفة إسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ) ^(٥) وأول من ولي قضاء مصر ممن يقول بقول الإمام مالك القاضي إسحاق بن الفرات ^(٦) . وما يدل على أن القضاة لم

(١) الكندي ص ٣٣٤

(٢) الكندي ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٣) الكندي ص ٣٤١

(٤) الكندي ص ٤١٣

(٥) الكندي ص ٣٧١ والقلشندي : وصح الأعشى ج ١ ص ٤١٨

(٦) الكندي ص ٣٩٣ والقلشندي ص ٤١٩

يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين ما رواه الكندي^(١) عن القاضي أبي الطاهر عبد الله بن محمد الحزري (١٧٠ - ١٧٤ هـ) إذ يقول: «فكانت أحكامه على مذاهب ابن القاسم وسالم وابن شهاب وربيعة وكان مستضلماً بمذاهب أهل المدينة حافظاً لها».

ونعرف أن القضاة كانوا يأخذون رزقاً من بيت المال. فكان رزق ابن حجرية (٦٩ - ٨٣ هـ) من القضاء مائتي دينار في السنة^(٢)، وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الجيشاني سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً في الشهر^(٣)، وكان رزق عبد الله بن لهيعة (١٥٥ - ١٦٤ هـ) ثلاثين ديناراً في كل شهر^(٤)، وكان رزق الفضل بن غانم (١٩٨ - ١٩٩ هـ) مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر^(٥).

ويجدر أن نشير هنا إلى أن النظام القضائي في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطاً ثم ارتقى وتطور تدريجياً؛ فمثلاً لم تكن أحكام القضاة تدون، ولكن حدث مرة أن اختصم إلى القاضي سليم بن عتر التجيبي في ميراث فقضى بين الورثة، ثم أنكروا حكمه وعادوا إليه ثانية فقضى بينهم وكتب بذلك

(١) الكندي ص ٣٨٣

(٢) الكندي ص ٣١٧

(٣) الكندي ص ٣٥٤

(٤) الكندي ص ٣٦٩

(٥) الكندي ص ٤٢١ وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان ١٦٣ ديناراً. فيما يتعلق بأرزاق القضاة أظفر آدم متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٤. ويذكر متر ج ١ ص ١٣٤ نقلاً عن خطط القرطبي ج ٢ ص ٩٩ «أن الأخشيذ أول من رتب الرواتب» ولكن هذا يتناقض مع ما ذكرنا سابقاً من أن القضاة كان لهم أرزاق قبل ذلك.

سجلاً^(١)، فكان أول قاض في مصر سجل سجلاً بقضائه^(٢). وتبعه في ذلك القضاء من بعده. كذلك لم يكن للقاضي شيء تصان فيه كتيبه وأوراقه، بل كان كاتب القاضي يحضر، ومعه الكتب في مبدل فاتخذ القاضي محمد بن مسروق الكندي لنفسه قطراً يحفظ فيه أوراقه، وكان يختتمها قبل أن يودعها القمطر، وإذا جلس للقضاء أحضرت^(٣) وظلت هذه العادة متبعة من بعده.

وقد عني قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة في المحاكم، فنجد الفضل بن فضالة في ولايته الثانية على القضاء (١٧٤ - ١٧٧ هـ) يتخذ في مجلسه عشرة رجال للشهادة^(٤)، كذلك اتخذ القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري الشهود ودون أسماءهم وأسقط ما عداهم من سائر الناس، واتبع القضاء من بعده هذه الطريقة^(٥)، وفي ولاية لميعة بن عيسى الثانية على القضاء سنة ١٩٩ هـ رآه يمهّد إلى سعيد بن تليد أحد كتبه ويسمى صاحب السائل ليحدد السؤال عن الشهود في كل ستة أشهر وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، ومن حدث له جرحه^(٦) أوقفه وقد أوقف غير واحد ممن شهد عنده وبلغته جرحته^(٧). كذلك كان القاضي عيسى بن المنكدر يمهّد إلى صاحب مسائله بالسؤال عن الشهود، وفضلاً عن

(١) السجل هنا معناه تدوين الأحكام لا التسجيل المعروف اليوم

(٢) الكندي ص ٣٠٩ - ٣١٠

(٣) الكندي ص ٣٩١ - ٣٩٢

(٤) الكندي ص ٣٨٦

(٥) الكندي ص ٣٩٤

(٦) الجرحه ما تخرج به شهادة الخصم أو حجته أي تسقط.

(٧) الكندي ص ٤٢١ - ٤٢٢

ذلك فقد كان هو نفسه يتنكر في الليل ويمشي في السكك ليسأل عن الشهود^(١).

ومن التقاليد التي نشأت في هذه الفترة أيضاً خروج القاضي في نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان ، وقد نشأ ذلك التقليد في ولاية عبد الله بن لهيعة الحضرمي للقضاء ، حينما اختلف الناس في رؤية هلال رمضان في سنة ما من ولايته ، فبعضهم زعم أنه رآه والبعض لم يره وشك الناس في ذلك فلما كان العام التالي خرج عبد الله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد ممن عرفوا بالصلاح لرؤية هلال رمضان وإثبات الرؤية ، وكانوا يخرجون لرؤيته في الجزيرة^(٢).

ونلاحظ أن إنشاء ديوان الأحياس أو الأوقاف يرجع إلى هذا المهد منذ سنة ١١٨ هـ وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحياس هو توبة بن نمر الحضرمي (١١٥ — ١٢٠ هـ) وكانت الأحياس قبل ذلك في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فقال توبة : « ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً من التواء والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحياس ديواناً عظيماً^(٣) » .

(١) الكنتى ص ٤٣٧

(٢) الكنتى ص ٣٧٠

(٣) الكنتى ص ٣٤٦ . أنظر ملحة وقف في دائرة للطرف الإسلامية

الباب الثاني

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية

التي ظهرت في الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذي يتولاها ، وهل هي إرث في بيت النبي وفي فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أي فرد كفء لها بنص النظر عن القبيلة التي ينتسب إليها . فالدين الإسلامي لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أولغيرها من الأمم ، ولم يهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية . وأقصد بالدينية هنا الإشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول في صفته الدينية ، إذ أن النبوة والرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكان امتناع العباس عم الرسول وعلي بن أبي طالب وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة إذنا بما حدث بعد ذلك من اقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين . وكثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها ، وكان هذا النزاع نارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب ، وقد اتبع كل فرقة أو حزب من الأحزاب التي نشأت أفراد عديدون ، إما إيمانا بمبادئها ومبادئها ، وإما رغبة في منفعة أو مصلحة مادية تمود عليهم ؛ كبت بعض تاليم الأديانات والمذاهب القديمة وصوغها في قالب إسلامي رغبة

في إساءة سمعة الدين الإسلامى أو إحياء وطن قديم على حساب الدولة الإسلامية .

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر ، يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى ، وإنما كانوا من الجند العربى الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية . أما المصريون أنفسهم سواء أ كانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات — إذا استثنينا معاوتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين .

(١) — الحركات السياسية والدبئية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠ — ٥٤٠ = ٦٤٠ — ٦٦٠ م)

١ — موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجل مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان ، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخلقى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك .

عرف عثمان بمكانته الدينية العالية ، ولما انتخب خليفة بعد مقتل عمر ابن الخطاب فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتوح وتم فى عهده فتوحات وغزوات كثيرة ^(١) . على أنه لم تحض ست سنوات

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٨١ .

من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تدمير في الولايات الإسلامية المختلفة وقد ترأس هذه الحركة رجل يهودى من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمه . ويظهر أن عبد الله بن سبأ هذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل في البلاد الإسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات نال في تلك البلدان ، فلم ينجح في الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فأتى إلى مصر ووجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه ، فكان مما نشره مذهب الرجعة . وأخذ يقول إنه يعجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب برجع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^(١) ، ولذا فإن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . كذلك نادى عبد الله بن سبأ بمذهب الوصاية ، فذكر أن لكل نبي وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن علياً خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول ، وبذلك حرض ابن سبأ المصريين على الوثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق^(٢) . ولبينا هنا بحاجة إلى القول بأن تعاليم ابن سبأ بعيدة عن الإسلام ، فالرجعة والوصاية من تعاليم النحل والديانات المختلفة التى وجدت قبل الإسلام فليس للرسول وصى كما أنه ليس في الإسلام رجعة ، فذهب

(١) سورة القصص آية ٨٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ ، خطط القرغزى .

الرجعة هذا لا يقر بالموت بل يذهب إلى أن الإنسان يتنكب ثم يعود ثانية ،
أما تعاليم الإسلام فتقول بأن كل الناس تموت ثم تبعث يوم القيامة
وقد أنكر الثأرون على عثمان أموراً ، منها الدور الفخمة التي شيدها
لأهله وبناته بالمدينة ، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال
والولايات دون غيرهم^(١) ، كذلك قالوا إن عثمان وسع على نفسه وعلى أهله
بخلاف أبي بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين ،
ففرو المسلمون من ذلك التبذير وعهدهم قريب بضبط أبي بكر وعمر^(٢) ، وزعموا
أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو
سكران ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتم . فلما بلغ عثمان ذلك
لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك^(٣) .

قد تكون هذه الأسباب التي تدرع بها الثأرون مبالغ فيها أو غير
صحيحة . وإن صححت فهي في الواقع أسباب لا تستدعي الثورة ضد
الخليفة ، وقد قيل عن عثمان إنه قد عيب عليه أشياء لو فعلها عمر بن
الخطاب ما عيب عليه^(٤) ، وربما أطمع الناس فيه دماء خلقه وليته .

ولم يفعل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون^(٥) ما انطوت عليه هذه الثورة ،
فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع
بين القبائل على السيادة ، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بني بكر بن وائل
وعبد القيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ، من سيادة

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٨٦ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١ .

(٥) العبر وديوان المتنبأ والمخبر ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

المجاهدين والأنصار من قريش وجهراهم ، فأظهروا الطعن في ولاية عثمان وفي الخليفة نفسه ، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحلوا عثمان على النظر في الأمر .

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة مارواه الطبري (١) من أنه عندما حرض عبد الله بن سبأ أهل مصر على الطعن في أمراء عثمان « وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » أخذ أهل مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة في غيوب ولائهم ، ويكتبهم إخوانهم في مثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث ، حتى « أوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لنى عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لنى عافية مما فيه الناس » .

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة في بادئ الأمر ، إذ أنها كانت حركة سرية . ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجلا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات ، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئا وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم ، ولكن عمار بن ياسر الذي أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يعد إلى المدينة ، ولشد ما كانت دهشتهم عند ما أرسل إليها عبد الله بن سعد كتابا إلى المدينة يقول إن قوما استألوه ، منهم عبد الله بن سبأ

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ - ٩٩ .

وخالد بن ملحم وكنانة بن بشر^(١)

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الثائرين في مصر وكيف كانت هذه البلاد سبباً في تعجيل الحوادث وفي إشعال نار تلك الثورة التي انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والتي كانت سبباً في انقسام المسلمين على أنفسهم انقساماً طال أمده وتعددت مناحيه .

ذكرنا أن عبد الله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح في الشام ، ثم قدم إلى مصر فوجدها متهيئة لقبول دعوته وللظن في عثمان ، وهذا الأمر يستلفت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب في ذلك ؟ فلم نجحت دعوة ابن سبأ في مصر نجاحاً كبيراً ؟ ولم لم يطرد منها كما حدث له في البصرة أو الكوفة مثلاً ؟ نحن لا نجد في المصادر القديمة ذكر السبب في ذلك ، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية . ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحاً كبيراً في مصر لأن أفراد القبائل العربية التي لا تنتمى لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين والذين استقروا بمصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة ، وهم في ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وإنما أرادوا زعزعة سيادة قريش ، فقد كرهوا تلك السيادة التي زادت منذ ظهور الإسلام . وهذا سبب ذكره المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون كما رأينا . على أنه وجد أيضاً في مصر بعض القرشيين الذين ثاروا ضد عثمان ، وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا في الخلافة نفسها ، فهم يروون سيادة

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٩ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣٩ ، خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

قريش بالطبع ، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التي مرت بين الناس أن يلقوا دلوهم في الدلاء عليهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أى منصب عظيم في الدولة الإسلامية . وضع عثمان عبد الله بن سبأ كان يكيده للإسلام والدولة الإسلامية . ومع أن تعاليمه الشيعة أبعد ما تكون عن الدين الإسلامي إلا أنه لا بد كان رجلا ماهرا ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه الشيعية ، ولم يكن تأثيره عظيما على العامة فحسب ، بل نرى أيضا أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجلا من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان ، مثل الصحابي الكبير عمار بن ياسر الذي كان عثمان قد أوفده للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه .

وامتطاع عبد الله بن سبأ أن يجذب إليه أيضا أحد كبار أئمة الحديث ، كان مقيا بالشام عند ما كان ابن سبأ يتنقل في الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، ذلك هو أبو ذر النفاري^(١) . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل عليا على غيره ، وطبيعي أن يكون في مصر فريق ممن يؤمنون بأن عليا أحق بالخلافة ممن عداه .

وهكذا نرى أن الثورة ضد عثمان كان الباعث عليها اتجاهات وميول مختلفة ، فمن ثائر يريد بخروجه الكيد للذين الإسلام والدولة الإسلامية بوجه عام ، ومن متذمر من خلافة قريش وسيادتها ، ومن طامع في الخلافة ومن شيعي خرج مؤمنا بحق علي بن أبي طالب في الخلافة ، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة في بلد آخر غير مصر . ولكن يظهر أن الذي ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذي سهل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال

(١) الطبري ج ٥ ص ٦٦ .

والى مصر إذ ذاك ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، بالحروب الخارجية التى قام بها ، إذ غزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة سنة ٣١ هـ وغزا إفريقية سنة ٢٧ هـ كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ^(١) ، وفى هذه الأثناء بالذات كان عبد الله بن سبأ يقوم بدعوته وفى سنة ٣٤ هـ كان الثأرون على عثمان فى مصر والأمصار المختلفة يتكاثرون للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم تقوموا عليه بسببه^(٢) ، أى أن الثورة التى كان يدعو إليها ابن سبأ والتى كان مركزها فى مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى السنة التى كان يقزو فيها عبد الله بن سعد الروم ، تلك الغزوة التى أسفرت عن انتصار العرب الباهر ضد البيزنطيين . فى الوقت الذى كان عبد الله بن سعد مشغولا بغزوات وفتوحات عظيمة كان ابن سبأ يعمل فى الخفاء ضد عثمان . ويظهر أن عبد الله بن سعد لم يعلم بأمر هذه الثورة إلا سنة ٨٣٥ بمدرجوعه من غزوة ذى الصوارى كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن^(٣) ، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت وإلا لما تنافل أو تخاصم عنها وهو أخو عثمان فى الرضاة وموضع ثقته .

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فى مصر هو سخط أهلها على واليها عبد الله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه اشتغل عنهم بقتال أهل المغرب وغيرها^(٤) ولكن عبارة « أهل مصر » هنا ليس معناها المصريين الوطنيين فهؤلاء

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ص ٨٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ .

لم يقوموا بتلك الحركة ولكن يقصد بها العرب الذين استقروا بمصر وكانوا أجناداً كما نعلم، فلعل الذين اشتركوا معهم في الفتح كرهوا أن يولى عليهم غير قائدهم الأول عمرو بن العاص . ولعل عمراً نفسه - وهو المعروف بذهابته العظيم - كانت له يد في إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبد الله بن سعد . ولعل كثيراً من الجند العرب في مصر أصبحوا لا يحبون بقتال أهل المغرب إما رغبة في الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال وما يصيبونه فيه من غنائم .

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الثورة وإلى أى حد نجح الثوار في ثورتهم .

وفد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان بالمدينة في رجب سنة ٣٥ هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني في قول ، أو السائب ابن هشام بن كنانة العامري في قول آخر^(١)، ولكن خليفته عليها طرد من القسطنطينية في شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبي حذيفة الذي أخذ يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة للدرجة أنه كان كما يذكر المقرئ^(٢) يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ويدعى أنهن كتبنها ويقرأها في المسجد فإذا فيها الاستفاعة مما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام ، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون وبالطبع كان لثمان شيعية في مصر فثأروا ابن أبي حذيفة وأرسلوا إلى عثمان من يجبره بصنيعه ، ومن بين شيعية عثمان في مصر معاوية بن حديج وخرجة

(١) الكنتى : الولاة والقضاة ص ١٣ - ١٤ ، خطط المقرئ ج ٧

ص ٣٣٥ .

(٢) الكنتى ص ١٤ ، المقرئ ج ٢ ص ٣٣٤ .

ابن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة وغيرهم كثير^(١)

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالعنف والشدّة ، خوفاً من إراقة دماء المسلمين فأرسل سعد بن أبي وقاص عليه يستطيع أن يصلح بين المصريين ويوصل إلى حل في المسألة . ولكن سرعان ما خطب ابن أبي حذيفة في أتباعه يحضهم على التماسك والّا ينخدعوا الرسول عثمان بدعوى أنه جاء ليستأمرهم ويقل عزيمتهم ، وكان لكلامه أكبر الأثر في أتباعه إذ سار إلى سعد بن أبي وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى . وما لبث عبد الله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكده يبلغ جسر القلزم حتى منعه أتباع ابن أبي حذيفة من الدخول فيها ، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به ، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفي^(٢) .

ولم تقف الثورة في مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة ، بل فكر ابن أبي حذيفة في إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان ، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبد الرحمن ابن عديس البلوي . وكانت النتيجة أن قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر^(٣) . وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر ، وكان معهم النازون من البصرة والكوفة ، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة^(٤) ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان

(١) الكندي : الولاية والقضاة ص ١٥ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٥

(٢) الكندي ص ١٦ - ١٧ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) الكندي ص ١٧ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٤) العمرة : زيارة البيت الحرام في غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر

ابن عفان ، وكان من بينهم محمد بن أبي بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عبد الله بن سعد فقفل ذلك الوفد راجعاً ، وبينما هم في الطريق رأوا راكباً ارتابوا في أمره ففقدوه وإذا معه كتاب من عثمان إلى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبي بكر ونفر من معه ، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة . وقراءه على من فيها من الصحابة وقد أنكر عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه . فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها ، ومالئت الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أقطع قتلة وربما شجعهم على قتله ما علموا من استنجاده بمعاوية بن أبي سفيان وعبد الله ابن عامر وإلى البصرة وأمرأ الأجناد فأرادوا أن يشموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفاً من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل . وكان يدافع عن عثمان في داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للثائرين ، ويقال إن محمداً بن أبي بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقبله ^(١) .

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً ليتهموه بالخديعة أو الغفلة ، خصوصاً إذا علمنا أن عبد الله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج الثائرين إلى عثمان ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة ، بل كان بداية الفتن والمنازعات التي حفل بها التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٤١ — ٤٨ ، ابن الأثير : الكامل

ب — أمر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون^(١) فتنة ابتلى الله بها الأمة ، فقد بويغ علي بن أبي طالب من بعده بالخلافة في سنة ٣٥ هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة . إذ رأى علي ومن تبعه أن بيعته قد انعدمت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالدينة ، دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة ، وأرجأ المطالبة بدم عثمان ريثما يجتمع الناس وتتفق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى آخرون أن بيعته لم تنمقد لافتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والمقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم ، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ في فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين . وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة علي ، معاوية بن أبي سفيان وإلى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن عمه .

وقد بادر علي بسد توليه الخلافة بمنزل ولاية عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر أن البيعة جاءت من كل مكان إلا بلاد الشام التي كان يليها معاوية بن أبي سفيان ، فكان لا بد من نشوب النزاع بين الطرفين وبينهما يستمدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسي حادث جديد . هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج

(١) المقدمة ص ١٧٩ (فصل في ولاية المهدي) .

الرسول على خلافة على واشتبا بهم معه في موقعة الجمل التي انتهت بانتصار على وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة في سنة ٣٦ هـ . وفي تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلاً من أنجبر دهاة العرب : هو عمرو ابن الماص . ويذكر اليعقوبي^(١) أن عمرو بن الماص اشترط على معاوية بن أبي سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد على فقبل معاوية ذلك .

سار على بن أبي طالب في أواخر سنة ٣٦ هـ من الكوفة — التي اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل — نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان في سهل صفين ، حيث نشب القتال بين الفريقين . وانتهت تلك الموقعة في صفر من سنة ٣٧ هـ بحيلة ارتآها عمرو بن الماص . إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف فكان ذلك سببا في فتور أكثر جند على بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . وقد اختير عمرو بن الماص حاكما من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعري من قبل على . وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكيم على خلع على معاوية ، فأعلن أبو موسى الأشعري خلعهما ، ثم قام عمرو فأعلن خلع على وتثبيت معاوية لأنه ولي عثمان والطلاب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه^(٢)

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضى أهل الشام بخلافته ، ولا بد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلافة معاوية ، كذلك خرج فريق من أتباع على عليه بسبب رضائه

(١) تاريخ ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) انظر الطبري ج ٦ ص ٣٧ — ٤٠ ، المسعودي : مروج الذهب . ج ٢

ص ٢٨ — ٢٣ (ط . القاهرة) .

بالتحكيم وهذا الفريق هو الذى يعرف بالخوارج ، كما أن فريقاً آخر من جند على ملوا الحرب والزراع . وقد عزم على على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكيم حكماً المهوى ولم يحكما القرآن ، وحث الناس على قتالهم فى سنة ٣٨ فتتأقلا ولم يطيموه إذ كانوا قد ملوا الحرب وستموا القتال .

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمر و فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبد الرحمن بن ملجم الذى قتل على بالكوفة فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ . وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبابيع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن على ، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر ، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه فى الخلافة .

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجل مظاهره فى مصر التى كانت مركزاً للثأرين على عثمان بن عفان . فبعد مقتله فى دى الحجة سنة ٣٥ هـ عاد الركب الذى كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية ، ويروج أن نفراً منهم تخلفوا فى المدينة ومنهم محمد بن أبى بكر نفسه ، ويظهر أن أولئك الثأرين كانوا يتوقعون أن يفتقم منهم شيعة عثمان أو أنهم كانوا كعادتهم دائماً يمزجون السياسة بالدين ، وذلك لأنهم لما أتوا القسطنطينية ودخلوا المسجد صاحوا : « إنا لسنا قتل عثمان ولكن الله قتله (١) » أما شيعة عثمان فى مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد ، ولكن ابن أبى حذيفة أرسل إليهم من يحاربهم والتقى الفريقان فى إحدى قرى البهنسا فكان النصر لحليف شيعة عثمان وهزم جيش ابن أبى حذيفة . ثم

(١) الكندى : الولاية والقضاء ص ١٨ خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٠ .

سار معاوية بن حديج إلى برقة ولا تعرف لها إذا سار إليها — ثم رجع ثانية إلى الاسكندرية فأرسل إليه ابن أبي حذيفة جيشاً آخر على رأسه قيس بن حرملة اللخمي فاقتتل الجيشان بخربتا^(١) في أول شهر رمضان سنة ٣٦ هـ فقتل قيس بن حرملة وهزم جيشه^(٢) . وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان في مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذي ثار على عثمان ولما يحض عام واحد على مقتله .

نرى إذن أن النزاع الذي كان يقوم في حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدي إلى فوضى وزعاع في مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة في تلك الظروف ، فنرى ابن أبي حذيفة يفتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يعينه خليفة ، كما نرى شيعة عثمان وشيعة علي يقتتلان في مصر .

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبي حذيفة شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولوقعها الجغرافي الممتاز فوصل في نفر من أصحابه إلى سلمنت من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦ هـ فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأهل مصر^(٣) لينموه من دخولها ، فبعث معاوية — بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبي حذيفة يقول إنهم لم يجيئوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذي ذهب إلى المدينة لقتل عثمان ، فلم يجب ابن أبي حذيفة

(١) بخربتا . بفتح الحاء أو كسرهما كانت من كور الحوف الغربي بالقرب من الإسكندرية وهي الآن خراب لا يعرف (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٦)

(٢) الكندي ص ١٨ - ١٩ ، خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٣) مصر هنا تعني القسطنطينية لا القطر المصري لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصري فلا وليس القسطنطينية عاصمة مصر .

طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بثمان ما دفعناه إليك !!
وهنا لحا معاوية إلى الحيلة خربة أخرى فعرض على ابن أبي حذيفة وأتباعه
بأن يعطوه رهنا لكي يتفادوا حربه ضدهم . فرضى ابن أبي حذيفة بذلك
وخرج في الزمن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما
بلغوا لد^(١) سجنهم معاوية بها . وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن
فتبهم صاحب فلسطين وقتلهم في ذي الحجة سنة ٣٦ هـ^(٢)

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوي في
مصر ، ولا سيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان ، دون أن يكلفه ذلك حربا
أو سفك دماء . ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة في وقت كان
يستمد فيه لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين علي بن أبي طالب

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبي حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد
ابن عباد الانصاري واليا عليها من قبله فدخلها في بداية ربيع الأول
سنة ٣٧ هـ . ويظهر أن قيسا كان من أصحاب المقدرة السياسية الذين يعرفون
كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم ، فنراه يحسن إلى
شعبة عثمان بمخربتنا ويكرمهم ويبيعث إليهم بأعطياتهم . ولعل معاوية خشى أن
تجمل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير علي والطاعة له
فيقضى بذلك على حزب بنى أمية ، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجهم من
مصر بأية وسيلة ، ولكنه امتنع منهما بالدهاء والمكيدة . وأخيرا لجأ معاوية
إلى مكيدة استطاع بها أن يجعل عليا يشك في إخلاص قيس بن سعد فكان

(١) هي الآن الد Lydda في فلسطين على الطريق الذي يوصل بين مصر وسوريا
(د . القم والتشديد .. قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين — يافوت : معجم
البلدان ج ٤ ص ٣٥٤) .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٩ ، وخطط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٦

معاوية يحدث رجلا من ذوى الرأى من قريش فى هذا ويقول « ما ابدعت من مكايده قط اعجب الى من مكايده كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس ». اذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيعته وأن كتبه ونصائحه تأتية منه وكتب بذلك إلى شيعته فى العراق ، فسمع بذلك جواسيس على فى العراق ، وانتهى ذلك الخبر إلى على وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيعة عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم معللا ذلك بأهم وجوه أهل مصر وأشرفهم فنهض مسعدة بن غنم وبسر بن أبى أرطاة ومعاوية بن حديج وقال إن معاملتهم بالحسن خير من قتالهم ؛ فقتلهم لا يجدى نفعا وأنه فى الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسن ، ثم كتب إلى على : « إن كنت تهمنى فاعزلى وايمت غيرى » فعزله على وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر . وولى على مصر الأشتر مالك بن الحارث النخعى وهو من أعوان على وكبار قواده حضر معه موقعى الجمل وصفين . وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القازم فى بداية رجب سنة ٤٣٧هـ ، وهناك شرب عسلا فمسموما . ولما سمع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو : « إن لله جنودا من عسل ^(١) » ومن المحتمل أنه كان كافرا لمعاوية وعمرو يد فى مقتله .

وكتب أبو الحسن ^(٢) أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لكفائته وشدة فكتب إلى عامل القازم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها ، فكان أن قدم عامل القازم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فمات لساعته .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠ — ٢٤ ، خطط القرينى ج ٢ ص ٣٣٦

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤

لما علم على يموت الأشر أرسل إلى مصر محمد بن أبي بكر فكان حكمه
بداية النهاية لحكم على بن أبي طالب في مصر ، ولا غرو فقد كان رجلا
يجهل أمور السياسة والحكم ، وكانت تغلب على طبيعته روح الفوضى
والثورة ، وفيه حب للرياسة والزهو ، وقد تجلت طبيعته هذه في ثورته ضد
عثمان وفي سياسته في مصر عندما وليها .

قدم محمد بن أبي بكر إلى مصر في رمضان سنة ٣٧ هـ . ويقال إن قيس
ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر ، تذكرنا بساسة قيس
قبل أن يمزله على ، ومن تلك النصائح أن يصانع شيعة عثمان في مصر ليكشف
بماملته الحسنة عن أمرهم وآرائهم ، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب
بوجه عام وبأن يتجنب إلى الناس وذلك بأن يمود المرضى ويشهد الجنائز ،
وغير ذلك من النصائح التي تستحق التقدير . على أن محمد بن أبي بكر لم يفعل
شيئا من ذلك ، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه
من شيعة عثمان يدعوم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دورهم فهدمها ونهب
أموالهم وسجن ذرائعهم ، فهضمت شيعة عثمان لمحاربتة ولما علم أنه لا قبل له
بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففعلوا ولحقوا
معاوية^(١) . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة
السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر .

في ذلك الوقت الذي عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص
مصر من على ، كان قد اتفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين ،
ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدنة يضع فيها الفريقان التجاربان
السلاح . وتذكر المصادر أنهما لما اتفقا على التحكيم غفل على أن يشترط

(١) الكندي ص ٢٦ - ٢٨ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٧ .

على معاوية ألا يقاتل أهل مصر^(١) ، ولذا أصبح معاوية في حل من قتال أهلها . ويدكر أبو المحاسن^(٢) أن معاوية طمع في مصر لما اختلف أهل العراق على علي ، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتنا كانوا عثمانيّة ، ويدكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب علي . ولأهمية تلك المسألة استنار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو . فقال عمرو : « أمهك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعوننا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، في افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك . فقال له معاوية . يا ابن الماص : « إنما أمهك الذي كان بيننا^(٣) » وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو . وفي تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته في مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة ابن مخلد عندهم بقدوم جيشه فكتبوا إليه : « أما بعد فمجل علينا بنجيلك ورجلك ، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أئانا المدد من قبلك يفتح الله علينا »

هذه هي الرواية التي يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها ، وأن معاوية لم يرسل جيشاً لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور في مصر .

وقد تكون شيعة عثمان في مصر قد خرجت حقا في ولاية محمد بن أبي بكر كما ذكرنا سابقا ، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم .

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨ هـ جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن الماص .

(١) الكندي ص ٢٨ ، خطط القرظي ص ٣ - ٣٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨

(٣) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذي كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه

مصر طعمة له وذلك عند ما يتأهد معه على قتال علي

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدي البيزنطيين كما فعل سنة ٨٢٠ م وإنما كان يستخلصها من شيعة على ابن أبي طالب ، فكان جيش عمرو في تلك المرة يحارب فريقاً من متبعيه يدين بدينه ، لا شعباً أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين الإسلامي . ففي سنة ٨٢٠ م وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين ، وهنا في سنة ٨٣٨ م انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاوم حزبا آخر . وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلي وأهل فلسطين وعليهم رجل من خشم وكان معاوية بن حديج على رأس شيعة عثمان ، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن . وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبي بكر فأقتتلوا بالمسناة^(١) وهزم الجيش الذي كان يقوده محمد بن أبي بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة في الأرواح . وبين شدة القتال في تلك الموقعة ما قاله عمرو : « شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أريوما كيوم المسناة ولم أو الأبطال إلا يومئذ » وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة القسطنطينية^(٢) .

هرب محمد بن أبي بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج في رهط من أنصاره يبحث عنه فدلته على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال : يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبي بكر وإنما أمرها واحد^(٣) . ويقال إن محمداً طلب المفوم من معاوية فقال له معاوية : « قتل ثمانين رجلاً من قومي في عثمان وأتركك وأنت صاحبه ! » فقتله ووضعه في جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار . فكانت ولاية محمد بن أبي بكر

(١) المسناة : مكان بين عين شمس وأم دين أي شمال القاهرة .

(٢) الكندي : الولاة والفضلة ص ٢٩

(٣) الكندي ص ٢٩

على مصر خمسة أشهر ومقتله في ١٤ من صفر سنة ٣٨ هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به ، وهو أول رأس طيف به في الإسلام^(١) ، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر في صفر سنة ٣٨ هـ^(٢) . وتقديراً لهذه الخدمات التي أداها عمرو بن العاص ولاء معاوية مصر صلاتها وخراجها وجعلها له ملزمة بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، وهذه هي ولاية عمر بن العاص الثانية على مصر . ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذي كان بين علي ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبد الله ، وقيل خارجة بن حذافة صاحب شرطته ، وبعد أن أدى مهمته في التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر^(٣) . وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ .

٢ — النزاع الذي قام حول الميراث بين الخلفاء الأمويين (٤٠ —

١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م) :

١ — دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك في مصر

طمع عبد الله بن الزبير في الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه في موقعة الجمل^(٤) ، على أن الفرصة لم تسكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه الخلافة ، بل نراه يشترك في خدمة الدولة زمن معاوية

(١) خطط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٧

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٠

(٣) السكندی ص ٣١ ، خطط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٧

(٤) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٦٩ ، ابن طباطبا :

الغزى ص ٧٦

ابن أبي سفيان ويخرج في الجيش الذي سار لعزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية^(١). وعند ما أخذ معاوية قبيل وقاه البيعة لابنه يزيد، عارض في تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له «... وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت»^(٢). ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ - ٦٤ هـ = ٦٨٠ - ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ب كربلاء، ويقتله خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة في سنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز^(٣). وقد أرسل يزيد جيشا في سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه في المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولي الخلافة معاوية الثاني ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقبل إنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفي تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذي بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بوع مروان بن الحكم بالخلافة في سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير. أما في الشام فقد انتصر على

(١) الطبري: ج ٦ ص ١٣٠

(٢) ابن طيابة: الفخرى ص ٩٨

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٦٠، الطبري ج ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

الضحاك بن قيس عامل عبد الله بن الزبير في موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلعت بلاد الشام لمروان ، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سئرى ، ومات مروان في سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق .

وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير ، إذا تغلب بنو أمية على العراق في سنة ٧٢ هـ ، وعلى الحجاز في سنة ٧٣ هـ ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير في هذه السنة .

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ وأصبح ولايتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين ، ولم تظهر دعوة ابن الزبير في مصر إلا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك في ولاية سميد ابن يزيد عليها (٦٢ — ٦٤ هـ) . وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم^(١) . والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع النازين على الخلافة عليها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية . فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج ، ولكن ربما ادعى الخوارج في مصر ذلك ، وساعدهم في دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم في نشر دعوته .

أوفد الخوارج في مصر وفدا إلى ابن الزبير — ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه . كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤١ ، خطط القرينى : ج ٢

الخوارج ، منهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذري وحيان بن الأعين الحضرمي وحجوة ابن الأسود الصدقي — ثم أرسل ابن الزبير واليا عن قبله على مصر هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، فقدم مصر في طائفة من الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤ هـ ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم في شعبان سنة ٦٤ هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير . وقد باعهم الناس في مصر ومنهم شيعة بني أمية الذين بايعوه في الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين وللحكم الأموي في الباطن^(١) . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعة مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة . وقد أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول القسطنطين للدفاع عن مصر ، فأمر بحفر هذا الخندق فحفر في شهر واحد ، وفي ذلك يقول ابن أبي زمرة الخشني .

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق ثلاثون ألفا قد آثاروا ترابه وخدوه^(٢) في شهر حديث مصدق وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب ابن كنفانة بن هشام العامري كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤٢ ، خطط القرطبي ج ٢

(٢) خدوه : شقوه

اللعننى . وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى ليمنع عبد العزيز بن مروان من السير إليها . أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بمساعدة غربية إذ أخبره روح بن زنباع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولما التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع ، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمى جيشه جيش الكرايين ، وأما المراكب التي سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقها ونجا أميرها الأكدر وعاد إلى القسطنطينية . وقد التقى جيش زهير بن قيس بعبد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه (١) .

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم في اتباعه وتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم . وأخذوا يحاربون مروان وهم في الخندق ، وقد سميت تلك الأيام بالأيام الخندق والتراويح ، فكان أهل مدينة القسطنطينية يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم ، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل القسطنطينية في غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (٢) . وانتهى في مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهي المدة التي دلى فيها عبد الرحمن بن جحدم .

وقد بايع المصريون مروان بن الحكم إلا نفرًا لم يرضوا بنكث يمية ابن الزبير بعد أن بايعوه طائمين . ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة

(١) الكندى ص ٤٢ — ٤٣ ، خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٢) الكندى ص ٤٣ — ٤٤ ، خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٢٨

ابن الزبير نهائيا من مصر ، فقد اضطر إلى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها في أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموي ، كما ولي عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التي تجعل منه حاكما قديرا وتساعد على حكم مصر (١) .

على أن مصر بعد خروجها عن طاعة ابن الزبير لم تقف على الحياد في النزاع الذي كان بينه وبين الخلفاء الأمويين ، بل مدت يد المساعدة إلى الأمويين كي تمينهم على التخلص منه ، فأرسل عبد العزيز بن مروان إلى مصر (٦٥ — ٨٦ هـ) في سنة ٧٢ هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ، وكان في هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بجنس (٢) أحد موالى تميم يقال إنه هو الذي قتل ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ (٣) .

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ، إلا أنهم ، كما يقول المقرئ (٤) ، انكفت ألسنتهم هم والعاوية بعد تغلب مروان على مصر . على أنهم عادوا إلى الظهور في ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فيذكر السكندى (٥) والمقرئ (٦) أنه عندما خرج قرة إلى الإسكندرية في سنة ٩١ هـ اتفق

(١) السكندى ص ٤٧ — ٤٨

(٢) كتب الاسم في المصادر بجنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم « بجنس »

(٣) السكندى ص ٥١ ، خطط المقرئ : ج ١ ص ٢١٠

(٤) المخطط ج ٢ ص ٣٣٨

(٥) الولاة والقضاة ص ٦٤

(٦) المخطط ج ٢ ص ٣٣٨

الخوارج بالاسكندرية ، وكانت عهدهم نحو مائة ، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر ابن أبي الثنى التجيبي أحد بني فهم ، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبي سليمان فأبلغ قره ما عنزم عليه الخوارج فأخذهم بقتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عنزموا عليه فقتلهم .

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بعد أن ساهمت فيه مصر مساهمة ذات أثر لا ينفى . وقد ظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموي فيها (٣٨ - ١٣٢ هـ) هادئة لا تشترك في أية منازعات أو حركات ظهرت في مقر الخلافة أو في غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية إذا استثنينا تلك الفترة التي قامت فيها خلافة ابن الزبير في مصر كما تقدم . على أن مصر دخلت في أواخر ذلك العهد في النزاع الذي قام بين الأمويين والعباسيين والذي انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى .

ب — زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك في مصر

تجمعت الظروف والعوامل التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني ، فمن شيمة يعملون على الكيد لبني أمية لينتصبوا الخلافة منهم ، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش ، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم .

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يظهر أثرها في إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموي على نفسه انقساماً تاماً منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٣٦ هـ) =

٧٤٣ — ٧٤٤ م) إلى أن ولي الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) ، إذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموي يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بني أمية على إلقاء دلوهم في الدلاء عليهم يصلون إلى ما يريدون . وكان صاحب النصيب الأكبر في هذه الغنيمة هم المباسيون .

كذلك وضع خطر المصيبة القبلية في أواخر عهد الدولة الأموية ومما زاد في شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم في هذه المنازعات ، فتمصب بعضهم لعرب الشمال وتمصب آخرون لعرب الجنوب . وقد استغل بنو المباس عم الرسول كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجري ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة^(١) فأخذوا يميلون لأنفسهم واستغلوا في حركتهم الشيعة والموالى استغلالا كبيرا ؛ إذ كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعي أن هذا يشمل آل علي وآل المباس .

وفي الوقت الذي أثمرت فيه الدعوة المباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد . وقد وجدت الدعوة المباسية في شخصية أبي مسلم الخراساني صاحب الفضل في إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ ، فهو كما يقول ابن طباطبا^(٢) « رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح » . وقد نجح أبو مسلم في إظهار الدعوة المباسية ورفع راية المباسيين في خراسان سنة ١٢٩ هـ^(٣) . وتمت الغلبة للمباسيين على الأمويين في خراسان

(١) السعدي : كتاب التبيين والإشراف ص ٣٣٨

(٢) الفخرى ص ١١٨

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨٢ — ٨٤

والمراق ، وسار أبو مسم بجندته من خراسان إلى الكوفة حيث بايع
أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة ١٣٢ هـ . وتبعه الناس من بعده . وقابل
جيش العباسيين مع الجيش الأموي الذي كان يقوده مروان بن محمد عند نهر
الزاب (أحد روافد نهر دجلة) ، وهناك كانت الغلبة للعباسيين في
سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م ^(١)) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية في مصر لأن
العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور
الحوادث منذ البداية كان في المشرق ، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها
في مصر التي فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقي فيها حتفه .

أولا ، ما نسمع عن الدعوة العباسية في مصر أيام خلافة هشام
ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) وفي ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها
(١١٧ - ١١٩ هـ) إذ يذكر أبو المحاسن ^(٢) أن دعاة بني العباس أرسلوا
إليه سرا فاكرمهم ووعدهم ببلغ ذلك هشاما فعمله .

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر عما كان يدور في المشرق حتى كانت
خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيبدأ الاضطراب في مصر منذ
توليهِ الخلافة ونرى الجند لا يطعمون أوامر الخليفة في كثير من الأحيان ،
كما نرى النزاع بين القيسية واليمينية يتجلى بأجلى مظاهره في مصر ولا غرو
فقد عمت روح العصية القبلية إذ ذاك في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ،
فاليمينيون لا ينفذون أوامر الخليفة ، والقيسيون أو المضريون في جانب
الخليفة ، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة ، كما يثور بعض أفراد

(١) الطبري ج ٩ ص ١٣٠ - ١٣٢ ، ابن طباطبا : القنرى ص ١٢٥ - ١٢٦

(٢) البجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨

البيت الأموي تمسبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضده ، كذلك يظهر الحوارج في مصر . أى أن ما يحدث في مقر الخلافة يقع مثله في مصر . وهنا نجد ظاهرة لم نهدأ من قبل وهي ثورة الأهالي الوطنيين ومساعدتهم للمباسبين ضد الأمويين ، فالأهالي الوطنيون لم يشتركوا في المنازعات الخلافية من قبل ولكنهم لمبوا هنا دورا لا يففل أثره ، فتهيأت بذلك الظروف للمباسبين ، كي يتموا نصرهم ضد الأمويين ، وكي ينشروا دعوتهم في مصر .

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة في صفر سنة ١٢٧ هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص بن الوليد الحضرمي ، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان ، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها^(١) وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هذا كان من عرب الجنوب ، أو من اليمنية الذين كانوا في ذلك الوقت في عداء مستحكم مع المضربة أى عرب الشمال المواليين للخليفة .

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلالة مصر ، وولى على الخارج عيسى بن أبي عطاء ، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأجلى مظاهرها ، كما تتجلى حالة الفوضى التي وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسبية شوطا بعيدا وسط تلك الفوضى الشاملة التي عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك . فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوى على الاتحاد مع القيسية أو المضربة ضد اليمنية ، فكان طبيعيا أن يثور اليمنيون في مصر ضد سياسة الخليفة . لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر في ١٢ من جمادى الآخرة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١

سنة ١٢٧ هـ يأمر بحل الفرق التي كان حفص بن الوليد^(١) قد جندها على أن حسان لم يكده يستقر في ولاية مصر حتى تار قواد الفرق التي جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد^(٢). وكان هذا في الواقع نزاعا بين اليمنية والمصرية ؛ إذ كان اليمنيون يثورون ضد عامل مروان بن محمد الذي كان يهيم موالاة المصريين ، على أن الذي شجعهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التي سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة في ذلك الوقت مشغولا محاربة الخارجيين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب ، حتى إنه عجز عن عمل أى شيء ضد الدعوة العباسية .

ويظهر أن الدعوة العباسية في مصر كانت في ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا . إذ أرسل ثابت بن نعيم الجذامي — وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد — كتابا إلى حفص بن الوليد يدعوه فيه إلى خلع مروان ابن محمد . كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذي خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم^(٣) . والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجيين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فنزل على رغبتهم وأتجه إلى الشام ليلحق بمروان ، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما . كذلك أخرج الثأرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبي عطاء . وولى الثأرون عليهم حفص بن الوليد^(٤) . على أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة

(١) الكندي ص ٨٥

(٢) الكندي ص ٨٥

(٣) الكندي ص ٨٥ — ٨٦

(٤) الكندي ص ٨٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠١

وأن طاعة الخليفة واجبة . ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندي^(١) إذ يذكر أنه
ولى مصر في هذه المرة كرها وأن قواد الجند هم الذين أجبروه على ذلك .

وفي تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبي من إفريقية إلى مصر
وكان أهلها قد أخرجوه منها ، فنزل بالجيزة . وعند ذلك كتب مروان إلى
أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم . ولكن المصريين عصوا أمر
الخليفة مرة أخرى ، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من القسطنطينية إلى الحوف
الشرقي ، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧ هـ حتى
أوائل سنة ١٢٨ هـ^(٢) .

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره في مصر لا يكون
إلا بالقوة ، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها في المحرم سنة ١٢٨ هـ
وولى عليها حوثة بن سهيل الباهلي وزوده بالجيش لقتال حفص وأهل
مصر ، فسار حوثة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص
والجزيرة وقنسرين ، وهنا نجد حفصا مرة أخرى يلبي نداء عقه ولا يستمع
لنداء المصيبة القبلية حين اجتمع إليه الجند وطلبوا منه أن يمنع حوثة من
دخول مصر ، إذ أبي عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبي الجراح الجرشي بشر
ابن أوس الذي أرسله حوثة ريثما يحضر إلى مصر^(٣) .

ولما دخل حوثة أرض مصر يصحبه الجنود ، خشى أهل مصر منه ،
فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمي يسأله الأمان فلقيه بالبريش وأجابه
إلى ما طلب ، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان فخرج إليه حفص بن

(١) الكندي ص ٨٦

(٢) الكندي ص ٨٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) الكندي ص ٨٧

الوليد في وجوه الجند ، إلا أن حوثة لم يعبأ بالأمان الذي أعطاه إياه فأمر بالقبض عليهم . ثم سار إلى الفسطاط في ١٢ من المحرم سنة ١٢٨ هـ . وعقب دخول حوثة الفسطاط بحث في طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمينيين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم ، ومنهم حفص بن الوليد ، وذلك سنة ١٢٨ هـ (١)

ولم يكد حوثة يتخلص من المينة في مصر ويمهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز . فعندما قام عبد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة ، قدم إلى مصر داعيته ودعا لمبايعة ، فأجابه نفر من تيجب وغيرهم ، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثة بن سهيل (٢)

وما زال حوثة يمهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١ هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بني العباس (٣)

ولى مصر بعد ذلك المنيرة بن عبد الملك الفزارى في جمادى الأولى سنة ١٣٢ هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، وفي تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسيين في وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة . وكانت مصر البلاد الذي فكر مروان في الحرب إليه عليه يستطيع منها أن يقضى على العباسيين ليسترد سلطانه المهدد بالضياع ، وذلك بما لها من مزايا عديدة من

(١) الكندي ص ٨٨ — ٩١ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥

(٢) الكندي ص ٩٢ ، خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) الكندي ص ٩٢ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥

حيث الموقع والثروة . ويقال إن مروان فكر أولاً وهو بحران في الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويمل شمل جنوده ليحارب العباسيين ، واستشار في ذلك رجلاً من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسرى . فكان ذلك رأى اسماعيل ، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنيين وتحامله عليهم فصرفه عن هذا الرأى ، وقال له يا أمير المؤمنين : أعيذك بالله أن تحكم أهل الشرك في نفسك وحرملك لأن الروم لا وفاء لهم ^(١) . وحين عاود الخليفة سؤاله قال : « الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى ^(٢) مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمهم جميعاً إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر ، فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلاً ورجلاً فتجعل الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرف إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسمة نائية منفردة ^(٣) » وقد صادف هذا الرأى قبولاً لدى الخليفة ، إلا أن مروان عند ما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين في داخل مصر وخارجها ، وكانت النتيجة أن غلب على أمره في النهاية .

لما وصلت الأخبار إلى مصر بانهمزام مروان في موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستعد لمقاومة العباسيين فصادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك في الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع . وقد اخترعت في ذلك الوقت مادة من المقايير

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٦ — ٣٤٧

(٢) استقرى البلاد تتبعها وطاف بها

(٣) الدينورى ص ٣٤٧

تدهن بها المراكب كيلا تؤثر فيها النيران ، ويحدثنا أحد الرواة الأقباط بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهي عدم تأثر المراكب بالنيران إذا مادھنت بتلك المادة ، بل كانت النيران تنطفئ في الحال^(١) . ولا بد أن أهالي مصر الوطنيين ومن بينهم الأقباط قد نالهم بلاء عظيم^(٢) من جراء مصادرة أموالهم واستخدامهم في كثير من الأمور اللازمة لمثل ذلك الدفاع . إلا أن الوالي كان مضطرا إلى ذلك إزاء الأزمة السياسية الخطيرة التي كانت سيتوقف عليها مصير الخلافة الأموية نهائيا . ومن غير المحتمل أن ذلك كان بغضا خاصا للنصارى من جانبه ، كما يظن ساويرس بن المقفع^(٣) .

ومن ثاروا على مروان في مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه في ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكنانى في جمع من قيس ، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشا قوامه سبعة آلاف شخص برئاسة موسى بن المهند ، وفي بلييس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذين طلبوا الصلح ، فأجابهم موسى بن المهند إلى ما طلبوا ، ثم ظفر بعمر بن سهيل وحبسه في القسطنطينية^(٤) . وحسبنا دليلا على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر في تلك الفترة أن يثور على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا الثائر جزء من قبيلة قيس التى كانت موالية لمروان . ولما عزم مروان على السير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمى وهو

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ص ١١٩

(Patr. Orientalis t. V).

(٢) ساويرس ص ١١٨ — ١١٩

(٣) ساويرس ص ١١٨

(٤) الكندى ص ٩٤ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٦

— كما نرى من نسبه — ينتهى إلى عرب الجنوب الذين أصبحوا في عداوة مستحكم مع الخلفاء الأمويين . وقد أرسل مروان على مقدمة جيشه ابنه عبيد الله بن مروان ، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فثاقلوا عنه ولم يقوموا بشيء مما عزموا عليه^(١) ، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ هـ فوجد أن أهل الخوف الشرقي قد أصبحوا من أعوان العباسيين ، كما وجد الأسود بن نافع بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري في الاسكندرية قد صار من أنصارهم ، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشاني بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الاشج مولى بني زهرة بأسوان^(٢) . ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية في مصر .

ونجح مروان في أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يحن ثمار هذا النصر لأن صالح بن علي بن عبد الله العباسي وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلوا إليها بدمه بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس^(٣) أو بمدحيثه بشهرين تقريباً أعنى في النصف من ذى الحجة كما تحدثنا بذلك المراجع المتأخرة^(٤) . وقد زاد الحالة حرجاً في ذلك الوقت ثورة أهل البشمور^(٥) في وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير وإلى مصر

(١) الكندي ص ٩٤ — ٩٥

(٢) الكندي ص ٩٥

(٣) سير الآباء البطارقة ص ١٥٦ ، ١٧٠

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر في عشرين بثونة سنة ٤٦٧ للميلاد ، وأن الخراسانيين وصلوا مصر في يوم ١٩ أيلول . وساورس في الواقع أكثر ثقة من المراجع المتأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتي كانت محفوظة في الأديرة .

(٤) الكندي ص ٩٦ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٧

(٥) إقليم البشمور أو البشرد كما في المراجع العربية : هو المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والمعروفة في التاريخ القديم =

قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج ، فغار بهم عبد الملك ولكنهم هزموه . ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم ، أرسل يمرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم ، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التي ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات ، وتميق حركة الجيوش المهاجمة . وفشلت الجيوش التي أرسلها مروان لمحاربتهم . ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها في ثلاثة أيام ، فهرب جميع أهلها إلى الخيزة أو إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها . ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب في مصر وإحراق ما يستطيع إحراقه من المدن والكوز . وتخريب ما يستطيع تخريبه في الوجه البحرى ، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها في شرق الدلتا . أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل في مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية . ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهائم والفلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجعوا من حيث أتوا^(١) والحق أن مروان فعل ما يفعله معظم المتحاربين عندما تصبح حالتهم الحربية في خطر ويتيقنون أنهم مغلوبون على أمرهم لا محالة فيقومون بتدمير ذخيرتهم وأسلحتهم وكل شيء يصح أن ينتفع به العدو .

= باسم بيكولى Bucolies التي حدثت فيها حرب الزراع في عهد الإمبراطور ماركس أورليوس (G. Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. I. V. p. 87)

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ص ١٦٧ — ١٧٠ (Patro. Orient. V.)

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهد لها من قبل وهي اشتراك الأهالي الوطنيين وتقصدها الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصري حينذاك ، في تلك الحركة التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية . ذلك أن الأهالي الوطنيين لم يشتركوا في المنازعات الخليفية قبل ذلك وإنما في هذه المرة تراءى رحيون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم الأموي .

ظل أهل البشموور على ثورتهم ، بل ساروا إلى القرما لقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطي على العموم^(١) ولم يكن هذا شعور أهل البشموور فقط بل كان شعور القبط على وجه الإجمال ففي ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقدم بدفع المال الذي طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشموور^(٢) . ويحدثنا أحد القساوسة الذين كانوا في السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التي لقىها هذا الرئيس الديني على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا في الضفة الشرقية للنيل ينظرون ما حل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه^(٣) . وهذا يظهر لنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأمويين وأنهم كانوا يأملون في الخلاص على أيدي العباسيين . لم يجحد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقبلا بالجيزة . وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان القساطط بجزيرة الروضة وبالجيزة . وكانت هناك مخاضات في النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها ،

(١) ساويرس سير الآباء البطارقة من ١٧٢ — ١٧٣

(Patr. Orient. t. V.)

(٢) ساويرس من ١٦٠

(٣) ساويرس من ١٧٣ — ١٧٤

ولكن دلم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربية واستولوا بعدها على مراكب مروان التي عبر فيها هو وجنده إلى الجزيرة .

ثم دارت وحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل إلى بوسير^(١) ، وهناك لحق به صالح بن علي العباسي حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٣ هـ^(٢) وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائيا ، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بني أمية في مصر وأسر البعض

(١) بوسير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة في مصر . وهذا الاسم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزيريس . وبوسير هذا مشتق من الاسم المصري القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية . ص ١٨٧) . وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوسير ، فكان هناك بوسير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوسير الصدر في كورة الجزيرة ، وبوسير ددفنو في كورة الفيوم ، وبوسير بنا في كورة سمنود (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٧٦٠) وقد اختلف المؤرخون في السكان الذي قتل فيه مروان . فيذكر الكندي أنه قتل في بوسير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد في كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل في بوسير قوريدس . ويذكر المقرئ في الخطط ج ١ ص ٣٠٤ أبو المحاسن . ج ١ ص ٣١٧ أنه قتل ببوسير بالجزيرة . ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل في أبي صير الملقى الحالية التي تقع الآن في مركز الواسطي في مديرية بني سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عام احتفال سنوي . كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر . وقد اكتشف أخيرا في أبي صير الملقى لإبريق ثمن من الطراز الساساني يرجع أنه كان ملكا له (انظر : زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ٢٧٠) . والأصح أنها كانت بوسير التي في أعمال الجزيرة . وبوسير الملقى الحالية قريبة من الجزيرة وربما كانت ضمن كورة الجزيرة في العهد العربي . وساوريس يذكر أن الخراسانيين عبروا في آخر يوم من أييب أى بعد وصولهم إلى القسطنطينية بفترة أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجزيرة قتلوا مروان (ص ١٨٣ ، ١٨٧) وإذا قارنا ذلك بما ورد في المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسي إلى القسطنطينية بنحو تسعة أيام . نرجح أن قتله كان قريبا من الجزيرة ونرجح أن أباصير هي أبو صير الملقى الحالية لقربها من الجزيرة .

(٢) الكندي ص ٩٦ — ٩٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧

الآخر ، ثم دخل صالح بن علي العباسي القسطنطينية في المحرم سنة ١٣٣هـ وبث برأس مروان بن محمد إلى العراق^(١) . ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم ، تخففوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذي حبسه مروان ، ولما طلب البطريرك من قائد العباسيين في مصر أن يحمي أملاك الكنيسة في جميع البلاد ولا يتعرض لها ، أجابه إلى ما أراد . كذلك أعفى العباسيون البشارة من دفع الخراج ومنحهم مكافآت مالية^(٢) .

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائياً بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد في مصر ، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢هـ وأوائل سنة ١٣٣هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

المرحلة السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية إلى قيام الدولة الطولونية (١٣٢-٢٥٤هـ)

١ - موقف الأمويين والملويين في مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائياً ، فقد ظهر من وقت لآخر بعض أنصار البيت الأموي أو أفرادهم ؛ قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون في القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصرهم من قبل .

ونلاحظ أيضاً أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه انتهاء مطالبة الملويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحكومة القائمة ، فقد كان العباسيون

(١) السكندى ص ٩٧ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٧

(٢) ساويرس ص ١٨٧ - ١٨٨

في نظر الملوين وشيقتهم مفتصين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم .
لذا نجد أنه كلما قام خليفة عباسي ، قام علوي يدعو إلى نفسه بالخلافة .
وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغدر للقضاء على المارضة
الملوية ، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائمه مع الملوين ، وظلت
فرق الشيعة من جانبها تأكيد للدولة العباسية في الحفاء أو تحاربها جهرا إن
أمكن الجهر . والذي يهمنا الآن هو موقف الأمويين والموين بمصر
من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم .

في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) وفي ولاية إبراهيم
ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ — ١٦٧ هـ) نسمع عن
خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموي هو دحية
ابن مصعب بن الأصم بن عبد العزيز بن مروان الذي خرج بالصعيد ، فلما
بلغ ذلك وإلى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه
وكان نتيجة سياسة هذا الوالي التراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب
بلاد الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين . فلما علم
الخليفة المهدي بذلك سخط على الوالي وعزله سنة ١٦٧ هـ^(١) .

ولى مصر بعد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي (١٦٧ —
١٦٨ هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن
موسى بن علي بن رباح الخثمي ، إلى الصعيد لمحاربة دحية . وما لبث هذا
الوالي أن قتل في ٧ شوال سنة ١٦٨ هـ أثناء محاربته قيسا واليمينية الذين ثاروا
ضده في الحوف^(٢) . ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته *

(١) الكنتى ص ١٢٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٩

(٢) الكنتى ص ١٢٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥

بحرب دحية الأموى بالصعيد ، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية ، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر^(١) . وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بزمه عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان أمامه قبل كل شئ أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبإيعامه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه إلى دخول القسطنطينية^(٣) .

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط^(٤) ، وقد تقهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بمدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها — وكانوا من المسالمة^(٥) والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج — يدعوهم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير . وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصمغ ، على أن أهل الواحات مالبثوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على الموالى وتقديعهم على البربر ، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٠

(٣) الكندى ص ١٢٩

(٤) بويط بالضم ثم الفتح قرية فى مصر الوسطى قريبة من ديروط

(٥) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقرئى ج ١ ص ٥٠) أو من

يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط ج ١ ص ١١٠)

وانصرفوا عنه ، فلما علم عبد الله بن علي بانصرافهم عنه أتى ثمانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان^(١) . وقد اتعنى الأمر بأمر دحية وأتى به إلى القسطنطين فحُصِرَ الفضل عنقه وصلب جثته وبُعث برأسه إلى الهادي وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان القضاء على دحية الأموي معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين في مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثأرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة في الكيد للدولة العباسية .

وقد ظهرت الدعوة العلوية في مصر منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨هـ) في أمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ — ١٤٤هـ) قدم إلى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب داعية لأبيه وعمه^(٣) . وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا في خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين ، وفي سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثرت أنصاره في خراسان واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لفصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأي والجاه . ولكن إبراهيم لقي حتفه

(١) البكندى ص ١٢٩ — ١٣٠

(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٦٠ — ٦١

(٣) خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨

كأخيه على يد عيسى بن موسى السباسي أيضا في موقعة باخرا^(١) وذلك في أول ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ .

أما ما كان من أمر هذه الدعوة في مصر فهو أنه لما قدم علي بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه تواني حميد بن قحطبة في الأمر ولم يجد في القبض عليه ، وبث إلى أبي جعفر المنصور يقول إنه أرسل في طلبه فلم يجده . وكان ذلك سببا في سخط أبي جعفر المنصور على الوالي وعزله في ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ . ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة (١٤٤ - ١٥٢ هـ) وفي بدء ولايته كانت دعوة بني الحسن بن علي قد ظهرت في هذه البلاد وباع كثير من الناس لعل بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر . وكاد أمر بني الحسن أن يتم في مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن في ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ فنصبوه في المسجد الجامع أياما^(٢) . فتمدت تلك الحركة كما تحدث في الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠ هـ . وأما علي بن محمد النفس الزكية فقد اختلف في أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبي جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات . وقد حمل عسامة إلى المراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدى فأمنه على أن يصدقه عن علي بن محمد فاعترف بأنه مات في بيته^(٣) وهكذا انتهت تلك الحركة في مصر وقد كان يزيد بن حاتم

(١) باخرا : موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٨)
(٢) الكندي ص ١١١ - ١١٤ ، خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨ ، أبو الحسن ج ٢ ص ١ - ٢
(٣) الكندي ص ١١٥

قد منع أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين فلما قتل إبراهيم
ابن عبد الله العلوي أذن لهم في الحج^(١)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموي الذين بقوا في
مصر كانوا ممن بايع لعلی بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد.
أبناء الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان .

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذي استطاع بعد
خروجه منها أن يقطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة
مستقلة ، ذلك العلوي هو ادريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية .

ففي عهد الخليفة المهدي (١٦٩ — ١٧٠ هـ) خرج الحسين بن علي بن الحسن

ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار
إلى مكة حيث التقى بجيش المباسيين في فخ^(٢) فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا .

وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن مضية بعد كربلاء أشد
وأجع من فخ . وكان ممن ناصر الحسين بن علي في حركته هذه يحيى وادريس

ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وقد هربا قبل هذه الموقعة . أما يحيى
فقد ثار في بلاد الديلم في عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره

من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ إليه
الفضل البرمكي ، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا

بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يحف بعد .

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر
في سنة ١٧٢ هـ ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢

(٢) فخ بفتح أوله وتشديد ثانيه ... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان .

ج ٣ ص ٨٥٤)

مر لإدريس بن عبد الله على مصر في طريقه إلى الغرب في ولاية على ابن سليمان بن علي بن عبد الله العباسي (سنة ١٦٩ هـ - ١٧١ هـ) زمن هرون الرشيد . ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليها بمكانه وقابله سرا ولم يفضح أمره حتى توجه إلى المغرب^(١) . ويقول أبو المحاسن^(٢) بأن واضح ابن عبد الله النصوري الذي كان واليا على مصر زمن المهدي سنة ١٦٣ هـ ، كان على بريد مصر عند ما قدم لإدريس إليها ، وكان يعيل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى الغرب . أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته في خروجه على الدولة العباسية . ولو قبض عليه واليها إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده في مصر لما قامت تلك الدولة العلوية في الغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد .

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد أجامم إلى الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولا سيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كببلاد البربر^(٣) ، والذي يهمننا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التي نالهم على أيدي الخلفاء العباسيين . ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد . ومن أتى إلى مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة رضي الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وزوجة اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هارين من

(١) الكندي ص ١٣١

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٠

(٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٨

اضطهاد العباسيين ، وقيل إنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي عند موته سنة ٢٠٤ هـ وتوفيت في شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ^(١) وقبرها لا يزال من المقابر المشهورة بالقاهرة ، يتبرك المسلمون بزيارتها ونعرف أن في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة خشبية عليها كتابة تاريخية من قبر السيدة نفيسة ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها في شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين^(٢) » ولم نسمع بأن أحداً تعرض للملويين في مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ) ، وكان يفيض الملويين ، فأرسل كتاباً هو وابنه المنتصر - صاحب إقطاع مصر حينذاك - إلى والي مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ - ٢٣٦ هـ) يأمره بإخراج آل علي بن أبي طالب من مصر فأخرجوا من القسطنطينية في رجب سنة ٢٣٦ هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة في شوال من سنة ٢٣٦ هـ^(٣) ويذكر المقرئ^(٤) أن الذين بقوا في مصر من الملويين اضطروا إلى الاختفاء .

أصبح الملويون والشيعة في مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . وقد عمل الوالي يزيد بن عبد الله على استئصال

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١

(٢) (Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. 1. p. 128).

(٣) السكندی ص ١٩٨ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو الحسن ج ٢

ص ٢٨٣ - ٢٨٥

(٤) خطط ج ٢ ص ٣٣٩

شأنهم فعاقيهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أفيح وجه^(١) .
ولما قتل التوكل في شوال سنة ٢٤٧ هـ وبويع ابنه المنتصر بالخلافة
أرسل إلى يزيد بن عبد الله يقره على ولايته بمصر^(٢) ثم ورد كتابه إلى يزيد
بالأيقبيل^(٣) علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى
طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن
كانت بينه وبين أحد من الطالبين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه
فيه ولم يطالب ببينة^(٤) .

توفي الخليفة المنتصر في شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ وبويع المستعين
بالله في شهر ربيع الآخر . وفي خلافته علم يزيد بن عبد الله بأن رجلاً يقال
له محمد بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بويع له ، فأخذه فاعترف
بذلك كما اعترف بمن يابعه ، فأخذ بعضهم فصرخوا بالسياط ثم أخرج العلوى
في جمع من آل أبي طالب إلى العراق في شهر رمضان سنة ٢٤٨ هـ^(٥) .

خلع المستعين من الخلافة في المحرم سنة ٢٥٢ هـ وبويع المعتز (٢٥٢ -
٢٥٥ هـ) . فاضطربت الأمور في مصر لاضطراب أمر الخلافة^(٦) بسبب
تحكم الأتراك في شئون الدولة . والأتراك كما نعلم كانوا في البداية من الرقيق
الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً ، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ

(١) الكندى ص ٢٠٣ ، خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو المحاسن ج ٢
ص ٣٠٩

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٣

(٣) قبيل وقبيل قبيلة . ضمن والترنم ، قبيل المزارع الأرض . جملة
يلتزمها بقدر . وقد تحدثنا عن قبالة الأراضى سابقاً .

(٤) الكندى ص ٢٠٤ ، المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩

(٥) الكندى ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

أيام الخليفة المعتصم الذي أكثر من شرائهم ، إذ رأى فيهم قوماً أشداء
يميلون إلى الحرب ، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست
لهم عصبية العرب ، وإذا خصهم أحد بمنحة وعطاياها فلا يمرقون رئيساً إلا
هو ، وقد بلغ من قوة نفوذهم في عهد المعتصم نفسه أن اضطر إلى مفاداة
بنفاد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حاضرة جديدة له ولجند الأتراك هي
سامرا (٢٢١ هـ) ليكون بعيداً عن الجند العربي والفارسي بيقداد ، ثم لتخوفه
من أن يصطدم الأهالي بالأتراك^(١) . على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على
مر الزمن في معامع السياسة ، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤا من الخلفاء ،
وأصبح بيدهم القوة المدنية والحربية في الدولة .

وكان هذا إيذاناً باضطراب الأحوال في الأقاليم المختلفة في الدولة الإسلامية
كما كان فرصة لدوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن
بينهم العلويون . ففي خلافة المعتز ثار في الإسكندرية جابر بن الوليد الدجلي
في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ هـ ، واشتد أمره وقويت شوكرته وبسط سلطانه
على بلاد كثيرة من الوجه البحري وجبى منها الخراج ، ولم يستطع يزيد
ابن عبد الله والي مصر إذ ذاك أن يجمع حركته ، فأرسل إليه للخليفة نجدة
بقيادة مزاحم بن خاقان الذي قدم من المراق في عسكر عظيم ، (رجب سنة
٢٥٢ هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به في النهاية ،
ولما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦

١٧ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣١٩ ، الدكتور زكي محمد حسن ،

الإسلام في مصر ج ١ ص ٢٤ — ٢٥

ع : القرن

عن امرأة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلا منه (ربيع الأول سنة
والذي يهمننا في حركة جابر بن الوليد ما كان من انضمام أحد
تلك الحركة ، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن
ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان يقال له ابن
هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان ، أحد
وأخرج إلى العراق في ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ . وفي ولاية
على مصر (ربيع الآخر - رمضان سنة ٢٥٤ هـ) خرج
بالصعيد وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسما
ابن الحسن بن الحسين بن علي وكان يعرف باسم بقا الأ
أصحاب أزجور فقرئ مات .

كذلك خرج من العلويين بقا الأصغر واسمه أحمد بن
ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة في موضع يقال له الك
في شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ ثم سار في جمع إلى الك
على يد أحمد بن طولون وقتل في الحرب وأتى برأسه إلى الك
سنة ٢٥٥ هـ^(٣) . كذلك ثار بصعيد مصر سنة ٢٥٣ هـ أحد ا
ابن الصوفي العلوي ، ودخل إسنا في سنة ٢٥٥ هـ فنهبا و
إليه أحمد بن طولون جيشا لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوي
الديانة النورية حيث قضى فيها بقية أيامه^(٤) .

(١) الكندي ص ٢٠٥ — ٢١٠ ، خطط المقرئى

أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٢٩

(٣) الكندي ص ٢١٢ ، المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩

(٤) الكندي ص ٢١٣ — ٢١٤ و Les Tulunides : n

ومن ذلك نرى كيف تتابعت حركات العلويين في مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسي . فكان اضطهادهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم ينعهم من الخروج علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا ، عليهم بناولون حفلا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها . كما شجعهم على الخروج في تلك الفترة أيضا ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد الأتراك .

ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون ، على أن يلي الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلي المأمون من همدان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه^(١) .

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته في تنفيذ عهد الرشيد^(٢) ، فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى ، وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين في سنة ١٩٨^(٣) وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل في مبدأ الأمر في مرو عاصمة خراسان .

كانت خلافة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) ، أو بعبارة أخرى فترة

(١) الطبري ج ١ ص ٥٣ ، ٦٩ - ٧٠ و ٧٣ ، أبو الحسن : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨١ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٠

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٤

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١٣٠ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ -

النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب في جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ولم تنته تلك الفوضى باعتراف المأمون عرش الخلافة في سنة ١٩٨ هـ ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة في أنحاء الدولة ، ثورات من جانب العلويين ، وأخرى من جانب الأمويين الذين استفلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالوا هم أيضا حظا من السلطان .

وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت في تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات في الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا في ذلك إلى حد ما ، واستطاع بعض الأندلسيين في تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر في تلك الفترة يكاد لا يربطها شيء بالحكومة المركزية الإسلامية .

لما ولى الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ^(١) وقد بدأ اضطراب الجند في مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثائرين عليه ، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر ، ثم أخذ بعد ذلك في جمع الخراج ، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بغداد ، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم^(٢) . وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التي حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمرة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤ هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثة بن أعين ، الذي قدم من بغداد على رأس جيش قوامه ألف من

(١) في النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البجراح

(٢) الكنتى ص ١٤٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤١

الجنود أفرس؛ وبزل بلبيس . وهناك اتفق معه أهل الجوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج ؛ ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال والي ، فبعث حاتم لمحاربتهم جيشا أفلح في هزيمتهم^(١) . ثم عزل الأمين حاتم بن هرثة في جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ . ولعل سبب ذلك أن والده هرثة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين . وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائي . وكان جابر هذا لينا محببا إلى الناس من العامة والخاصة .

وقد ظهر الاضطراب في مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية المهد . ففكر فريق من الجند في خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السري بن الحكم بن يوسف فبعث إليهم والي مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن . ولكن السري بن الحكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين^(٢) . وقد أتى السري إلى مصر زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والي مصر حينئذ (١٨٢ — ١٨٧ هـ) . ويقال إنه كان حامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامه في خلع الأمين^(٣) ، وقد شجع السري بن الحكم على القيام بمحركته هذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين^(٤) .

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا ، ثم ورد كتاب قائده هرثة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكاف وكيلا على

(١) الكندي ص ١٤٧ ، أبو الحسن ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) الكندي ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) الكندي ص ١٤٨ .

(٤) أبو الحسن ج ٢ ص ١٥٠ .

ضياح هرثة بمصر — يدعوهم إلى الدعوة للمأمون ، فجمع الجند في المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابهم فرفع عليهم منهم فأعطاهم عباد رزقا يسيرا وبايعوا للمأمون . وكان خلع الأمين بمصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وثار الجند على الوالى جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر في رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون (١) .

ولما علم الأمين بخلمه في مصر وإخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس — وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف — يبلغه اختياره إياه واليا على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم في مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس ، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى النسطاط لمحاربة عباد ، إلا أن عباد سرعان ما حفر خندقا حول النسطاط للدفاع منها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق في آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧ هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما ، فرأى عباد أن يحاربهم في الحوف فأرسل إليهم جيشا بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى في ذى القعدة سنة ١٩٧ هـ فانهزم الجروى وبمضى في قومه من لحم وجذام إلى فاقوس (٢) . وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له : « لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض ؟ » . فصادف ذلك هوى في نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بث عماله لجباية الخراج من مصر السفلى . وهكذا ترى أن النزاع في مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة .

(١) الكندى ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الكندى ص ١٤٩ — ١٥١ .

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى القسطنطينية لمحاربة عباد في الحرم سنة ١٩٨ هـ ، فمعد عباد للسرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتل الفريقان ، وفي تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين في الحرم وبيعة المأمون فتفرق أهل الحوف ، ثم عزل المأمون عبادا في صفر سنة ١٩٨ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعي^(١).

ساد الاضطراب في مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون للخلافة ، بل تطور الأمر في هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة ، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها .

ومما يدل على اضطراب الحالة في مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالي في بضعة أسابيع^(٢). وقد عزل المأمون المطلب ابن عبد الله عن ولاية مصر في شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف ، وولى مكانه العباس بن موسى ، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو ، فقدم عبد الله إلى مصر في شوال من هذه السنة ، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبد الله وزجه في السجن . وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقاتلوه غير مرة ، حتى هزموه في النهاية وأخرجوه من مصر ، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم في الحرم سنة ١٩٩ هـ^(٣).

(١) الكندي ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الكندي ص ١٥٣ - ١٥٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ .

حدث كل ذلك ووالى مصر نفسه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حدث لابنه عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل بلبس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن والى الذى عينه الخليفة ، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام والى الذى انتخبه الجند ، ومن هذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريبا .

بعد موت العباس ، كاتب المطلب أهل الحوف فبايعوه ، فولى على الوجه البحرى يزيد بن خطاب الكلبي ، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تنيس وأمره بالشخص إلى الفسطاط^(١) ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يخذع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر ، فالمسألة لم تعد تتمصل بالحكومة المركزية فى بغداد ، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر ، والجروى لا يرى نفسه أقل من والى كفاية . وبعد قليل نرى السرى أيضا ينضم إلى زمرة الطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملكا وراثيا فيها ، كل هذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاء الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب ، وإزاء هذا بعث المطلب بوالى على تنيس ولكن الجروى أخرجه منها ، فبعث إليه السرى ابن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه ، إلا أنه أراد القدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه ، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تنيس حيث سجنه بها

(جاءى الأولى سنة ١٩٩ هـ) ويظهر أن بلاداً عدة في شرق الدلتا دخلت في حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل محديه قوة الوالى . فبعد أن سجن السرى بن الحكم ، ذهب لقائلة يزيد بن الخطاب ، حامل المطلب على الوجه البحرى ، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشاً لمحاربه بقيادة ابن عبد النفار الجمى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد النفار وذلك في أول رجب سنة ١٩٩ هـ^(١) .

هزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وهاهده على أن يطلق سراحه ويدكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر ، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب ، فهاهده السرى على ذلك . وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند ، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب . وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر . فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة في رمضان سنة ٢٠٠ هـ .

وعقب ذلك ولّى السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند في مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ^(٢) . وقد أدرك الماصرون من المصريين والوطنيين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة ، فيذكر ساويرس^(٣) نقلاً عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور في بغداد وقام الخارجون بحماية الضرب لآقتهم . ومن بين هؤلاء الخارجين عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا من شطونف إلى القرما ،

(١) الكندى ص ١٥٧ .

(٢) الكندى ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٣) سير الآباء البطارقة ص ٤٢٨ (LX) .

والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان .
أما غربيه الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها
فقد ملكها قبيلتا غلم وجذام .

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس ،
فالجرى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية فى شرق الدلتا ، كما كان
صاحب الفضل فى تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من
المطلب بن عبدالله ، إلا أنه لى يتخلص من المطلب ، أوجد له منافسا آخر
فى شخص السرى ، الذى سرطان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة
الفعلية فى مصر كلها ، فبعد أن كان الجرى والسرى يحاربان لأجل الخليفة
المأمون ، أصبح كل منهما يحارب الآخر ، وهذا أدى إلى النزاع بين
الجرى والسرى نزاعا متواصلا فى السنين التالية ، بل إن هذا النزاع استمر
بين أولادها بعد وفاة الاثنين .

أما منطقة غرب الدلتا ، ونمى منطقة الاسكندرية بوجه خاص ، فقد
خزجت عن سلطة وإلى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ هـ -
١٩٨ هـ) إذ تقلب بهلول اللخمى على الاسكندرية فى ولايته . فلما ولى
المطلب بن عبدالله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ولى على الاسكندرية ،
حديث بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معارية بن حديث ، فثار ضده
بنو مدحج بالاسكندرية ، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهزم
هرون أمامهم (١) .

ولما ولى المطلب بن عبدالله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجند
(سنة ١٩٩ هـ - ٢٠٠ هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هيرة

(١) الكندى ص ١٥٣ .

ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبد الملك بن محمد
ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي يعرف باسم عمر بن هلال^(١)
فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل
ابن عبد الله^(٢)

في تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد رست عند الاسكندرية .
وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع
الناس ، ولكن ولاية مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها^(٣) . أما
في هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وإنما خرجوا من وطنهم
مطرودين وذلك في عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموي على أثر وقعة
الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ^(٤) . فرسا فريق منهم بالقرب من
الاسكندرية وكان عددهم حوالي ١٥٠٠٠ شخص إذ استثنينا النساء
والأطفال^(٥) .

لما عزل عمر بن هلال ، كتب إليه عبد العزيز الجرجسي يأمره بالدعاء
فيها وبإخراج واليها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بداً من استدعاء
هؤلاء القرطبيين ليساعدوه في ذلك ومرعات ما لبوا طلبه واستطاع أن
يخرج واليها — الفضل بن عبد الله — ويدعو للجرجسي بالاسكندرية . إلا
أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى

(١) يذكر الكندي أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر القرظي في المخطوط

١ ص ١٧٢ أنه عرف باسم عمر بن ملاك .

(٢) الكندي ص ١٥٧ ، خطط القرظي ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) الكندي ص ١٥٨ ، خطط القرظي ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠ وأبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٨ .

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. t. I. pp 296-300

Dozy : op. cit. p. 300. (٥)

مراكبهم بعد أن قتلوا منهم قرأ ، وأُقلِّموا عليهم الفضل ثانياً^(١) .
 ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبره
 ابن الصباح فصار إليه عمر بن هلال في شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، فزله
 المطلب وولاه أبا بكر^(٢) بن جنادة بن عيسى المافرى^(٣) . ولما انتصر السرى
 ابن الحكم على المطلب وولى مصر في رمضان سنة ٢٠٠ هـ بإجماع الجند ،
 سار عمر بن هلال إلى أبي بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا
 للجروى بها ، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين ، فلما علم الأندلسيون
 بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه ، إلا أنه لم يعاملهم في تلك المرة
 كما عاملهم أولاً إذ بلغه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية
 إلى مراكبهم^(٤) .

حدد الأندلسيون على ابن هلال ، وظهر في الاسكندرية في ذلك الوقت
 طائفة تعرف بالصوفية^(٥) « يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر » فبازعوا ،
 ومارضون السلطان في أمره واتخذوا رئيساً لهم رجلاً منهم يقال له أبو عبد
 الرحمن الصوفى ، وقد اتحد الأندلسيون مع هؤلاء الصوفية كما تقووا بقبيلة لخم
 وكانت أقوى من في ناحية الاسكندرية ، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا
 لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله في ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ^(٦) .
 وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الإندلسيين واللتخمين إلى عداوة

-
- (١) الكندى ص ١٥٨ ، خطط القرزى ج ١ ص ١٧٢ .
 (٢) في خطط القرزى (ج ١ ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة .
 (٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط القرزى ج ١ ص ١٧٣ .
 (٤) الكندى ص ١٦١ — ١٦٢ ، القرزى ج ١ ص ١٧٣ .
 (٥) يذكر آدم مثر في كتابه المضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٤ أن أول ظهور
 الطوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ وذلك في مصر مهد الرهبة المسيحية .
 (٦) الكندى ص ١٦٢ ، القرزى ص ١٧٣ .

ووقت الحرب بينهم . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين القرنيين جردوا سيوفهم وقتلوا من الأندلسيين نحو ثمانين نفياً ، فلما علم الأندلسيون بذلك بعد انتصارهم على اللخميين خرجوا لقتال كل من لا قوه من أهل الاسكندرية ، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عنروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين^(١) .

أصبح الأندلسيون أصحاب السلطة الفعلية في الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتناكد سلطانهم عندما هزموا اللخميين وملكوا الإسكندرية عنوة في ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ^(٢) ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي ، إلا أن الأحوال في الاسكندرية اضطربت في عهده وعم القتل والنهب فيها فمزله الأندلسيون عنها وولوا عليها رجلاً منهم يعرف بالكفاني^(٣) وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين ، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهي كلها مستقلة عن الخلافة .

بلغ الجروى مقتل ابن هلال وما فعله الأندلسيون بالاسكندرية فساد إليها في خمسين ألفاً وحاصرها وكاد يفتحها في المحرم سنة ٢٠١ هـ ولكن السرى خشي ازدياد نفوذ الجروى فبعث عمرو بن وهب الخزاعي على رأس جيش إلى مقره في تينيس ، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تينيس حيث أخرج جيش السرى منها . ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروى والسرى إلى نزاع علني بينهما .

(١) ساويرس : سير الآباء البطارقة — ص ٤٣٠ — ٤٣١

(٢) atr. Orient. t. X)

(٣) السكندى ص ١٦٣ .

(٤) السكندى ص ١٦٣ — ١٦٤ ، خطط القرينى ج ١ ص ١٧٣ .

وربما خشي الاندلسيون على مصيرهم فأرأوا أن يتقووا بانضمامهم إلى
الوالي ، لذلك تزام يدعوون في الاسكندرية للسرى بن الحكم سنة ٢٠١هـ (١)
على أن السرى مالبث أن اختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ،
وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر ، فبايعهم الجند على القيام ضد السرى
وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب
ابن جبريل البجلي على مصر ، فلم يكن من السرى إلا الرضوخ لهم وذلك
في ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السرى في هذه المدة ستة أشهر (٢)
أمر سليمان بن غالب السرى بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى
اخميم . على أن السرى مالبث أن تقوى ثانية بانضمام بني مدليج وكثير من
الناس إليه . فسار بهم يريد القسطنطينية ، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل
إليه جيشا لمحاربتة قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السرى وأسر هو
وابنه ميمون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى اخميم وسجنهما . وذلك في جمادى
الأولى سنة ٢٠١هـ (٣) ، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السرى بعد
أن ظفريه ، وربما دعاه إلى هذا التصرف خوفا من أتباع السرى ومن
نورتهم ضده ، وما لبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب
وذلك لتقديمه أتباعه وبطائنته عليهم ، وانتهى الأمر بأن خلعه الجند من
ولاية مصر في شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجزيرة (٤) . بعد
عزل سليمان ، ولي السرى بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه في هذه المرة

(١) الكندي ص ١٦٥ .

(٢) الكندي ص ١٦٥ .

(٣) الكندي ص ١٦٦ .

(٤) الكندي ص ١٦٦ - ١٦٧ .

لم يتولاها كالمرّة الأولى بمبايعة الجند له وإنما حولها بأمر من الخليفة المأمون^(١) ويظهر أن اضطراب الحال في الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع في مصر ريثما تهدأ الأمور قولى السرى الذى كان له أتباع كثيرون إذ ذاك .

وحدث في سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضره شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق .

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الذى كان يدبر أمور المأمون في مرو . والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين . ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة إبراهيم بن المهدي عم المأمون في سنة ٢٠١ هـ ويخلمون المأمون . اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ويقال إن الذى أعلمه بهذه الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد تهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه ، فسار المأمون إليها وفي طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ ثم مات علي الرضا في طوس سنة ٢٠٣ هـ . وأخيراً دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ واختفى إبراهيم بن المهدي ، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال في الدولة الإسلامية ويقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسي ومن النفوذ العلوي ، وقد استمطفه إبراهيم بن المهدي فصصح عنه .

أما في مصر فإن أمورها في تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجري في الخلافة فينعكس عليها ما يحدث هناك وانما جليا . لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السري بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولي عهده على الرضا في المحرم سنة ٢٠٢ هـ فيبيع له بها ، على أن الضريين انقسموا على أنفسهم كما حدث في بغداد وسائر الدولة الإسلامية ، إذ كتب إبراهيم بن المهدي إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده ، والثورة ضد السري ، وكان من السهل أن يلتقي إبراهيم بن المهدي أنصارا له بمصر ، لاجبا في خلافته وإنما طمعا من بعض الزعماء في السلطان أولئذ هم من ولاية السري أو غير ذلك من الأغراض المختلفة التي كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة . فقام بالدعوة لإبراهيم في مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالقسقاط ، وعبد العزيز بن الوزير الجروي بالدلتا وسلاطة ابن عبد الملك الأزدي الطحطاوي بالصعيد ، وسليمان بن غالب بن جبريل الذي كان منفيًا إلى الجروي . وعقدوا الولاية لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ، على أن السري حاربه حتى ظفر به ، وقتله في صفر سنة ٢٠٢ هـ^(١) وانضم بعد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروي لعظم سلطانه إذ ذاك ، فسار الجروي إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اسطلىح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروي بها . ثم دعى للجروي بالصعيد أيضا .

وعندما علم الجند بموت على الرضا واتخذوا إبراهيم بن المهدي أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه ، وقد ورد كتاب المأمون إلى السري بذلك وبفسل النار التي دعى عليها لعلي الرضا ففسلت^(٢) . واتهم الاندلسيون أيضا هذه

(١) الكندي ص ١٦٨ .

(٢) الكندي ص ١٧٠ .

الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلعوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى في رمضان سنة ٢٠٣ هـ . على أن القبط بسخا ناروا ضده وانضم إليهم بنو مدلج فهزمهم الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعث الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لمهاصرتها (١) . وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال ؛ إذ يذكر ساويرس (٢) أن الجروى كان يذاب على قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن في الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كي لا يبيعوا بسره . وكذلك جمع الجروى قبح أرض مصر جميعها ووضع في الأهراء تحت تصرفه ، حتى نذر القمح وعن وجوده ، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولا سيما بالإسكندرية ، وكان يرى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها .

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً في ذى القعدة سنة ٢٠٣ إلى بلاد الصعيد لاستخلاصها منه ، ففهم سلامة ابن عبد الملك الطحاوى حليف الجروى بالصعيد ، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسل إلى القسطنطينية حيث قتل هناك في المحرم سنة ٢٠٤ هـ (٣) .

وفي تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الاسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالمجانيق وظل على ذلك سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤ هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥ هـ . وانتهى الأمر بأن يقتل الجروى

(١) الكندى ص ١٧٠ .

(٢) سير الأباء البطركية . ص ١٥٥ — ١٥٦ . (Patr. Orient. t. X).

(٣) الكندى ص ١٧١ .

أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر في الفسطاط
في آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ بعد أن ولي مصر ثلاث سنين
وتسعة أشهر .

بويج بولاية مصر بعد السرى بن الحكم ابنه أبو نصر بن السرى ،
ولم يكن معنى ذلك القضاء على المنازعات التي قامت حول ولاية مصر ، إذ
ورث أبناء السرى والجروى نزاع والديهما . فكان بيد أبي نصر من أرض
مصر الفسطاط والصعيد وغربي الدلتا وكان بيد علي بن عبد العزيز الجروى ،
بقية الوجه البحرى بما في ذلك الخوف الشرقى ، وقد وقعت الحروب بينهما ،
ثم اصطالحا على أن يكف أحدهما عن الآخر . وأخيراً توفى أبو نصر في
٨ شعبان سنة ٢٠٦ هـ بعد أن ولي مصر أربعة عشر شهراً^(١) .

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه في شعبان
سنة ٢٠٦ هـ ولم يتعرض كل من عبيد الله وعلي بن الجروى للآخر حتى انتهت
سنة ٢٠٦ هـ ، حين عقد المأمون ولاية مصر لـ خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى
وبعثه إليها في جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله
يعلمه بذلك فاستنعب عبيد الله عن التسليم له واحتج بأن كتاب المأمون قد ورد
إليه بولايته هو ، واستعد عبيد الله لحرب خالد فحفر خندقاً حول الفسطاط
وجند الجنود ، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما
وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين المقام
في مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم^(٢) .
ويظهر أن الأمور في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك

(١) الكندى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) الكندى ص ١٧٣ — ١٧٦ .

الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى في مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولاً من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر عليها ابن الجروى على ما بيده^(١).

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين علي بن الجروى وسببه أن قوماً من أهل الحوف منعوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد علي الجروى ، فأمد بهم طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى في سنة ٢٠٧ هـ فوقت حروب بينهما كان نتيجة أن دخل عبيد الله تنيس ، مقر ولاية الجروى ، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش في ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ^(٢) ، أى أن مصر كلها خضعت لمبيد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين . على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته في مصر السفلى . تحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى^(٣) ، وبينهما كذلك قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على تلك الفوضى التى سادت في مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة ، كادت مصر فى أثناءها تكون مستقلة عن الخلافة ، لا ترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل المال الذى يوليههم وقد تنلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم .

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله علي بن الجروى بالأموال والأنزال وانضم إليه ، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوهُ إلى

(١) الكندى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الكندى ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) الكندى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، خطط القرينى ج ١ ص ١٧٩ .

الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستمتع بحرية فخر خندقه وأعد سفنه وأحكم
أموره وكانت النتيجة أن اشتبك الفريقان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد
وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان . فكتب ابن طاهر
إلى الخليفة المأمون كتاباً يسأل فيه أمان عبيد فأجاب الخليفة إلى ذلك . ثم
كتب عبد الله بن طاهر لمبيد كتاب أمان^(١) أشهد فيه شهوداً من الجند
والفقهاء وأشرف أهل مصر في صفر سنة ٢١١ هـ وخلص عليه ابن طاهر
وأجازه بمشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون^(٢) وبذلك خلصت
معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على
الجمهورية التي أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات .

سار عبد الله بن طاهر في قواده إلى الاسكندرية في بداية صفر
سنة ٢١٢ هـ وحاصرها في شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وصالح
الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة
أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم
ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان ، ورجع ثانية إلى القسطنطينية
في جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ^(٣) .

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة
للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل
بأمورها ، منتهزة فرصة النزاع بين الأمان والمأمون ثم الاضطراب الذي قام
في أوائل حكم المأمون . ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم ،
الخراساني الأصل ، استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكاً شبه

(١) الكندي ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢) الكندي ص ١٨٣ - ١٨٤ ، خطط الميرزى ج ١ ص ١٧٣ .

مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على الماسحة دائماً وعلى الوجه القبلي في الغلب . ونلاحظ أيضاً أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التي استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين والأخشيديين ، أى أنه لم يكن لها أساس قوى في البلاد التي اتخذتها مسرحاً لنشاطها . فهذه الأسرات التي قامت في مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية . ولذا لم يكن من المنتظر أن تتمر طويلاً بعد وفاة مؤسسها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التي كانت لأسلافهم . ويصح أن تعتبر أسرة السرى أول أسرة شبه مستقلة في مصر الإسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة ابن طولون التي استقلت بمصر استقلالاً فعلياً في الواقع وذاتياً في الظاهر .

ج - مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هي إحدى المسائل التي أثارها المعتزلة حين ظهرت بتماليهما كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب .

ولا ينبغي هنا أن نبحث في آراء المعتزلة الدينية وامتداداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية في وقت ما اتخذت الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، وحلت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة في ذلك جميع وسائل القوة والبنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هي المسألة التي ركز فيها الاعتزال في تلك الفترة (٢١٨ - ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو فجر الإسلام - (١٢)

التوحيد وعدم تعدد صفات الله^(١).

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن في سنة ٢١٢ هـ^(٢)، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا في سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بفساد لغزو الروم، إذ كتب إلى والي بغداد إسحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين في خلق القرآن ويماقب من لا يقر بخلقه. على أن المأمون توفي بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سنة ٢١٨ هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المتعمم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) ثم الواصل (٢١٧ - ٢٣٢ هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الإمام أحمد بن حنبل، وقتل البعض الآخر، وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون في تلك المسألة كان العلماء والشعب يمارضون فيها^(٣)، وقد أصبحت كلمة المحنة تسمى اختبار العلماء في القول بخلق القرآن وما لاقوه في ذلك من عذاب^(٤)، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع عاكة. وبهنا ما كان من أمر مصر في هذه المسألة.

في ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ - ٢١٩ هـ) ورد عليه كتاب المتعمم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) في جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن قاضي مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهري وأمن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود، وأن يزل القاضي إن لم يقر بخلق القرآن، وكذلك طلب منه

(١) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٦٥.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٧٩.

(٣) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٥٦ - ١٨٢.

(٤) الرجح نفسه ص ١٦٦.

الا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن^(١). ويظهر أنه لم تقم في مصر في أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن، كما قامت في العراق مقر الخلافة، ولم تتمرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب، وربما أقر المصريون القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هذا شراً كثيراً. فيذكر الكندي أنه حين ورد كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالحنة أحضر هرون بن عبد الله القاضي ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافق على ذلك عامة اليهود ومن عرف بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن ويقبل شهادة من يقر بخلقه^(٢).

ظل هرون بن عبد الله يلى قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة المعتصم في سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم. وولى القضاء بعده محمد ابن أبي الليث الخوارزمي. ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد الخنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدّة، فيذكر الكندي^(٣) أن أمر الخنة كان سهلاً في خلافة المعتصم، « فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها وورد كتابه على محمد بن أبي الليث بذلك وكأنتها نار أضرمت ». فالخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المؤمن، لذا أنجده يرسل إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث يأمره بامتحان

(١) الكندي ص ١٩٣، ٤٤٥ - ٤٤٧، أبو الحسن: النجوم الزاهرة

ج ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) الكندي ص ٤٤٧

(٣) الكندي ص ٤٥١.

الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالحنة ، وعندئذ عارض كثير من المصريين الحنة وثاروا ضدها . ففلت السجون منهم كما هرب الكثيرون .

وقد أمر ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق ، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعي بالمتع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع في مصر حينذاك .

وكان ممن هرب بسبب الحنة أحد علماء مصر المشهورين في ذلك الوقت وهو ذو النون بن إبراهيم الأحمسي لكنه وقع في يد القاضي ابن أبي الليث فأقر بخلق القرآن^(١) ، ومن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي المصري صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنه^(٢) ، فقد حل إلى بغداد وظل محتنسا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك إلى أن توفي سنة ٢٣١ هـ .

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر الحنة في مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات في عهد الخليفة الواثق ففلت السجون منهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم . ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال في العراق . فلما ولي الخليفة المتوكل المباسي وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه الحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ففي شهر جمادى الآخر سنة ٢٣٤ هـ ورد كتاب المتوكل على هريثة بن النصر الجبلي

(١) الكندي ص ٤٥٣ .

(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

نائب مصر إذ ذاك من قبل صاحب إقطاعها إيتاخ (٢٣٣ - ٢٣٤ هـ)
يأمره بترك الجدل في القرآن وبإبطال المحنة^(١) ، ففرح الناس بهذا فرحا
عظيما وعظموا المتوكل ومدحه الشعراء ، وبلغ من الثناء عليه وتمظيمه أن
قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وعمر
ابن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية ، والمتوكل في إحياء السنة^(٢) .
وربما دعاهم إلى هذا ما لاقوه من اضطهاد وتعذيب وضيق زمن المحنة
حتى أولوا الخليفة المتوكل احتراما كبيرا لإبطال تلك المحنة التي كانت سببا
في تفريق كلمة المسلمين .

(١) الكندي ص ١٩٧ ، الهريري : الخطط ج ١ ص ٣١٢ ، أبو الحسن
ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء . ص ٢٣٠ .

الباب الثالث

انتشار الاسلام وتعريب مصر

العرب والقبط

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشار الدين الإسلامي في كافة الأقاليم التي فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية . فدخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تنلب على الأديان التي وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها . ومع ذلك كله فالثابت أن الدولة العربية التي قامت على أساس الدعوة الدينية والتي كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أبداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . ذلك أن القرآن لا يرضى الإكراه للدخول في الدين الإسلامي . وفي هذا يقول تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)^(١) . ويقول سبحانه مخاطباً الرسول : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)^(٢) . وإلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي تفيد هذا المعنى . وقد رأينا العرب في مصر وفي غيرها من البلاد التي فتحوها يخبرون أهالي البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ولم يشترط العرب في تقدير الجزية ، بل راعوا في تقديرها ثروة الفرد ، فالغني لا يجبي منه مثل الفقير أو متوسط

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) سورة يونس آية ٩٩

الحال . ويقول الكونت دى كاستري^(١) « إن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع فأما شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضائير والقلوب بعد أن يكون هو قد بأشر ففتح المداين والأقاليم بمجيوشه التي كان يصلى بها الأمم جريا يحمل الولدان شيئا ولكننا لا نعلم للإسلام مجما دينيا ولا رسلا وأخبارا وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان » .

تلك كانت سياسة العرب الدينية العامة في مصر وفي غيرها من الدول التي فتحوها ، لكن الذي نمنى به هنا هو ما كان من أصرم في مصر . فقد دخل الإسلام فيها لأول مرة بدخول العرب فاتحين . ويلاحظ هنا النقيوسى^(٢) أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد إسلامهم ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سيناء .

وقد أخذ الدين الإسلامى ينتشر تدريجيا في مصر كلما تقدم العهد بالعرب فيها . على أنه وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة وما ذلك إلا تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء ولواتهم الذين يمثلون تلك السياسة . وقبل أن نبدأ في تفصيل ذلك الموضوع يجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف القبط من الفتح العربى .

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ٣٩ — ٤٠

(٢) تاريخ ص ٨٥

كان معظم المصريين في ذلك الوقت من الأقباط الذين تسميهم بعض المراجع « اليمانية » والذين غلب عليهم بعد ذلك اسم الأقباط الأرثوذكس وفيما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف وأفرادا ينقسمون إلى عدة شُعب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربي طائفة الروم المسكانيين أى الذين يدينون بالمذهب المسكاني — وكانوا في عداوة مع الأقباط — وطائفة اليهود . وكان هناك أيضا أفراد من الأقباط يدينون بالمذهب المسكاني أو الخلقدونى ^(١) . ولكن هذه كانت أحوالا شاذة . ونحن إذا تحدثنا عن المصريين في ذلك العصر إنما نتحدث عن الأقباط الأرثوذكس .

كان العرب في فتحهم لمصر يحاربون البيزنطيين لا المصريين . وكان المصريون إذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى أن المؤرخين المصريين المسيحيين في المصور الوسطى يشعروننا بأن انتصار المسلمين هو غضب من الله على الروم . كذلك يجعل لنا من ثنايا كتاباتهم مدى العداوة بينهم وبين الروم . فيقول حنا النقيوسى ^(٢) أن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التي أنزلها بالأرثوذكس والتي كان قبرس الآلة المحركة لها .

كذلك يذكر ساويرس ^(٣) أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة .

لهذا لا نجد إذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجاثرين . على أننا لا نجد في المراجع القديمة ما يشير إليه بعض

(١) ساويرس ص ٢٢٦ — ٢٢٧ (١. ١.)

(٢) تاريخ ص ٨٤ .

(٣) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ (١. ١.)

المحدثين — مثل ميز بقشر Butcher من أن الأقباط استنجفوا بمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم^(١) أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففي المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى . بل لقد كتب حنا النقيوسي^(٢) أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح .

ونحن لا نعرف إذا كان هؤلاء قد انضموا إلى العرب بسبب كراهتهم للبيزنطيين أو بدافع الحماسة لنصرة الدين الجديد أو للسببين معا .
ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين مثل المقرئ^(٤) وأبو المحاسن^(٥) والسيوطي^(٦) أنه كان « بالإسكندرية أسقف القبط يقال له أبو ميامين^(٧) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلق عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو .

ثم يعود ابن عبد الحكم^(٨) مرة ثانية فيذكر أنه عند ما فرغ عمرو ابن العاص من فتح حصن بابليون وعقد الصلح مع القوقس خرج إلى الإسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أسلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق

(١) انظر تاريخ الأمة القبطية وكنيستها للسيدة بوقصر ج ٢ ص ١٠٤

(٢) تاريخ ص ٦٥٠

(٣) فتوح مصر — طبعة المعهد الفرنسي ص ٥٣ — ٥٤

(٤) خطط ج ١ ص ٢٨٩

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٦

(٧) يقصد بالأسقف أبو ميامين هنا البطرك بنيامين الذي كان معاصرا للفتح

(٨) فتوح مصر — طبعة المعهد العلمي الفرنسي ص ٦٦

وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم»
فهذه الروايات تدل على أن القبط ساعدوا العرب منذ دخولهم الأراض
المصرية حتى أعوا فتح مصر . وإن كنا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما
فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت مختفيا في الصعيد وليد
في الإسكندرية . وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين في جند
البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله في حيايتها من العرب لأنه
لم يخلصوا في الدفاع عنها

على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقه
الحياة لأنهم يعرفون أن ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية إلى تبع
أخرى فإنهم لم يكونوا في موقف يستطيعون معه طرد البيزنطيين والعرب
في وقت واحد . وقد حارب فريق من الشعب المصري ممن كانت صنيت
البيزنطيين في صفهم أو ربما حارب معهم منتظرا أن يكون النصر للبيزنطيين
لا للعرب .

فيذكر القريزي^(١) « أنه كان على تينيس رجل يقال له أبو ثور من
العرب المنتصرة فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز إليهم نحو عشرين
ألغا من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع
أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه » وليكن الروح السائدة من جانب
المصريين بوجه عام كانت روح الترحيب بالعرب كأتين من النصوص السابقة
ذلك هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربي ولنبحث الآن كيف كانت
معاملة العرب لهم .

لم يكتف العرب بانتصارهم على البيزنطيين في مصر وإخراجهم منه

فزارهم يتجيبون إلى الأقباط وهم أهل البلاد كي يضمّنوا ولاءهم وإخلاصهم
إذ لم يكن العرب غزاة أتوا للسلب والنهب وإنما كانوا فاتحين يستمرون
البلاد استعماراً منظماً ويعرفون كيف يوطدون مراكزهم في البلاد التي
فتحوها فلم يترك العرب أثراً للمسند في فتوحاتهم إلا ما كان لا بد منه في
كل حرب وقتال^(١).

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر في
عدة أحاديث نذكر منها قوله « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بمصر
فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة » إذ كانت هاجر زوج
إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم كما كانت مارية القبطية
زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضاً^(٢). ولنا نعرض هنا لصحة
هذا الحديث ، فإنه يشهد ، على كل حال ، بموقف المسلمين من القبط في فجر
الإسلام وحين جمعت الأحاديث .

فيبعد أن تم استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية ودخول الجيش
العربي فيها نقل سانوتيوس^(٣) إلى عمرو بن العاص قصة بطرك القبط بنيامين
الذي اختفى هرباً من اضطهاد الروم ولما كان الموضع الذي اختفى فيه الأب
بنيامين غير معروف بالضبط فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً
يقول فيه « الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له المهد والأمان

(١) دى كاسترى : الإسلام ص ٣٥ .

(٢) القرينى ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣ .

(٣) يقول ساويرس عن سانوتيوس « سانوتيوس التمس المؤمن » والتكس
يعني بها الدوق duke . وسانوتيوس هذا كان عميد الأقباط يوم دخول العرب فتول
إدارة شؤون الكنيسة مدة اختفاء بطرك بنيامين . وأحسن إدارتها وجمع كلمة الأمة
بعد أن كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتاً

والسلامة من الله فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبر حالة بيئته وضيافة طائفته^(١) .
وعند ما علم الأب بنيامين بذلك عاد إلى الإسكندرية مسروراً بعد غيبة دامت
ثلاثة عشر عاماً أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء
الفتح العربي إلى أن فتح المسلمون الإسكندرية .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لعودة راعيهم . ولما أبلغ سانوتيوس عمرو
ابن الماص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه معزواً مكرماً فلما مثل بين
يدي عمرو أكرمه وبالغ في حفاوته وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس
ويرعى أحوال الأقباط^(٢) .

وكان من نتائج عودة بنيامين إلى كرسى البطريركية أن رجع كثير إلى
المذهب الأرثوذكسى بعد أن كانوا نبدوه نتيجة لاضطهاد هرقل . كما عاد الذين
كانوا قد اختفوا خوفاً من هذه الاضطهادات^(٣) . وبعد أن تم لبنيامين جمع
قومه من القبط ولم شملهم أبحه إلى بناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس
والأديرة .

ولا عجب إذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعاً . ولا يستبعد أن
يكون القبط قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم
حينما أغاروا على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وقد ذكرنا سابقاً أن أهل مصر
ألحوا على عثمان بن عفان في سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن الماص إليهم لطرد
الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعهم .
وكتب القريزى^(٤) أنه كان بوادى هيب (الذى يقع بين صربوط

(١) ساورس من ٢٣١ — ٢٣٢ (١. ١) .

(٢) ساورس من ٢٣٢ .

(٣) ساورس من ٢٣٣ .

(٤) المخطوط ج ١ ص ١٨٦ .

والقيوم ويمرّف أيضاً باسم وادى النطرون وهو الاسم الحالى له) مائة دير
لنصارى وأنه خرج منه سبعمون ألف راهب^(١) فلقوا عمرو بن العاص
بالطراثة بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب
لهم بذلك أمانا ببقى عندهم .

لم يجد الأقباط إذاً فى العرب عدواً لديّهم ولا لذهبيهم الدينى كما كان
البيزنطيون ، بل كفّل لهم العرب الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم واتباع
مذهبهم الأرثوذكسى . وكما أن روح الإسلام الحقّة هى التى حفزت العرب
إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين فقد كان أيضاً للعوامل السياسية
أكبر الأثر فى حملهم على ترك مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط
محفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين . أى أن الأقباط أصبحوا
يتمتعون بحرية تامة فى الدين كما أصبح لهم نصيب كبير فى إدارة بلادهم
ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى . ولا شك أن القبط حلوا محل الروم
الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها . وقد
رأينا فى الباب الأول كيف كانت نظم الحكم التى اتبعها العرب فى مصر
ولمى أى حد كان الأقباط يتمتعون بإدارة بلادهم .

ونضيف إلى ما ذكرنا سابقاً أنه كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط

(١) طيمى أن هذا العدد مبالغ فيه فإن معناه أن كل دير كان يسع حوالى ٧٠٠
راهب وهذا العدد الكبير يصعب تموينه فى الصحراء . والآن فى العصر الحديث التى
زادت فيه سرعة وسائل المواصلات وتعددت لا يزيد عدد رهبان الدير على ٣٠ أو ٤٠
راهباً كما يجد الرهبان مشقة فى تموين أنفسهم . ولا شك أن الرهبان قديماً كانوا أكثر
من الرهبان الحاليين وربما كانت كثرة عدد رهبان الأديرة حينذاك ترجع إلى فرارهم
من الاضطهادات البيزنطية كما أن المسيحية فى ذلك الوقت كانت هى السائدة فى مصر .
والرجعة كما نظم من أصول المسيحية الأولى

أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى وقد أشار ساويرس^(١) أسقف الأشمونين إلى الكتابين الأرثوذكسيين اثناسيوس واسحق في عهد عبد العزيز بن مروان .

وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء السيجيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى وقد أشار ساويرس^(٢) إلى ظهور رئيسين من المسلمين في بداية العصر العباسى .

ونلاحظ أيضاً أنه في نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً اسمه بطرس على أنه اعتنق الإسلام بعد ذلك^(٣) . وكان حاكم مروط قبطياً اسمه تاوفانس^(٤) . كذلك ولى المأمون حين قدم مصر على مدينة بورة وما حولها قبطياً من أهلها فبنى ذلك القبطى كنائس كثيرة بها^(٥) .

ونلاحظ أن الفتح العربى ساعد أولاً على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة . فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية ، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية . كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة . فمثلاً نجد اسم أنخم بدلا من يانوبوليس Panopolis

(١) سير الآباء البطارقة ص ١٢ . Patr. Orient. t.v.

(٢) سير الآباء البطارقة ص ١٨٨

(٣) ساويرس ص ٥٢

(٤) ساويرس ص ٥٢

(٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢

ص ٥٨ — ٥٩ ، آدم منز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٨٧

وأهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracléopolis والأشونين بدلا من هرموبوليس . على أن هذا كله كان بمثابة تقديم لم يندثر تماما فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أسرها حينما من الدهر ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربى . والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصرى الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة^(١) كما أننا نستعمل فى الوقت الحالى كثيراً من الألفاظ العامية التى ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى اللغة القبطية التى اشتقت منها^(٢) .

وقد كان لوالى مصر حق الإشراف على انتخاب البطارقة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر . ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون والى قبل انتخاب البطررك كما أن البطررك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية^(٣) ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية إذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطارقة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية . ونعرف أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطارقة بعد ما علم أن البطررك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب وتم للوالى ما أراد فمضى إسحق بطركا بدلا من جرجة الذى كان قد انتخب^(٤) .

وقد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ووجدت كنائس أخرى

(١) سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٥٤

— ٢١٩ —

Dr. George Sobhy : The Survival pp. 65-69

(٢)

(٣) ساويرس ص ٢٢ — ٢٣ (t. V.) ، ص ٤٨١ — ٤٨٢ T. X.

(٤) ساويرس ص ٢٣ — ٢٤ (t. V.)

ففي أيام البطرك أغاثون (٦٦١ - ٦٧٧ م = ٤١ - ٥٨ هـ) عمرت كنيسة أبي مقار^(١). ويذكر ابن المييد^(٢) والقريزي^(٣) أن البطرك أغاثون بنى كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية في ولاية عمرو بن العاص الثانية وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في القرن السابع الهجري .

كذلك بنيت أول كنيسة في فسطاط مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها^(٤). ويذكر سميذ بن بطريق^(٥) أنه في ولاية عبد العزيز بن مروان بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة « أبو قير » في داخل قصر الشمع . وقد جدد البطرك إسحق كنيسة القديس مرقس وبنى كنيسة بجلوان^(٦) كذلك بنيت كنائس أخرى في حلوان وذلك في ولاية عبد العزيز بن مروان وقد عهد الوالي بممارتها إلى أغريغوريوس أسقف القيس^(٧) .

ويذكر الكندي^(٨) أن الوليد بن رفاعه (١٠٩ - ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالجرهاء تعرف بأبي مينا . ويخبرنا أبو صالح الأرميني^(٩) عن بناء كنائس عدة في مصر في خلافة

(١) ساويرس ص ٦ . T. V.

(٢) تاريخ المسلمين ص ٥٠ .

(٣) خطط ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٤) ابن عبد الحسك — طبعة تورى ص ١٣٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ٤١ .

(٧) ساويرس ص ٢٤ . t. V.

(٨) ساويرس ص ٤٢ . t. V. وفي معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٢١٥ :

القيس كانت بمصر وقد خربت الآن وكانت في غربي النيل بعد الجيزة

(٩) الولاية والقضاة ص ٧٧ .

هشام بن عبد الملك بوجه خاص وفي الخلافة الأموية بوجه عام كما يذكر لنا كنيسة جددت في عهد الخليفة الأمون ، قام بتجديد عمارتها خدام الخليفة نفسه وهي المعروفة بكنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء^(١)

وقد أذن موسى بن غيسى في ولايته الأولى على مصر (١٧١ - ١٧٢ هـ) للنصارى ببناء الكنائس التي هدمها الوالي الذي سبقه . وفي ذلك يقول الكندي^(٢) « فبنيت كلها بمشورة أليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالوا : هو من عمارة البلاد ، واحتجوا أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبني إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين » وهذا لا يكشف سياسة الوالي إذا المسيحيين فقط بل يبين لنا أن هذين الحجتين في الفقه الإسلامي كانا يقولان ببناء الكنائس وتميرها وبمدان هذا من مظاهر التمييز في البلاد .

وجدد أنبا ميخائيل البطريرك (٧٤٤ - ٨٦٨ م = ١٢٧ - ١٥١ هـ) كنيسة الإسكندرية وأصلحها وبنى غيرها في شرق البلاد وغربها^(٣) .

هذه أمثلة ترينا مدى الحرية الدينية التي تمتع بها الأقباط في ظل الحكم العربي . ويجدر بنا أن نشير أيضاً إلى أن الأقباط ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية التي يمددها لنا القريزي^(٤) في خططه . ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئاً يحد من حرية الأقباط في احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وإن كان ولاية مصر في ذلك العهد لم يشتركوا في الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما كان يحدث .

(١) قبة الهواء هذه هي التي بناها والي مصر حاتم بن هرثمة (١٩٤ - ١٩٥ هـ) فوق سطح المعلم لقيم فيها وموضعها الآن القلعة الحالية تقريباً . أبو الحسن ج ٢ ص ١٤٤ و Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV, p. 65

(٢) الولاة والقضاة ص ١٣٢

(٣) ساويرس ص ١٤٩

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٩

مثلا في عهد الأخشيديين والخلفاء الفاطميين^(١) ولعل السبب في ذلك هو أن مصر كانت جزءاً من الخلافة فلم يحرص الولاة على أن يتقربوا للشعب بعكس الأخشيديين الذين كانوا يتقربون إلى الشعب ليماونهم في استقلالهم عن بغداد كذلك كان الفاطميون يتوددون إلى الشعب كي يتقووا به ضد خلافة بغداد . أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غصاصة في ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبطي . وربما اكتفى ولاة مصر في ذلك العهد بمشاركة الأقباط في الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذي ظل منذ عهد الفراعنة إلى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها . وطبعاً كانت هذه الاحتفالات تختلف من حيث البهجة والعظمة باختلاف الأزمنة ومن أقدم ما نعرفه من هذه الاحتفالات في العهد الإسلامي ما كتبه ابن رسته في كتابه الذي ألفه سنة ٢٩٠ هـ^(٢) .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين^(٤) أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه في شهر بؤونه فقالوا له : « أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها فقال لهم : وما ذلك . قالوا : إنه إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام وأن الإسلام يهدم ما قبله .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ طبعة مصر ص ٢١٢ - ٢١٣ ، خطط القرطبي ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٩ Wiet: Précis t. 11 p. 148

(٢) الأعلام النفيسة ص ١١٦

(٣) فتوح مصر طبعة توري ص ١٥٠ - ١٥١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ، الفلقسندى : صبح الأعشى ج

٣ ص ٢٩٥ وخطط القرطبي ج ١ ص ٥٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٣٥ - ٣٦

فأقاموا بؤونه وأيب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : قد أصبت . إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بنت إليك ببطاقة فأتقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب ^(١) يوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر .

هذه الرواية انفرد بذكرها ابن عبد الحكم ثم نقل عنه المؤرخون . على أنه لا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة إن كانت قد وجدت في عهد الفراعنة وقد ثبت أيضا أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهي إلقاء فتاة مزينة على قيد الحياة في النيل . ومسألة « عروس النيل » معروفة منذ القدم ؛ ولكن المؤرخين الإسلاميين اعتبروها حقيقة لا مجازا . والحق أن المصريين في العصر القديم كانوا يزجون تماثيل النيل بتماثيل عروسه ^(٢) فالمسألة كانت مسألة رمزية لاحقيقية . إذ كان الشعب المصري في كل المصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة إلى نهر النيل الذي يجلب لبلاده الخيرات الواسعة .

(١) عيد الصليب كان يحتفل به الأقباط في يوم ١٧ توت (خطب القريري ج ١ ص ٢٦٦) ويذكر الأستاذ فييت أن المسيحيين جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينيا فكانت الكنيسة تحتفل في يوم ١٧ توت الذي كان يوافق ١٤ سبتمبر قبل الإصلاح الجمهوري في القوم بذكرى إعلاء الصليب القدس Hist. de la Nation Egypt. t. IV. pp. 177-178
(٢) Wiet: Précis t. 11. p. 144

ونعرف أن الأقباط في مصر كانوا يحتفلون بعيد الشهيد في اليوم الثامن من بشنس ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبح من أسابع أسلافهم الموتي ، ولكن هذا العيد أبطل في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٢ - ٧٣٨ هـ) ثم التي نهائيا في سنة ٧٥٥ هـ^(١) .

وفي عهد الولاة الذي نتحدث عنه كان المسلمون يشتركون مع الأقباط في الصلاة من أجل النيل إذا ما أتى النيل ناقصا في موعد فيضانه بحيث تصبح مصر في خطر من قلة المياه ، فكان المسلمون يصلون صلاة الاستسقاء كذلك كان الأقباط يصلون من أجله ففي ولاية حفص بن الوليد الثانية لي مصر من قبل هشام بن عبد الملك حدث قحط بمصر فاستسقى حفص بالناس ودعا الله سبحانه وتعالى وصلى^(٢) . ويذكر ساويرس^(٣) أن المسلمين والأقباط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وقد انتصر المسلمون لليعاقبة القبط على الكنيسة المملوكية فاسترد اليعاقبة أو أخذوا عددا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد أعدائهم المملوكيين . كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيرا من المملوكيين^(٤) بل حدث في عهد قره بن شريك أن فرض على المملوكيين جزية مضاعفة^(٥) .

(١) خطط القريزي ج ١ ص ٦٨ - ٧٠

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩١

(٣) سير الآباء البطركة ص ١٩٤ - ١٩٦ (٤٧)

(٤) انظر سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ وابن السيد :

تاريخ المسلمين ص ٨٣ - ٨٤ .

(٥) Becker: Historische Studien pp. 864-865, Wiet: Art. Kibt p.399

أى أنه أصبح مضيقا على الملكانيين كما ضيقوا هم على الأقباط قبل الفتح .
ولم يتمتع الملكانيون ببعض الحرية إلا في فترات معينة . ففي خلافة يزيد
ابن معاوية استطاع تاوذوروس أحد أتباع المذهب الملكاني في مصر —
بعد أن قدم أموالا طائلة للخليفة — أن يتسلط على الإسكندرية ومربوط
وكل ما يليها كما سيطر على البطرك أغاثون وألزمه بدفع جزية سنوية مقدارها
ستة وثلاثون دينارا سنويا كما ألزم البطركية اليمقوبية بالإفناق على الأسطول^(١)
كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك — على أثر الاتفاق الذي حدث
بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية^(٢) — يرسل إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره
بأن يسلم للملكانيين كنائسهم التي كانت في يد اليماقبة كما نصب بطركا لهم
بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح^(٣) كذلك عندما منح بليطيان
— البطرك الملكاني في مصر — في تطيب جارية للرشيد وهب له الخليفة
مالا كثيرا وكتب له منشورا يسترد كنائس الملكانيين التي تغلب عليها
اليماقبة فاسترد بليطيان من اليماقبة كنائس كثيرة^(٤) .

ولم ينكر أحد زمن الفتوحات الإسلامية التسامح الديني الذي جرى
عليه العرب في معاملتهم لأهل الذمة . وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد
الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما إذ
قال : « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا
ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط بل يحافظون على ديننا ويحترمونه »

(١) ساورس ص ٥ — ٦ (T.V.)

(٢) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV p. 58

(٣) سعيد بن بطريق : التاريخ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن العديم : تاريخ المسلمين

ص ٨٣ — ٨٤

(٤) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ١ ص ٨٣

الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا^(١)

وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحراراً في دينهم وفي ثقافتهم وجعلوا لهم نصيباً وافراً في إدارة بلادهم . على أن الأقباط كانوا عرضة أحياناً لبعض المضايقات التي حملت بعضهم على ترك دينهم كي يتخلصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين . فالعرب كانوا يشعرون بعد هذه الفتوحات العظيمة بتفوق شعبهم على الشعوب الأخرى كما كانوا يعتزون بغلبة دينهم على الأديان الأخرى . ولم تكن هذه النزعة قوية في السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ، ولكنها سرعان ما وضحت بعد غلبتهم على الشعوب الأخرى ، كما حدث للرومان من قبلهم . وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكره القرظي^(٢) عن معاوية بن أبي سفيان فقد أرعنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالولاء والثلث الذين لا ناس المسألة يعني القبط » .

وقبل أن نورد بعض ما كان يحدث للأقباط من مضايقات وشدة يجب أن نقول إن هذه المضايقات التي كانت تقع على أقباط مصر لم تكن دائمة وإنما حدثت في فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحيين في مصر أيام الأمبراطور الوثني دقلديانوس^(٣)

(٢) خطب ج ١ ص ٥٠

(١) Wiet Précis t.11 p. 181

(٣) هول سنز يتصرف في كتابها تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ج ٢ ص ١٠٤ « أن الأقباط منذ الفتح العربي ظلوا يفتقون من العرب من العذاب ويسامون أنواع الظلم والسف وضطهدون اضطهاداً لا ينكر بجانبه اضطهاد دقلديانوس ونيرون » ولكنها بالرغم من قولها هذا لم تذكر حادثة واحدة قام بها العرب ضد الأقباط تقارن باضطهادات دقلديانوس للمسيحيين . وقد عرض الأستاذ ثيبت هذه المسألة في مقاله عن القبط ، في دائرة المعارف الإسلامية ، عرضاً يتناز بالانصاف والدقة العلمية .

(٢٨٤-٣٠٥ م) أو باضطهادهم أيام الإمبراطور هرقل السيجي . كذلك لم تكن تلك المضايقات أيام العرب لتقارن مثلاً باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش في اسبانيا باقية ما بقى التاريخ . ولنستعرض الآن بعض هذه المضايقات في المهد العربي ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر رآه يهتم اهتماماً بالغا بتعرف العلاقات التي كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على أثر ما كتبه البطررك إلى ملكي الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذي كان بينهما . ذلك أن قوماً من أهل السمايات وشوا بالبطرك لدى عبد العزيز حتى ساء ظنه به ولشدة غضبه أمر بكسر جميع الصلبان التي في مصر وكتب عدة رقاع أمر بوضعها على أبواب الكنائس وفيها « محمد رسول الله ^(١) » .

وكان الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان يبي كثيراً من أمور مصر في ولاية أبيه ولكنه كما يقول ساويرس ^(٢) كان مبغضاً للنصارى سفاكاً للدماء وكان يصحب شماساً اسمه بنيامين كثيراً ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى أنه ترجم له الإنجيل باللغة العربية ، وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون إذا كان في هذه الكتب ما يمس الدين الإسلامي بسوء .

أى أن العرب بدأوا ينظرون نظرة شك إلى الأقباط وقد دعاهم إلى هذا عدم معرفتهم للغة القبطية . ويحتمل أن التفكير في جمل اللغة العربية ، اللغة الرسمية في مصر يرجع إلى هذا المهد كي يضطر القبط إلى ترك لغتهم التي لم يفهمها العرب ^(٣) وقد حدث فعلاً أن جملة اللغة العربية لغة الدواوين

(١) ساويرس ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV, p.43

الرسمية في مصر وذلك في سنة ٨٨٧ هـ (٧٠٦ م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك
وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) إذ أمر عبد الله بتدوين
الدواوين في مصر باللغة العربية بصد أن كانت تكتب باللغة القبطية^(١) فجاء
هنا الفصل في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك تنمة لما بدأ الخليفة عبد الملك
ابن مروان في أنحاء الدولة الإسلامية .

ولعل كثيراً من أهل الدمة اضطروا إلى التخلي عن مناصبهم للعرب أو إلى
المصريين الذين تعلموا اللغة العربية . وربما دعاهم ذلك إلى تعلم اللغة العربية كي
يمودوا ثانية إلى المناصب التي فقدوها . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز
(٩٩ — ١٠١ هـ) لإحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف
الصغيرة^(٢) ويحدثنا ساويرس^(٣) عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً
عظيماً أمام الناس ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنايس
من الخراج وحرر المدن التي خربت وأبطل الجبايات^(٤) فعاش الأقباط في
أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن
أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم أما من يريد منهم الاحتفاظ بمهله
فليكن على دين محمد . ولهذا سلم الأقباط ما يهدمهم من الوظائف والأعمال إلى
المسلمين . ويقول الكندي^(٥) أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز « نزع

(١) الكندي . ص ٥٨ — ٥٩ . والمريزي . خطط ج ١ ص ٩٨ وأبو الحسن
ج ١ ص ٢١٠

(٢) Becker: Historische Studien p. 365

(٣) سير الأباء البطركة ص ٧١ — ٧٢ . t.v.

(٤) الجبايات معناها الضرائب المستعدة

(٥) الولاة والفضة ص ٦٩

موازيت^(١) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم .

وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز لهم إسلام كثيرين إذ ذاك كي لا يتركوا مناصبهم . مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيراً بعد وفاته ؛ لأن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة . وظل بعض الموازيت يختارون من القبط . وحسبنا أن إحدى الأوراق البردية المعروفة في هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطي^(٢) .

وقد أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ) في سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبيان في كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التي في الكنائس^(٣) . ولذا نرى ساويرس^(٤) يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله . وقد شمل هذا القرار اللا إيقوني (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان من نتائج هذه الحركة في مصر أن كبرت التماثيل والصلبيان ومحيت الصور ولم تنج في هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب^(٥) .

ويظهر أن تلك الحركة ساءت المصريين كثيراً لأنها لا تتفق ومذهبهم الديني وقد حدث بعد ذلك بنحو مائة عام أن احتج بطرك اليمامة في مصر

(١) موازيت أي رؤساء القرى هي القراءة الصحيحة لهذه الكلمة وليست

موازيت كما جاء خطأ في طبعة كتاب الكندي

(٢) Papyri Schott Reinhardt Inv. 481

(٣) الكندي ص ٦١ . ساويرس ص ٧٣ T.V. ، بخط القرينى

ص ٢٠٠

(٤) سير الآباء البطارقة . ص ٧٢

(٥) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الأبرائية في العصر الإسلامي ص ٨٢ ،

وأحمد تيمور باشا وزكي محمد حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠ — ١٣٦

Wiet : Hist. de la Nation, Egypt. t. IV. pp. 55, 56.

ضد الامبراطور تيوقيل بن ميخائيل (٨٢٩-٨٤٢ م = ٢١٤-٢٢٨ هـ) في مشروعه اللابقوني وناظره فيه^(١).

ويمجد بنا أن نشير إلى أن الامبراطور البيزنطي ليو الأيسوري أصدر قراراً بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد قراره بنحو أربع سنوات أعني في سنة ٧٢٦ م (١٠٨ هـ). ويحتمل أن الدولة البيزنطية كانت متأثرة في ذلك بجارتها الدولة الإسلامية^(٢).

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التي قامت من أجل النزاع حول الخلافة. فعند ما أتى الخليفة مروان بن محمد هاربا إلى مصر، عاث جنده في البلاد فساداً فقتلوا جماعة من رجال الدين ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيراً من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات^(٣) وفي أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط في الإسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادي النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل^(٤).

وعند ما بنى الخليفة المتوكل مقياساً للنيل في جزيرة الروضة (سنة ٢٤٧ هـ) أمر بمزل النصاري عن قياسه، فعين يزيد بن عبد الله التركي (والى مصر من قبله) للإشراف على المقياس أبا الرّداد المستسلم وكان من أهل البصرة ثم قدم مصر وحدث بها. وكان يتقاضى سبعة دنانير كل شهر نظير قيامه

(١) خطط القرزى : ج ٢ ص ٤٩٤

(٢) Michel le Syrien, t. 2 p 491 وأحمد تيمور باشا والدكتور زكي محمد

حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠

(٣) ساويرس ص ١٦٣ — ١٦٤، أبو صالح الأرمي ص ٩٧، ١٠٧ —

١٠٨، ابن العبيد ص ٩٩، خطط القرزى ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) خطط القرزى ج ٢ ص ٤٩٣

بقياس النيل . ولم يزل المقياس في يده حتى توفي سنة ٢٢٦ هـ ثم صار في يد أولاده من بعده حتى عصر الماليك^(١) .

على أن هنالك أموراً كان يجب على أهل اللفة إتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزينهم والدواب التي يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية . ولنستعرض الآن بعض آراء الفقهاء فيما يختص بذلك ثم نرى ما حدث فعلاً في مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أنه ينبغي أن تحتم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف إن سألوا كسرهما وأن يتقدم في أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في مركبه ولا في هيئته وأن يجعل في أوساطهم الزنارات^(٣) مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم ، وبأن تكون فلانهم مضرية^(٤) وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايس^(٥) مثل الرمانة من خشب ، وبأن يحملوا شراك^(٦) ناهلهم مثنية ولا يحذوا على حذو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل^(٧) ويمنعوا من أن يحدوا بناء بيعة أو كنيسة في المدينة إلا

(١) الكندي ص ٢٠٣ والفلقشندى ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط القرينى ج ١

ص ٥٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٢) كتاب الخراج ص ٧٢٠ — ٧٣

(٣) الزنار والزنارة والجمع زنابير ما يشد على الوسط ، أو الحزام الخاص بأهل

اللفة Dozy: Dictionnaire des noms des Vêtements p. 28

(٤) مضرية مخيطة بالقطن أى منجدة

(٥) القربوس جنبو السرج ، أى قسمة القوس المرتفع من قدام القعد ومن

مؤخره . وما قريوسان والجمع قرايس

(٦) الفراك سير النمل على ظهر القدم

(٧) الرحالة السرج من جلود لا خشب فيه والجمع رحائل

ما كانوا صلحوا عليه وصاروا ذمة وهي بيعة لهم أو كنيسة فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم ، وكذلك بيوت النيران ، ويتركوا يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم ، يبيعون ويشترون ولا يبيعون خمرًا ولا خنزيرًا ولا يظهرون الصلبان في الأمصار ، ولتكن قلائسهم طوالا مضربة » .

ويذكر الماوردي^(١) أنه يشترط على أهل الذمة في عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب . أما المستحق فستة شروط أحدها أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بظمن فيه ولا تحريف له . والثاني أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء . والثالث أن لا يذكروا دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه والرابع أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه . والسادس أن لا يمينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم . فهذه الستة حقوق ملزمة فتلزمهم بغير شرط وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيذاً لتفليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً للمهدم .

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيئاتهم بلبس الفيار^(٢) وشد الزنار والثاني أن لا يملوا على المسلمين في الأبنية ويكونون إن لم ينقصوا مساوين لهم والثالث أن لا يسمعون أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزيز والمسيح . والرابع أن لا يجاهدوهم بشرب خمرهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم . والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهدوا بنذب عليهم ولا نياحة . والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٨ — ١٣٩

(٢) الفيار علامة أهل القمة كالزنار للمجوس ونحوه

وهجانا^(١) ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير . وهذه الستة المستحبة لا تلزم بمقد الزمة حتى تشتط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابهم بعد الشرط نقضاً للمهد لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون عليها زجراً ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم » .

هذا هو رأى اثنين من فقهاء المسلمين فيما يجب أن يكون عليه أهل الزمة من حيث زيهم وملابسهم وما يفعلونه ليميزوا عن المسلمين وما يجب عليهم اتباعه إزاء المسلمين وإزاء بناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرناه . وأبو يوسف عاش في زمن الخليفة هرون الرشيد أى عند ما كانت الخلافة العباسية في أوج عزها وقوتها . أما الساوردي فقد عاش في عصر انحلال الدولة العباسية . وعادة تنشأ الأشياء أولاً ثم يأخذ الفقهاء والعلماء في بحثها بحثاً نظرياً بحثاً أو بحثاً نظرياً عملياً . فأبو يوسف عند ما يتحدث عن أهل الزمة إنما يريد أن يتبع الخليفة هرون الرشيد قوله الناتج من دراسات لنظم قد اندثرت ولم تمد الخلافة تعمل بها . فتراه يخاطب الخليفة بقوله : « فر عمالك أن يأخذوا أهل الزمة بهذا الزى ، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الزمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين^(٢) » .

فهل اتبع مع أهل الزمة في مصر هذه الشروط التي ذكرها أبو يوسف والماوردي ؟ عرفنا مما سبق أن عمرو بن العاص في صلح بابلين الأول أمن الأقباط ومن يريد أن يدخل في عهدهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأراضهم على أن يدفعوا الجزية حتى يصيروا أهل ذمة ولكنه لم يذكر شيئاً

(١) العتاق الخيل الأسيلة والهجان الخيل الغير مقسية

(٢) أبو يوسف من ٧٣

فيا يختص بلباسهم وزيههم وما يستحدث من الكنائس وغير ذلك مما ذكره أبو يوسف والماوردي . فلم يذكر الطبري أو مؤرخو مصر الإسلامية شيئاً من هذه الشروط الواجبة على أهل الذمة ضمن العهد الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ولكننا نجد المؤرخين^(١) يذكرون في موضع آخر أن عمرو بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أن يحتم في رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهروا مناطقهم^(٢) ويجزوا نواصيهم^(٣) ويركبوا على الألف^(٤) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليهم الواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم » .

وهالك نص كتاب من نصارى أهل الشام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود وبقبّه زيادات من الخليفة عمر فقد ذكر النويري^(٥) أنه وقف على كتاب « الدر الثمين في مناقب المسلمين ومثالب الشرّكين » تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب ونقل منه نص كتاب أرسل إلى عمر بن الخطاب عن أهل الذمة . فقال : قال عبد الرحمن بن عثمان كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نصارى أهل الشام ومصر . « لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا

(١) ابن عبد الحكم طبع تورى ص ١٥١ ، خطط القريزي ج ١ ص ٧٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

(٢) تنطق وتنطق وتنطق شد وسطه بمنطقة ، المرأة شدت نطاقها على وسطها

(٣) يجزوا نواصيهم يحلقوا نواصيهم والتاسية مقدم الشعر أو الرأس

(٤) أ كلف الحمار بردعته . جمها أ كفة وأ كف

(٥) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٣٣٠ — ١٣٣١ (من المخطوط بدار الكتب)

أن لا نحدث في مدائننا ولا فيا حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ،
ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان في خطط المسلمين وأن نوسع أبوابها
للمارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطمعهم ،
ولا نأوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم عينا للمسلمين ،
ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع
أحدًا من ذوى قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوقر
المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا تشبه بهم في شيء من
ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ، ولا تتسمى بأسمائهم ، ولا تتكفى بكناهم ،
ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ،
ولا نحمله منا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، وأن نجزم مقام رؤوسنا ،
ونلزم زيننا حيث كنا ، وأن نشد الزنابير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ،
ولا نفتح كنفسنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بتواقيسنا في
كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعباننا ولا طافوتنا ،
ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم
ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ،
ولا نطلع في منازلهم ، ولا تملو منازلنا منازلهم . فلما أتيت أمير المؤمنين
عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحدًا من المسلمين ، شرطنا ذلك على
أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه
لكم علينا وضمنناه عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا
ما حل بغيرنا من أهل الساندة والشقاق .

قال عبد الرحمن بن عثمان: «وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أنه متى نقض الذي عهده بمخالفة شرط من هذه الشروط المأخوذة عليهم ، فالأمام غير فيه بين القتل والأسر ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس والزي ولا يتشبهون بهم في أمر من الأمور ويشدون الزناير في أوساطهم ، ويكون في رقابهم خواتم رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا الهائم والطيلسان^(١) . وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الازار وقيل من فوق الازار وهو الأولى ، ويكون في عنقها خاتم رصاص يدخل معها الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ليبقى مشتهراً ظاهراً والآخر أبيض ويركبون الحمار ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبنون بالسلام ويلجئون إلى أضيق الطرق ويمنمون أن يملوا بناءهم على أبنية المسلمين وتجاوز المساواة ، وقيل لا تجوز ، بل يمنمون ، ويحمل الأمام عليها رجلاً يكتب أسماءهم ويستوفى عليهم ما يأخذون به من هذه الشرائط .

وقال أبو هريرة . « أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهدم كل كنيسة استجذت بعد الهجرة ، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عمرو بن محمد فهدم الكنائس بصنماء وصانع القبط على كنائسهم بمصر وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بمكة النبي صلى الله عليه وسلم » .

(١) ولكن من التندر أن ثبت تماماً أن هذا التمييز بين المسلمين وأهل الفتن في الزي يرجع إلى عصر عمر . فإن المراجع التي تغير إلى هنا متأخرة بعض القوم . ولها سجل ما كان متباً في العصر العباسي . ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه التفرقة ظهرت في عصر هارون الرشيد . انظر مادة « غيار » في دائرة المعارف ومادة « قبط » للأستاذ غيث في المرجع نفسه

وهكذا يظهر أنه منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترط على أهل الذمة شروط خاصة أهمها ما يتعلق بزيتهم ولباسهم كي يتميزوا عن المسلمين . كذلك منعوا من بناء كنائس أو أديرة أو صوامع مستحدثة ومن تجديد ما خرب منها .

لكن مؤرخي مصر الإسلامية وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلا أنهم لم يذكروا إلى أي حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة والأرجح أن الخلفاء في فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بنيت في مصر في العهد الإسلامي كما جدد بناء كنائس أخرى . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) أن أول كنيسة بنيت في فسطاط مصر كانت أيام مسعدة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكهوت تقع فتنة بينه وبينهم .

على أننا نجد الخلفاء أو الولاة يأمرن أحيانا بإقفال حانات الخمر وبهدم الكنائس المستحدثة بعد الإسلام . ففي ولاية أيوب بن شرجيل على مصر (٩٩ - ١٠١ هـ) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز^(٢) وفي ولاية علي بن سليمان العباسي في مصر (١٦٩ - ١٧١ هـ) من قبل الخليفة المهدي ثم الرشيد منع الملاهي والخمر وهدم الكنائس المحدثه بمصر .

وكتب الكندي أن نصرانيا بمصر سب النبي صلى الله عليه وسلم في ولاية علي بن سليمان وكان قاضي مصر إذ ذاك المفضل بن فضالة ، فكتب فيه

(١) فتوح مصر طبعة تورى ص ١٣٢

(٢) الكندي ص ٦٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٢٣٨

فجر الإسلام - (١٤)

المفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس رحمه الله يسأله عن قتله فكاتب مالك يأمر بقتله وثم هذا القتل^(١). ولسنا ندري هل كان القضاء مكلفين باستشارة أهل الفتوى أم أن القاضي استشار الإنام في هذه المسألة خوفاً من أن ينفرد برأيه فيها لخطورتها .

وقد تهاون معظم الخلفاء في تنفيذ الشروط التي ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ألزم أهل الذمة باتباعها . كما أصدر بعض الخلفاء شروطاً مثلها بعضها يخص أهل الذمة في جهة معينة وبعضها يخص أهل الذمة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ومن بينها مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب إلى عامل له . « أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلا كسر وعق ، ولا يركبن يهودى ولا نصراني على سرج ولا يركب على إكاف ، ولا تركبن امرأة من نسايتهم على رحالة ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدم في ذلك تقدما بليغا وامنع من قبلك فلا يلبس نصراني قباء^(٣) ولا ثوب خز^(٤) . ولا عصب^(٥) » وقد ذكر لي أن كثيرا ممن قبلك من النصاري قد راجعوا لبس الماهم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام^(٦) والوفر ، وتركوا التقصيص . ولعمري لأن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وهجز ومصانعة ، وإنهم حين يراجعون ذلك

(١) الكندي ص ٣٨٢

(٢) كتاب الخراج ص ٧٣

(٣) القباء — ثوب يلبس فوق الثياب . الجمع أقبية والقباء كالفرجية في أيماننا ويلبس تحته الجبة (Dozy : Dictionnaire des Vêtements p 852)

(٤) الخز — الحرير . ما نسج من صوف وحرير . الجمع خزوز

(٥) العصب — الهامة . والعصبة والعصابة ربما كانت تعني قديماً نوعاً

من الهام (Dozy : op. cit. p. 300-301)

(٦) الخمينية — مجتمع شعر الرأس . الجمع جم ، والجمعة مظلم الشيء أو الكثير منه

ليعلمون ما أنت ، فانظر كل شيء بهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام »
ولا يذكر أبو يوسف العامل الذي وُجّه إليه هذا الكتاب ؛ ولكننا نتبين
منه أن عمر بن عبد العزيز شعر في عهده أن الشروط التي كان أهل الذمة قد
الزموا باتباعها نقضت فأراد إلزامهم بها ثانية . ولا نعرف إذا كانت مصر
في ذلك الحين قد شملها هذا القرار أم لا . ولكن يظهر أن أوامر عمر بن
عبد العزيز شملت أنحاء الدولة الإسلامية وإن لم يذكر لنا مؤرخو مصر
الإسلامية ذلك ، فقد رأينا أن هذا الخليفة أمر بتعطيل حانات الخمر في مصر
كما أمر بعزل الأقباط عن تولى مناصب الدولة ولا نستبعد أن تكون شروط
تمييز أهل الذمة عن المسلمين في زيارتهم وركوبهم قد روعيت تماما في عهده
ولا أدل على مبلغ كراهية نصارى مصر له من تلك الكلمات التي يصفه
بها ساويرس^(١) إذ يقول إنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء
أمام الله .

وقد جاء في الطبرى أن الخليفة هرون الرشيد أمر (١٧٠ - ١٩٣ هـ)
في سنة ١٩١ هـ بهدم الكنائس بالثغور وكتب إلى السندی بن شاهك يأمره
بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم
وركوبهم^(٢) .

وكانت أوامر الرشيد كما يظهر من النص قاصرة على كنائس الثغور
وعلى أهل الذمة ببغداد أى أن مصر ومعظم الدول الإسلامية لم تدخل
ضمن هذا القرار . ولا نعرف إذا كان الرشيد في أوامره هذه أراد أن يجدد
ما يسبب إلى عمر بن الخطاب أو أن ذلك كان بمثابة رد على اعتداء الدولة

(١) سير الأبناء البطارقة ص ٧١ (Pat. Orient. t. V.)

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠

البيزنطية على الثغور الإسلامية ونحن نرجح الرأى الثانى لأن الرشيد عرف بالتسامح ، كما بنيت فى عهده عدة معابد مسيحية فى بيت المقدس على نفقة الامبراطور شارلمان الذى كان محالفا للخليفة الرشيد (١).

ويظهر أن أقباط مصر أو أهل الذمة على وجه الاجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيّق عليهم فى الرأى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدهءه إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز إلا فى النادر . إلى أن جاء الخليفة المتوكل على الله المباسى (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) . ففى سنة ٢٣٥ هـ « أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالة العلية والزناير وركوب السروج بركب الخشب ويكون السروج كهيئة الأكف ، وعلى رؤوسهم القلائس المختلفة الألوان ، وأن تخطى الرقاع على ظهورهم وصدورهم كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى ، وأزر نساءهم عسلى ، وملبس مما يليكهم مثلهم ويعتصموا من لبس المناطق وهدم بيعة المحدثه ، وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسما صير مسجدا وأن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء وأمر أن تجمل على باب دورهم أساطين (٢) وقيل شياطين من خشب مسمومة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يطعمهم مسلم ، ونهى أن يظهرُوا فى أعيادهم وشعائينهم صليبا وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين وكتب الكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك . (٣)

G. Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t.IV. p. 25 (١)

(٢) الأسطوانة : السواد والجمع أساطين

(٣) بيبس الدوادار — زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ ص ١٧٣ ب

— ١١٧٤ وخطوط القرىزى ج ٢ ص ٤٩٤

« ثم أمر أهل الزمة في سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين^(١) عسليتين على الدرايع والأقبية ، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والخيول دون الخيل والراذين^(٢) »
ولم تكن أواخر التوكل جديدة ، وإنما كانت تجديداً لما سبق كما رأينا . فالدميون أزموا قبله بأمور تميزهم عن المسلمين في الزي والركوب وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرنا . ولكن الخلفاء وولاتهم في مصر كانوا يتساهلون في تنفيذها في معظم الأحيان . وقد حدث في عهد هرون الرشيد أن ولي القضاء محمد بن مسروق الكندي ، وتحامل على أهل مصر فأمنوا في الطمن فيه ، ودعوا عليه في المساجد . فوقف على باب المقصورة وصاح قائلاً : « أين أصحاب الأكسية العسلية ، أين ؟ لم لا يتكلم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فا تكلم أحد بكلمة^(٣) » . وربما قصد القاضي بقوله « أصحاب الأكسية العسلية » التحقير من شأن أهل الزمة الذين انحدر منهم المصريون المسلمون .

ولكننا نلاحظ على وجه الإجمال أن هذه الأوامر كانت تنفذ في حين صدورها بدقة ، ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً ، وكثيراً ما كان يتسامح مع أهل الزمة في بناء الكنائس وفي الاحتفال بأعيادهم . بل نجد الخلفاء في عصر متأخر يشاركون أهل الزمة في الاحتفال بأعيادهم الدينية . ومما يشهد بهذا التسامح أننا قرأنا في كتاب أحد بطاركة بيت المقدس بعد المراسيم التي أصدرها التوكل بنحو عشرين سنة ، أي في سنة ٨٦٩ م .

(١) الدراعة والجمع درايع جبة مشقوفة المقدم

(٢) البرفون — الترك من الخيل

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص : ٢٩

(٢٥٥ — ٢٥٦) — ما نصه « إن المسلمين يظهرون كثيراً من العطف نحونا بالسباح لنا ببناء كنائسنا ».

"Multam Benevolentiam ostendunt (Saraceni) in nos, licentiam nobis praebentes aedificandi ecclesias nostras."^(١)

والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب عليهم الشيعة بمزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بعد السيف فأراد أن يتميزوا عن غيرهم في اللباس والزي والركوب وغير ذلك مما يشعر في الوسط الاجتماعي بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم. كما أنهم ، وقد أصبحت البلاد التي فتحوها ملكاً للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ، ويكفهم أن يبقوا على ما وجدوه منها ، وألا يتدخلوا في شئون أهل الذمة الدينية .

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعية والأدبية للمسلمين على أهل الذمة سبباً كما قلنا في أن كثيراً من المسيحيين أقدم على اعتناق الدين الإسلامي ، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحاً ؛ ولكن ذريتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإسلامي ويدمجون في الجماعة الإسلامية تماماً .

وقد كتب المستشرق آدم متر^(٢) أن مسألة ختم رقاب أهل الذمة عادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب المبيد قطعة من الفخار اسطوانية مكتوباً عليها اسم المبيد واسم سيده . وكان اليهود في عهد التلمود يعلون عبيدهم بالحنم على الرقبة أو الثوب . وفي سنة ٥٠٠ بعد الميلاد كان حاكم مدينة الرها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون

Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV. p. 25 (١)

(٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٧٧

رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة
ويظهر ان عادة ختم الرقاب أو الذراع لم تكن مستهجنة ولم تكن
موجبة للعار في المصور الوسطى إذا ما اتبعت مع أحباب الطبقات الوضيعة
ويذكر ابن بطوطة (١) في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)
عند وصفه لمدينة دمياط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج
عنها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع به في قطعة كأغد
يستظهر به للحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .
وهكذا رى أن أهل النمة عوملوا معاملة الطبقات الدنيا . مهما كانت
رتبتهم أو مراكرم في الدولة مما حمل الكثير على الرغبة في التخلص من
تلك المضايقات .

الأقباط والنظام المالي

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترى إلى استقلال مصر استقلالاً منفظاً ،
وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستقلال ، إذ بينما رى
بعض الخلفاء أو ولايتهم يشتط في جمع الضرائب رى البعض الآخر يرى
أن من مصلحة الراعى أن يقصّ سوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلبها .
وحسبنا أن نشير في هذه المناسبة إلى ما ذكره الماوردي (٢) من أن
« الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال
السواد فنهى من ذلك وكتب إليه : لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص
منك على درهمك المتروك وأبني لهم لحوماً يقدمون بها شحوماً » فإن هذا

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٣

مثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا ينجف معينها ويؤثر ذلك على مالية الدولة ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد ، ففدى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٨٩٦ - ٩٠٩ م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخى متولى خراج مصر « أحلب اللد حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم ^(١) » وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة مصر عقب الفتح مباشرة ، فيذكر ابن عبد الحكم ^(٢) عن هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقيبسط : إن من كنتنى كنزاً عنده فقدردت عليه قتلتة . وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما صمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفاً من القتل . ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعاً من الاغتصاب ، وهذا ما نستبعده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة الكنوز احسبان ذلك فى تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة فى أمور الدولة ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية . كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التى بأيدينا .

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سبباً فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعاً معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٣٣١

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٨٣

الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريح عامله على خراج مصر أن يحمل جزية موتى القبط على أحيائهم^(١). وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم. ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هي نسبة نقص الجزية بسبب احتناق الأقباط الدين الإسلامي لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبي من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص في هذه الكلمات :

« يا أبا عبد الله درت اللقعة بأكثر من درها الأول فقال عمرو :
« أضررتم بولدها » ويذكر آخرون أنه قال : « ذلك أن لم يمت الفصيل^(٢) »
ويذكر القرظي^(٣) أن الذي جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجاجم^(٤)
خاصة دون الجراج .

وعندما زاد التحول إلى الدين الإسلامي بلغ خراج الأرض مع جزية
الروم في أيام معاوية بن أبي سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ في أيام هرون
الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالي ٣ ملايين

(١) ابن عبد الحكم . طبعة توري . ص ١٥٤ وخط المقيزي ج ١ ص ٢٧
يقول الماوردي في كلامه عن أهل الذمة والجزية « ومن مات منهم فيها أخذ من تركته
بقدر ما مضى منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً في ذمته يؤخذ بها .
وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته » الأحكام السلطانية ص ١٣٩
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر - طبعة توري ص ١٦١ وخط المقيزي
ج ١ ص ٩٨
(٣) المخطوط ج ١ ص ٦٨
(٤) يقصد بالجاجم هنا جزية الروم

دينار^(١) إذا استثنينا فترات مصنة .

ونشهد الكتاتيب التي دارت بين الخليفة عمرو بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بحماية أموال مصر ؛ فمقد ما بلغ عمرو بن الخطاب أن القوقس جباها قبل عمرو ستة وعشرين مليون دينار وأن عمرو جباها اثني عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطله في الخراج . وهذا ما دار بينهما من الكتاتيب :

كتب الخليفة إلى عمرو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وأنها قد جالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوم وكفرهم فمجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب ، ولقد أكرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وطننت أن ذلك سيأتينا على غير زر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتيني بعماريس تعباً بها لا توافق الذي في نفسي . ولست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ذلت أدرى مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك ؟ فلئن كنت مجزئاً كافئاً صحيحاً إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيقاً لطفاً إن الأمر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . قد علمت أنه لم ينعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالى عليه وتلفف اتخذوك كهفاً وعندي بأذن الله

دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتمطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخلفاء والسلام^(١) .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغتني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفرائعة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فخلبها حلباً قطع ذلك درهما وأكثر في كتابك وأثبت وعرضت ووثبت وعلت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فحث لعمري بالفظلمات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا ، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجترأ على كل مائمه فأقبض عملك فإن الله قد زهني من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخوا والله يا ابن الخطاب لأننا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضباً ولها إزهاها وإكراماً وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقاً ولكني حفظت ما لم تحفظ

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٥٨ — ١٥٩ وخط المقرئ

ج ١ ص ٧٨ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤

ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء
كفت بها علما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقاك ما لا
يجهل والسلام^(١).

ولم تقف المسكبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن الماص فيما يختص
بالخراج عند هذا الحد . فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو
« سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد عجت
من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إلى بينيات الطرق
وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر
أجلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك
الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابي فأجل الخراج فإنما هو فيء المسلمين
وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام^(١) . »

فكتب إليه عمرو بن الماص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن
الخطاب من عمرو بن الماص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله
إلا هو . أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنني في الخراج ويزعم
أنني أعيد عن الحق وأنكب عن الطريق وأني والله ما أرغب عن صالح
ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم فنظرت المسلمين
فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم
عنه والسلام^(١) . »

هذه الرسائل ترينا إلى أي حد كان الخليفة يهتم بخراج مصر وأنه كان
يريد أن يجبي مثلما كان يجبيه الروم من قبل . ولذا نجد أن المصريين سرعان

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ — ١٦١ طبعة توري وخط القرظي

ج ١ ص ٧٨ و ٧٩ و السيوطي : حسن المحاضرة ص ٦٤ — ٦٥

ما عادوا إلى ما كانوا فيه تحت حكم الروم فوقموا تحت الأعباء المالية الكثيرة التي تطلبها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاية والموظفين أيضاً . ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها في العصر الأموي كان أكثر منه في العصر العباسي لأن الولاية كانوا أكثر استقراراً من ولاية العصر العباسي . أما في العصر العباسي فقد اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاية وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان همّ الوالي جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولاً وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً .

ولنستعرض الآن الفترات التي أشد التحول فيها إلى الدين الإسلامي بسبب المشاكل المالية ولنبدأ بولاية عبد العزيز بن مروان الذي كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان في مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) .

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر في مصر . فقد أهم بترقية شئون البلد وأدخل فيها إصلاحات كثيرة . كما عرف بالجود والكرم وكان يقول . « وأعجباً من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ويوقن أن الله يخلف عليه كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع ^(١) » ويقال إنه كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة تحمل على العجل ويطاف بها على قبائل مصر . وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أنجي عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مرقبات كل يوم تمدها ألف قدر ^(٢)
ولا رب أن مثل هذا الشر وغيره يشهد بما كان له من جود وافر على

(١) أبو الحسن ج ١ ص ١٧٥

(٢) الكنتى ص ٥١ - ٥٢

ما فيه من مبالغة صريحة ليست غريبة عند المؤرخين في العصور الوسطى .
وقد بنيت كنائس عدة في عهد عبد العزيز كما عرفنا سابقاً ، كذلك
جدد عبد العزيز بناء المسجد الجامع وزاد فيه ^(١) ، كما أنفق مالا كثيراً
في بناء مدينة حلوان ، يقال إنه بلغ مليون دينار ^(٢) وقد زيدت أعطيات
الجند في عهده ^(٣) كما اشتركت مصر في القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير
وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق والأموال الكثيرة حتى قيل إن
عبد العزيز بن مروان كان يجبي خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل
به يحتاج فيها إلى المال . ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم
الأمر لعبد الملك بن مروان ^(٤)

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالي إلى المال أن اتجه إلى شيء لم يتجه
إليه أحد من قبل ، فأمر بإحصاء ^(٥) جميع الرهبان في كل الكور وفي
وادي النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر
الراهب أن يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه أول جزية أخذت من
الرهبان ^(٦) . ويقال إنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفي دينار سنوياً

(١) الكندي ص ٥١

(٢) سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٠

(٣) الكندي ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق ج ٢ ص ٤١ Wiet : Histoire de la Nation

Egyptienne p. 47.

(٥) ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف في كلمة « أحصى »
أو أن خطأ أدى إلى قراءتها « أنصى » فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش
المسلمين في هذه المناسبة . ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالأستاذ فيث
في مقاله Kibt في دائرة المعارف الإسلامية . أنظر ساويرس Patr. Orient. t.V. p.51

(٦) ساويرس ص ٥١ (t.V.) وخطط القرظي ج ٢ ص ٤٩٢

Wiet : art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) p. 998.

بالإضافة إلى خراج أملاكهم^(١) ، ويُذكر أن بنيامين الشماس الراهب الذي كان مصاحباً للأصبغ بن هبذ العزيز هو الذي كان يحرثه على كل بلاء ضد الأقباط .

ونحن نعلم أن الرهينة كانت منتشرة حينذاك ، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا في عزلة عن العالم منفردن أو جماعات في أديرة . ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويعيش في عزلة عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أية ضريبة . على أن الأديرة التي كانت تزاد كثرة على مر الأيام مالبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها ، ولكن الحكومة في عهد الرومان والبيزنطيين لم تكف باعفاها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من الإيرادات المالية^(٢) .

فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً قبلهم من التقليد الذي يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة متميزة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كي يتخلصوا من الضرائب^(٣) . ففعلت الحكومة إلى ذلك وادرت بإحصاء الرهبان ، وفرضت عليهم جزية الدينار التي أشرنا إليها .

ولما احتاج هبذ العزيز بن مروان إلى المال لجأ إلى الأديرة التي أصبحت تملك ثروات ضخمة . وفرض على رهبانها جزية سنوية كي يسد بذلك مجز

(١) ساويرس ص ٧٠ (I.V.)

(٢) Munier : L. Egypte Byzantine. p. 77

(٣) Wiet : 'Precis de L'hist. d'Egypte. t. 11. p. 132

ميزانية الدولة^(١) ، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامي . وبعد وفاة عبد العزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ . ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠ هـ . وقد تشدد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط فى الأمور المالية . فالزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يمتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة فى جمع هذا المال من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم ، كذلك زاد عبد الله الخراج على المصريين ، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً ألزمه بدفع ديناراً وتلثين ، حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب^(٢) ، وقد زاد وطأة ذلك الوالى على المصريين ما حدث فى أيامه من الفلاء ، وذلك على أثر انخفاض النيل^(٣) فى سنة ٨٧ هـ .

والظاهر أن هذا الوالى عمد إلى ابتزاز الأموال ، ولا سيما من القبط وربما أسلم نفر منهم ليتخلص من هذه الأعباء ، وقامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها . فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا ألا فائدة

(١) ذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٧٠) أن المترجمين إذا كان لهم يسار أخذت منهم الجزية ، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم تؤخذ منهم

(٢) ساويرس ص ٥٤ - ٥٥ (T.V.)

(٣) السكندى ص ٥٩ والمقرئى : إفاتة الأمة ص ١١ . وأبو الحسن

من الاعتصام في الأديرة . غير أن هذا الوالي ومن جاء بعده تشددوا في مراقبة هذه الحركة التي كانت تثير الفوضى في البلاد ، فضلاً عن تأثيرها في مالية الدولة . فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الغرباء الذين وجدوا في الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباةهم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة ^(١) .

ورلى مصر بسمد عزل عبد الله بن عبد الملك في سنة ٩٠ هـ قرة ابن شريك ، وظل على ولايتها إلى أن مات بها في سنة ٩٦ هـ . ويذكر ساويرس أن قرة أنزل بلالاً عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء ، وبالكنائس والرهبان ^(٢) . وكتب المقرئ عن قرة أنه « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » ^(٣) . وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرة بن شريك وضعفه ، فيذكر أبو الحسن أن قرة كان مسمى التدبير ، خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً متهكاً ^(٤) . وقيل إن عمر ابن عبدالعزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولادة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : « الحجاج بالعراق ؛ والوليد بالشام ؛ وقره بن شريك بمصر ؛ وعثمان بالمدينة ؛ وخالد بمكة ؛ اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس » ^(٥) . ولكن أوراق بردى كوم اشقاو ، التي عثر عليها في سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة في مجملها فإن قرة لم يكن بالرجل الظالم أو الفاسق . وقد رأينا في كلامنا عن النظام الإداري في مصر كيف كان قرة يهتم بمدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم

(١) ساويرس ص ٥٦ (T.V.)

(٢) ساويرس ص ٥٧

(٣) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٧ . في طبعة دار الكتب « متهكاً »

(٥) المرجع نفسه ص ٢١٨

الإجحاف بأهل الزمة . فيأمر عماله في الأقاليم ألا يقدروا على أهل الزمة ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أدائه^(١) ، كما يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضرائب المفروضة عليهم^(٢) ، كذلك يحذر عماله من قبول الرشوة من الأهالي^(٣) ، وفضلا عن ذلك فقد كان قرّة بن شريك يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، ويراقب الأمور في البلاد مراقبة شديدة ، ويجتهد في المحافظة على نشر الأمن في البلاد والعدل بين الرعية . كما كان يهتم بمراقبة التموين في البلاد ، فنراه يجتهد ، منع غلاء الطعام بالفسطاط^(٤) ، ونجده يتجاوز أحيانا عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية ، فيقبل من أهل الزمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقاً بهم^(٥) . ومع ذلك نراه يشدد في طلب المتأخر من الجزية التي لم تدفع منذ عهد والي الذي سبقه^(٦) ، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدموا له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة ، وإحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضي والخدمات التي يؤديها^(٧) . ولكننا نراه أحيانا يقرض ضرائب غير عادية^(٨) .

وكان جباة الضرائب من أهل الزمة^(٩) كما كان حكام الكورات

Bell : Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der (١)
Islam, Band 11.) p. 282.

Bell : op. cit. p. 270 (٣) Bell : op. cit. p. 282 (٢)

Becker : (Der Islam. Band 11.) p. 256, Grohmann : Arabic (٤)

Papyri vol. 111. p. 8

Becker : op. cit. pp. 253-254, Grohmann : op. cit. p. 16-17 (٥)

Becker : op. cit. d. 267, Grohmann : op. cit. p. 48 (٦)

Bell : op. cit. p. 272 (٧)

Bell : op. cit. p. 272 (٨)

Bell : op. cit. (Der Islam, Band 1V) p. 92 (٩)

المختامة منهم . وقد رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة في أيدي
الذميين على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة أو العهد
الأموي ، وإنما كان من مميزات النظام المالي نفسه ، الذي تركه البيزنطيون
لخلفائهم العرب^(١) .

ويذكر ساويرس^(٢) أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى
خراجها المعروف وقد استمرت في عهد قرة حركة الحرب التي بدأت في ولاية
عبد الله بن عبد الملك بل إنها اتخذت في عهده شكلا واسما فكانت أسرات
بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان إلى مكان ، لا تستقر في مكان
معين وذلك فراراً من دفع الضرائب . واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة
خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه^(٣) .

وتلقى أوراق بردي كوم اشقاو شعاعا من النور على هذه الحركة التي
كان محورها الزراع أو الجالية^(٤) وكان الوالي يأمر باعادتهم إلى قراهم
الأصلية^(٥) . فنراه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه
ويطلب منه أن يرد الجالية — أي الهاريين — إلى أرضهم الأصلية^(٦) ونراه

(١) Lammens : Un Gouverneur Omayyade. p. 116.

(٢) سير الآباء البطارقة ص ٦٤ (T.V.).

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤

(٤) قيل لأهل الزمة الجالية لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن جزيرة
العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب
بكل بلد وإن لم يحلوا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجالية أى على جزيرة
أهل الزمة (لسان العرب)

(٥) لم يكن هذا جديداً في التاريخ المصرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون
قراهم في المصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب . انظر Lammens: Un Gouverneur
Omayyade... p. 107

(٦) Grohmann : Arabic Papyri. vol. 111 p. 24

يرسل مندوبين للنظر في حركة الحرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالاً ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرتهم بكتابة أسماء الهاريين وألقابهم وليبينوا أيضاً من أين هرب كل شخص وإلى أى جهة ذهب . وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب ، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف . ثم يمود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرجال بالعمل في هذه المسألة بجد ونشاط وألا يقبل أحدهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب^(١) وفي كتاب آخر لقرة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه الهاريين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يمد سجلاً يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا ، وفي أى موضع من كورته هربوا ، وأملك كل شخص ، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته ، وكل شئ يعرفه عن الهاريين دون كذب أو محاباة ، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض ، ويهدده بأشد العقاب الجنائى والمالى إن هو تولى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاريين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاريين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم^(٢) .

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط حتى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٨٩٦ . وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان التتولى على خراج مصر .

Bell : Translations of the Greek Aphroditio Papyri (Der (١).

Isis, Band 11.) p. 270

Bell : op. cit. pp. 274-275 (٢)

أسامة بن زيد التنوخي فكتب إليه سليمان بن عبد الملك « احلب الدر حتى ينقطع »، واحلب الدم حتى ينصرم^(١) « أى أن سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال موارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامة خير منفذ لأوامره . وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوما وقد أعجبه فعل أسامة ابن زيد : « هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما » . فقال له ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان : « أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى ديناراً ولا درهما » . قال سليمان : « ومن هو ؟ » قال عمر : « عدو الله إبليس » فغضب سليمان وقام من مجلسه^(٢) .

نفذ أسامة بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد في طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا في جمع الضرائب فأسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الحرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا في اعتناق الدين الإسلامى . وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد غريباً في الكنائس أو الفنادق أو السواحل . ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان هندم من الغرباء أو المماريين^(٣) . ولكي لا يتمكن أحد من الحرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بجوازات السفر اليوم passport فالزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة في أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ماشياً في موضع ما أو عابراً من موضع إلى موضع وليس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

(٢) للرجع نفسه ص ٢٣٢

(٣) ساويرس : سير الآباء البطركية ص ٦٨ (T.V.)

معه سجله . وإذا وجد شخص راكبا مركبا أو نازلا منها وليس معه سجله
تنهب المركب وتحرق بالنار . أما من فقد سجله أو أتلفه فقد أُلزمه الوالى
بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير^(١) .

وقد عمل أسامة بن زيد لإحصاء ثانيا للرهبان بعد الإحصاء الاول
الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهبة
من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون
معروفا ، ووسم كل واحد منهم باسم بيعته وديره والتاريخ المجرى وفرض
على كل واحد منهم دينارا جزية . أما من وجد هاربا أو غير موسوم فقد كان
يلقى عقابا قاسيا^(٢) ويقال إن أسامة بن زيد من جى مصر فى خلافة سليمان
ابن عبد الملك اثني عشر مليون دينار^(٣) وقد يكون فى هذا القول مبالغة
ولكنه يدل على أن أسامة اشتد فى جباية خراج مصر إلى حد كبير .

ولما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أظهر رغبته
الشديدة فى نشر الإسلام . ويظهر أن نفرا كثيرا كان قد اعتنق الدين
الإسلامى حينذاك بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى
عمر بن عبد العزيز يقول . « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت
من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف دينار وتمت عطاء أهل الديوان فإن
رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فمل » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية
على من يسلم . وقال عمرو بن رده : « ... فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك
فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولم يرى

(١) المرجع نفسه ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ و ٧٠ وخط القرظى ج ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

(٣) خط القرظى ج ١ ص ٩٩

لمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ^(١) « وبهذه المناسبة ذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل القمة الحجاج بن يوسف ، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلهم ابن حجابة في ذلك وقال « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله أن أهل القمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضمنها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك ^(٢) .

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضا إلى حيان بن سريح أن يجعل جزية موقى القبط على أحيائهم ^(٣) كما ذكرنا من قبل وزبما كان هذا الأمر هو الذي بعث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى في الحالات التي لم تجر عاداتهم بالقيام بها .

ويظهر أن سياسة إعفاء الذين يمتنعون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أنه بعد ذلك العهد نرى أن قرار أى خليفة برفع الجزية ممن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى . وفضلا عن هذا فإننا لا نعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم . والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبد العزيز ^(٤) .

ويملق السير توماس ارنولد ^(٥) Thomas Arnold على قرار عمر بن

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ طبعة تورى — خطط المرقزي ج ١ ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ، خطط المرقزي ج ١ ص ٧٧ — ٧٨

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ ، خطط المرقزي ج ١ ص ٧٧

(٤) سير الآباء البطارقة ص ٧٢ (T.V.)

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ والمرقزي ص ٧٧

(٦) The Preaching of Islam p. 103

عبد العزيز هذا بقوله . « ولكن الولاة المتأخرين اعتبروا أن مثل هذه السياسة تضر بمالية الدولة واستمروا في فرض الجزية على الذين أسلموا . وبالجملة لم يكن هناك استمرار في مثل هذه السياسة بل كان الولاة يتبعون في ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة ، وعلى كل حال فإن سياسة عمر بن عبد العزيز التي تنطوي على تشجيع من يعتقد الدين الإسلامي جذبت إلى الإسلام كثيرين من الأقباط .

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) أخذ المسيحيين بالشدّة من الوجهة السالية فأعاد الخراج الذي كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة . وبدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التي يصفه بها مؤرخ البطارقة إذ يقول « إنه سلك في طريق الشيطان وحاد عن طرق الله »^(١)

ولما بويج هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) بالخلافة تفاعل المسيحيون خيرا . ويصفه مؤرخ البطارقة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرثوذكسيين ومحب لسائر الناس^(٢) . وقد أمر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا ايصالا باسمه كيلا يظلم أحد في مملكته^(٣) .

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيد الله بن الحبحاب ظل في هذا المنصب منذ أن ولي هشام الخلافة إلى سنة ١١٦ هـ^(٤)

(١) ساويرس : سير الآباء البطارقة . ص ٧٢ (T, V)

(٢) ساويرس ص ٧٣

(٣) ساويرس ص ٧٤

(٤) خطط القرظي ج ١ ص ٢٠٨

أولاً سنة ١١٤ هـ^(١) في قول آخر ، بينما تعاقب على حكم البلاد في زمنه خمسة ولاة ، وكان يتمتع أثناء ذلك بنفوذ كبير لا يحد ؛ يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء . بل إنه يجمع في عزل اثنين من الولاة ، وهما الحسّ بن يوسف ، وحفص بن الوليد . وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختر عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وكان له الأمر أيضاً في تولية القضاة ، فقد قام بأمر توبة بن عمر الحضرمي حتى ولى القضاء في سنة ٢١٦ هـ^(٣) . وطبيعي أن من الأسباب التي حصل بها ابن الحبّاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فنتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج : فإننا نعرف مثلاً أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصي الناس والبساتين ، وأن تقاس الأراضي الزراعية والأراضي البور وبني أميالاً أي علامات للمسافات في حقول مصر على الحدود والطرق ، وضاعف الخراج وأمر بأن تختم رقاب الناس بالرصاص من سن العشرين إلى ما فوق ذلك كما وسم أيدي النصارى بسمة الأسد^(٤) ، وذلك لتسهيل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب . ويذكر القريري^(٥) أن الخليفة هشام ابن عبد الملك أوصى عبيد الله بن الحبّاب بالعمارة ، فيقال إنه لم يظهر في خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا في وقتين ، أحدهما في خلافة هشام ابن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد الله بن الحبّاب ، والوقت الثاني

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٢٧٣

(٢) الكندي ص ٧٤ - ٧٥

(٣) الكندي ص ٣٤١ - ٣٤٢

(٤) ساورس : سير الآباء البطارقة ص ٧٥

(٥) الخطط ج ١ ص ٩٨ - ٩٩

في إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر ،
فبعد أن كان خراج مصر دون الثلاثة ملايين دينار خرج ابن الجحباب
بنفسه ومسح الناصر من أرض مصر والناصر^(١) فراكها وأصلحها ،
واستطاع أن يجبي من مصر أربعة ملايين دينار .

ويذكر الكندي^(٢) والمقرئ^(٣) أنه في أمرة الحر بن يوسف
(١٠٥ — ١٠٨ هـ) كتب عبيد الله بن الجحباب إلى هشام بن عبد الملك
بأن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً^(٤) ،
وإزاء هذه الأعباء السالية الثقيلة بدأ الأقباط للمرة الأولى يتحركون
سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية . فثار
الأقباط في سنة ١٠٧ هـ في الوجه البحري فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم
فقتل منهم نفر كثير^(٥)

وعند ما ولي مصر الوليد بن رفاعه من قبل هشام بن عبد الملك
(١٠٩ — ١١٧ هـ) خرج ليحصي أهلها ، وينظر في تعديل خراجهم ،
واضطجعت معه جماعة من الكتاب والأعوان ليساعدوه في مهمته هذه ،
فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسوان ، وأقام بالوجه البحري ثلاثة
أشهر ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، ولم يحصى في

(١) الناصر الأرض الخراب أو البور

(٢) الولاية والقضاة ص ٧٣

(٣) المخطوط ج ١ ص ٧٩

(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤

قيراطاً (ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٣)

(٥) الكندي ص ٧٣ — ٧٤ وساويرس ص ٧٦ (T.V.) ومخطوط المقرئ .

أصغر قرية منها أقل ثمن خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية^(١) .
وقد تتابعت ثورات القبط ، فتار أقباط الصعيد وحاربوا عمال
الحكومة في سنة ١٢١ هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان وإلى مصر
(١١٩ — ١٢٤ هـ) جيشاً لمحاربتهم ، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً
كبيراً^(٢) وفي ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ — ١٢٧ هـ)
أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من
الأقباط الدين الإسلامي^(٣)

ومع ذلك فقد تتابعت ثورات القبط فخرج ثار منهم بسمنود ، يدعى
يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، وإلى مصر
إذ ذاك جيشاً لمحاربتهم ، وكان ذلك في سنة ١٣٢ هـ ، فقتل يحنس مع
كثير من أصحابه^(٤) .

ثم ثار القبط برشيد في سنة ١٣٢ هـ ، فأرسل إليهم مروان بن محمد
جيشاً لمحاربتهم ، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بني المباس فهزمهم هذا
الجيش^(٥) ، كذلك ثار ضده أهل البشرد ولكنه لم يستطع القضاء على

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٦ وخط المقرئ ج ١ ص ٧٤
والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ — ٦٤ في مجموعة الارشيدوق رينر
بالمكتبة الأهلية في فينا وثيقة بردية تشير إلى احصاء سكان مصر في ولاية الوليد بن
رقاعه . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التي كان على الموطلين جمعها عن كل شخص . راجع
Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung (Wien 1894),
No 599 p 152.

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٧٩
(٣) ساويرس : سيرة الآباء البطارقة ص ١١٦ — ١١٧
(٤) الكندي ص ٩٤ وخط المقرئ ج ١ ص ٧٩
(٥) الكندي ص ٩٦ وخط المقرئ ج ١ ص ٧٩

ثورتهم ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه (١) .

ولما قامت الدولة العباسية في مصر تفاءل الأقباط خيراً وخدمت ثورة البشوريين من أجل ذلك (٢) ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى ما كانت عليه زمن الأمويين ، بل فاقت العهد السابق فلم يمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما وعدوا به من التخفيف عنهم (٣) .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرّر الخليفة السفاح أن ينفى من الجزية كل من يمتنق الدين الإسلامي ويقيم شعائره ، فتخلى كثير من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم (٤) . وسرعان ما عاد القبط الذين بقوا على دينهم إلى الثورة فتار الأقباط بسمنود في سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون الأولى على مصر (١٣٣ - ١٣٦ هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة (٥) .

ثم ثار القبط في سخا سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر (١٤٤ - ١٥٢ هـ) وانضم إليهم أهل البشروود وبعض جهات الوجه البحري ، ولكن العرب انهزموا أمام القبط في هذه المرة (٦) . ثم خرج القبط في سنة ١٥٦ هـ في ولاية موسى بن عيسى بن رباح اللخمي

(١) ساويرس ص ١٥٦ - ١٥٧ و ١٦٢ و ١٨٨

(٢) ساويرس ص ١٨٨ (٤. ٧.)

(٣) ساويرس ص ١٨٨ - ١٨٩

(٤) ساويرس ص ١٨٩ - ١٩٠

(٥) الكندي ص ١٠٢ وأبو المحاسن ج ١ ص ٣٢٥ - ٣٢٦

(٦) الكندي ص ١١٦ وخط المقرئ ج ١ ص ٧٩

(١٥٥ - ١٦١ هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً هزمهم^(١) .
وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم
وأصبحوا يملكون الأراضي في البلاد ، وكثيراً ما اشتركوا مع الأقباط
في ثوراتهم . وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التى حدثت فى جمادى الأولى
سنة ٢١٦ هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر
من قبل المعتصم (٢١٦ - ٢١٧ هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم
سواء فى ذلك العرب والقبط - فطردوا عمال الحكومة ، وقدم الأفشين
قائد المأمون من برقة لمحاربتهم ، فسار إلى الخوف وهزمهم وأرسل القواد
وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثائرين . ثم
أقبل الأفشين فى جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه فى طريقه
إلى أن دخلها فى ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ ، ثم سار بمد فتحها إلى أهل
البشرود ، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر^(٢) .

وقد عرف أهل البشرود أو البشرود بغلظة طباعهم وحبهم للمصيان
والثورة منذ التاريخ القديم ، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها
على ذلك فلن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتاين فرعى رشيد ودمياط^(٣)
كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التى تعمق حركة الجند^(٤) وقد ثاروا
زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التى كانت تستعمل
فى جبايته^(٥) وقبل مجئ المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم

(١) الكندى ص ١١٩ وخط المقيزى ج ١ ص ٧٩

(٢) الكندى ص ١٩٠ - ١٩١

(٣) Wiet : Hist. de la Nation. Egypt. t. IV. p. 78

(٤) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ٤٨٧ (t. X.)

(٥) ساويرس ص ٤٨٦ - ٤٨٧

كتبوا ينصحهم بأن يرجعوا عن ثورتهم ويحذروهم من قوة السلطان فلم يرجعوا ، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين في ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث^(١) فرأى المأمون أن يأتي إلى مصر لإخماد تلك الثورة فجاء في جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية^(٢) في المحرم سنة ٢١٧هـ وقد سخط الخليفة على الوالي عيسى بن منصور وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فمك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطبقون وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد^(٣) » .

وقد حاول المأمون أولاً أن يخمد ثورة البشموريين بالدين فأرسل إليهم البطرك أنبا يوساب والبطرك ديونوسيوس ووعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشين ، عنده ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم سيف وأحرقوا مساكنهم وهدموا كنائسهم^(٤) وغادر الخليفة مصر في سفر سنة ٢١٧ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة إقامته بمصر تسعة وأربعين يوماً^(٥) .

وبعد ثورة البشموريين التي كانت آخر ثورة للأقباط في عهد الولاة ، أصبح المسلمون أغلبية في مصر وعلى الأخص في الوجه البحري إذ يظهر

(١) ساويرس ص ٤٨٨ — ٤٩٠

(٢) ساويرس ص ٤٩٢

(٣) الكندي ص ١٩٢ — خطط المقرئ ص ١ ص ٨١

(٤) ساويرس ص ٤٩٢ — ٤٩٥ (L. X)

(٥) الكندي ص ١٩٢ — خطط المقرئ ص ١ ص ٨١ — أبو المحاسن

أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم في ذلك الوقت^(١).

وقيل في مناسبة زيارة المأمون لمصر إنه لما انتار في قرى مصر، كان يقيم في القرية يوماً وليلة فر بقرية يقال لها طاء النمل ولم يدخلها لصغرها فلما تجاوزها خرجت إليه مجوز اسمها مارية القبطية وهي تصيح . فظنها المأمون مستغيثة متطلعة فوقف لها فطلبت منه السيدة أن يشرفها بالزيارة في ضيعتها فأجابها المأمون إلى طلبها وكان معه أخوه المتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الوائق والمتوكل ، ويحيى بن أكرم والقاضي أحمد بن أبي دواد عدا قواده وعساكره فأكرمهم كرماً كثيراً « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً فلما أصبح وقد عزم على الرحيل جاءت معه عشر وصيفات مع كل وصيفة طبق ، وفي كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته . فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ، ربما يمجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا أمير المؤمنين لا تنكسر قلوبنا ولا تحتقرنا . فقال . إن في بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثقل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين . هذا ، وأشارت إلى الذهب ، من هذا ، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريبها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجباً من كبر مروءتها وسعة حالها^(٢) .

وهكذا نرى أن المصريين أو الأقباط قبلوا تبعيتهم للعرب وقبلوا

(١) خطط الفريزي ج ١ ص ٧٩ — ٨٠

(٢) خطط الفريزي ج ١ ص ٨١

النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧ هـ ثم بدأوا يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيما فى منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعا . وكان يتبع إخمادها فى العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة . وكان هدفها خفض الضرائب أو الحرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقديانىوسى ضد المسيحية فى مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط يقبلون على أمرهم فى ثوراتهم ضد العرب . ومنذ سنة ٢١٧ هـ تبدأ الفترة الثالثة من ذلك العهد وأصبح الأقباط أقلية فى القطر المصرى .

القبائل العربية فى مصر

امتاز العرب على غيرهم من فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر فى تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى فى وادى النيل .

وقد شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر فزاد المسلمون فى مصر لتزايد العرب فيها باستمرار بما كان يرد من القبائل بعد الفتح وبتحول القبط إلى الدين الإسلامى .

ويمكننا أن نقدر جيش الاحتلال الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفا من الرجال ، ولا نعرف تماما عدد سكان مصر حينذاك . وقد كتب ابن عبد الحكم^(١) أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد العالمى الفرنسى ص ٥٦

تجب عليهم الجزية - أى باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال - وإذا فرضنا أن هؤلاء الذين وجبت عليهم الجزية يكونون تلك السكان ، رأينا أنه كان بمصر إذاك نحو ١٨ مليون نسمة . ولكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه . فإن سكان مصر في العهد البيزنطى أى قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندرية التى كان يبلغ عدد سكانها ٣٠٠.٠٠٠^(١) .

وكان الفاتحون كما رأينا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختلطوا لهم مدينة عربية إسلامية في وسط المحيط المصرى القبطى . وقد كان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنباً إلى جنب مع الفتوحات العربية وذلك رغبة في إنشاء مراكز إدارية وحريرية ودينية في البلاد الجديدة التى فتحها العرب .

وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك . فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم في شتاء ولا صيف . فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط .

وقيل كذلك إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : أن لا تجمعوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى

Munier : L'Egypte Byzantine. p. 84 (١)

الكوفة — وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه . فنزل
البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية^(١) .

أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة للعرب
إلى خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحر ؛ ولكن الواقع أن الاسكندرية
متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم .

ولا ننسى أن الاسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية
بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المنتظر أن
يتخذها العرب عاصمة لهم .

أما عن كيفية اختيار موقع القسطنطينية فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو
ابن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابلون
أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه عمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه
ولم عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين نزل ؟ قال : القسطنطينية ،
لفسطاطه الذى كان قد خلفه^(٢) .

وقال الجوهري : القسطنطينية بيت من شعر . قال ومنه فسطاط مدينة مصر
وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر
فسطاط^(٣) . وقال الزمخشري . القسطنطينية اسم لضرب من الأبنية ، والذى

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وخط القريزى ج ١ ص
٢٩٦ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وابن دقاق : الانتصار
لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ — القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٠ —
خط القريزى ج ١ ص ٢٩٦ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٣) ابن دقاق ج ٤ ص ٢ والقلقشندي ج ٣ ص ٣٣٠ وخط القريزى ج ١
ص ٢٩٦

عليه الجمهور أنه ينسب بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه
يعنى خيمته^(١).

على أن الرواية التي يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار
موقعها أقرب إلى الخيال منها للحقيقة . فالمؤرخون ينسجون كثيراً من
الخيال حول حوادث فتح العرب لمصر كأن المصادفة والحظ قادا العرب دائماً
إلى ما هو حسن .

ولكن الواقع الهامة في أنحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وإن
تغيرت أسماء تلك المواقع بتغير الأزمان ، وقد عرف المصريون القدماء ومن
أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به ، وإن اتخذ
هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة . ويمتاز
هذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية
وسياسية وحرية . ويذكر سترابو أن حصن بابليون الذي يقع قريباً من
موقع منف كانت فيه إحدى الحاميات الثلاث في مصر^(٢) وقد عرف
العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاختلفوا مدينة الفسطاط في الفضاء
الواقع شمالى بابليون . ويذكر المقرئى^(٣) أن موضع الفسطاط كان فضاء
ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذي يقع في شرق مصر ، ولم يكن
فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو
ابن العاص مدينة الإسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط

(١) القلشندي ج ٣ ص ٣٣٠

(٢) Quatremère: Mémoires Géog. et Hist. sur l'Egypte. t.1. p.46

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٨٦

جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها .

أما اسم فسطاط فالراجح أن أصله غير عربي وأنه مشتق من اللفظ اليوناني ποδδατον « فُسَاطُنْ » ذلك اللفظ الذي اشتق من اللفظ اللاتيني fossatum^(١) الذي كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية . وتؤيد أوراق البردي ذلك القول؛ ففي إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠ هـ وفي أخرى مشابهة بتاريخ سنة ٩١ هـ نجد اسم باب اليون ποδδατον والفسطاط ، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط . وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربي^(٢) وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التي فتحت مصر خطة في الفسطاط أى أن كل قبيلة نزلت في جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التي اختطوها . ويذكر المفريزي^(٣) أن الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر هي بمنزلة حارات القاهرة في زمنه أى في القرن التاسع الهجري . وقد عرفت كل خطة باسم الجماعة التي نزلت فيها فقليل مثلا خطة تجيب وخطة مهرة الخ .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط في سنة ٢١ هـ تنافست القبائل في المواضع فانتدب عمرو بن العاص من خطط الخطط فن تلك الخطط خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة وبنسبون لراية عمرو بن العاص ويقال إن الراية قريش فقد كانت معهم راية عمرو بن

(١) كلمة fossatus, fossatum اللاتينية معناها معسكر أو فندق ، كلمة (f)

fossa' ac معناها خندق والفعل fossa, ari, avi, atum أى يحفر الخندق

(٢) Leone Caetani : Annali dell'Islam vol. IV. pp. 544 — 545

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٦

العاص والأرجح أنهم سموا أهل الراية لأَن قوما من أفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن العاص ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها ، فرضوا بذلك .

ومن تلك الخطط خطة مَهْرَة وخطة تُجِيب وخطة لُخْم وجُذَام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد وخطة ثَقِيف وخطة غَافِق وخطة حَضْرَمُوت وخطة يَحْصِب وخطة المَافِر وخطة سَبَأ وخطة بنى وائل وخطة القَبِيز وخطة مَذْحِج وخطة بنى عُطَيف وبنى وَعْثَلان وخطة بَيْل وخطة خَوْلَان وخطة المَدَف وخطة غَنْث وخطة سَلَامَان وخطة السُّلَاف وخطة رُعَيْن وخطة الكَلَاع وخطة نَافِع وخطة مَرَا وخطة الجَرَاوَات والفارسيين ذلك أنه دخل مع عمرو بن العاص قوم من غير العرب يقال لهم الجَرَاء والفارسيون ، فأما الجَرَاء فقوم من الروم فيهم بنو يَنْة وبنو الأَزْرَق وبنو رَوَيْل والفارسيون قوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنعاء إلى غير ذلك من الخطط التي درست^(١)

وصفوة القول أن مدينة الفسطاط قسمت إلى خطط ، كل خطة تسكنها قبيلة . ومن الخطط من كان يسكنها من هو من أصل فارسي أو رومي وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة أما الأَكْثَرِيَّة العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ٩٨ — ١٢٩ — ابن دقاق ج ٤ ص ٣ — ٥ ، القلشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٢ ، خطط القرطبي ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

وقد نشأت مدينة الفسطاط صغيرة بسيطة في أول الأمر وما لبثت أن اتسعت وكثر العمران فيها . ويدلنا على بساطة البناء في ذلك العهد أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فيها (أى دارا علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص « سلام . أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام »^(١) .

على أن العرب ما لبثوا أن تخطوا عهد البساطة وتوسعوا في البناء فبنى عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان قصره الكبير الذى يعرف بقصر الجن . ولفخامة ذلك القصر إذ ذاك قال له المقداد : إن كان من مال الله فقد أسرفت وإن كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها^(٢) وبنى في الفسطاط الحمامات والأسواق وبنى عبد العزيز بن مروان القيساريات مثل قيسارية المسلم وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش والقيسارية التى يباع فيها البز وهو التى تعرف بقيسارية عبد العزيز ، وبنى هشام بن عبد الملك قيساريته التى تعرف بقيسارية هشام^(٣) .

وبعد أن كان البناء في أول أمره باللبن والدار من طبقة واحدة يحدثننا الاسطوخرى^(٤) الذى عاش في القرن الرابع الهجرى بأن الفسطاط في غاية العماره وأن بها قبائل وخطط للعرب تنسب إليهم محالها ومعظم بنائهم بالطوب وهو عبارة عن طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى ص ١٠٤

(٢) ابن عبد الحكم ص ١١٠

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٣٦

(٤) كتاب مسالك المالك ص ٤٩

طبقات . وقد اثبتت الحفائر الحديثة في أطلال القسطنطين أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية^(١) .

وقد عني العرب منذ تخطيط القسطنطين ببناء مسجد جامع لهم . وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنباً إلى جنب مع تخطيط المدن في البلاد المفتوحة ، فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع في القسطنطين سنة ٢١ هـ ولما كان هذا المسجد أول جامع بني في مصر الإسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص وكان المسلمون يقيمون في المسجد الجامع شعائرهم الدينية فيقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع ، كذلك كان المسجد الجامع بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامي كما كان مركزاً للقضاء^(٢) وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد في مصر في عهد الولاة إلى أن بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي في ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدي جامع المسكر في سنة ١٦٩ هـ في مدينة المسكر التي اختطها العباسيون في سنة ١٣٣ هـ . وبعد عهد الولاة كثر بناء الجوامع في مصر وخاصة في عهد المماليك . على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع في مصر ظل موضع عناية حكام مصر في عصورها المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطاً جداً في أول عهد الفتح رى أن ولاية مصر وحكامها في العصور المختلفة يهتمون بتوسيعه وإقامة المناظر والحارث له وتزيينه

(١) على بهجت بك والبير جبريل : كتاب حفريات القسطنطين

(٢) انظر : Johs. Pedersen : Art. Msadjid, Encyclopaedia of Islam

Vol. III. pp. 325-331, 346-350

وفي هذا المقال يتكلم عن المسجد باعتباره مكاناً دينياً للعبادة يعلى فيه الناس ويجمعون الجمع ويتلى فيه القصص الدينية والخطب وباعتباره مركزاً للإدارة العامة فبه كان يجلس عامل الخراج كما كان يعتبر مركزاً للقضاء وممهداً علمياً ومكتبة أيضاً

بشتى الزخارف المبارية إلى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الإسلامى فى مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة . فعندما اختطت القبائل الفسطاط نزلت همدان موضع الجيزة . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفحام فملكك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فى المسلمين حصناً » فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا البقاء بالجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة فى سنة ٢١ هـ وفرغ من بنائه سنة ٢٢ هـ واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط^(١)

ونزل قوم من العرب فى الإسكندرية ، على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت « أحاذث » ، أى من أخذ منزلاً نزل فيه ، ويقال إن الربير بن العوام اختط بالإسكندرية^(٢) .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر وممطهم من النخبة كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية . وقد حرم عليهم عمر ابن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بنير السياسة والحكم والحرب ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى من ١٢٨ — ١٢٩ وخطط القريرى

ج ١ من ٢٠٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ من ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم من ١٣٠ والسيوطى : حسن المحاضرة من ٥٨

الإسلامي أو اللغة العربية . وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء نادراً في أول الأمر وكان العرب أقلية ضئيلة في مصر في ذلك العهد .

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموي أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالتخرسانيين والآتراك في العصر العباسي . فكانت القبائل العربية تغد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد ، ولذا نرى أن عدد الجند في مصر أيام معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفاً^(١) .

وكانت الأغلبية في مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، وكانت قيس^(٢) أو عرب الشمال عامة أقلية بمصر . فعندما ولي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر في سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي^(٣) ؟ فلما جاء عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) حدث تطور في تاريخ القبائل العربية بمصر ، ذلك أنه في ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي (١٠٩ — ١١٧ هـ) نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس . ولم يكن للقيسية قبل ذلك عدد كبير في وادي النيل^(٤) . وقد حدث هذا النقل حين وفد عبيد الله بن الحبحاب

(١) ابن الحكم . طبعة تورى ص ١٠٢ والمقرئى ج ١ ص ٩٤

(٢) غلب اسم قيس على سائر العدنانية أو عرب الشمال حتى جعل في النثل مقابل عرب اليمن فأطبة فيقال قيس وعين (الفلقتشدي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٩)

(٣) السكندی ص ٤٧

(٤) ويخالف ما كمايكل Macmichael المؤرخين العرب في ذلك فيرى أنه بين سنتي ٧٠٩ — ٧٢٧ (٩١ — ١٠٩ هـ) حكم مصر ثلاثة من الحكام القيسيين =

على الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينتقل إلى مصر
بيوتا من قيس إذ لم يكن في مصر حتى ذلك الوقت إلا نفر قليل منهم ، فأذن
له هشام في ترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم
الفسطاط . فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه ^(١)

وقد جاء في الكندي أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاء هشام على
مصر قال : « ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة ، وهم فهم
وعدوان . فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف
هذا الحى من قيس ونعمتهم ورفع من ذكركم ، ولإني قدمت مصر فلم أر
لهم فيها حظاً إلا آياتاً من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضرب
بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهى بلبيس ، فإن رأى
أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام .
أنت وذلك . فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة
أهل بيت من بنى عامر ، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن ، ومائة أهل
بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة

== قبل الوليد بن رفاعة الفهمي : اثنان من فهم وواحد من عبس ولا بد أن يكون محب
هؤلاء أعداد كثيرة من قبائلهم كذلك كان في الفسطاط زمن الفتح خطة لكنانة فهم
ونحن نسلم بأنه كانت هناك خطة في الفسطاط لكنانة فهم وأنه بين سنتي ٩١ —
١٠٩ هـ ولى مصر قرة بن شريك العبسي (٩٠ — ٩٦ هـ) ثم عبد الملك بن رفاعه
ابن خالد بن ثابت الفهمي (٩٦ — ٩٩ هـ) وولى عبد الملك بن رفاعه مرة ثانية سنة
١٠٩ هـ حوالى خمسة عشر يوماً . ولكن ذلك ليس معناه أن قبائل قيس بمصر كانت
عديدة . وقد رأينا من تخطيط الفسطاط أن معظم القبائل تكاد تكون كلها عينية .
ولم نسمع أى ذكر عن قبائل قيس بمصر قبل زمن هشام بن عبد الملك ولذا نرى أن
نأخذ بكلام المؤرخين العرب في هذه المسألة وربما حمل الخليفة هشام على ألا ينزل قيساً
بالفسطاط وجود العينية بها غمى الخليفة من وقوع المنازعات بينهم .
(١) الكندي ص ٧٦ والمقرئى : البيان والإعراب ص ٥٠ .

من المشور فصرفها إليهم ، فاشترؤا إبلًا . فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشتري المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة من أهل بيت ، فات هشام ببليس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس (١) .

أى أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة . وقد وافق قدوم هذه البطون القيسية إلى مصر فى سنة ١٠٩ هـ قيام ثورات الأقباط التى بدأت فى سنة ١٠٧ هـ . وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم ، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات ، أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر . وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالى ، وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزواج أو الموالاة بينهم وبين أهالى البلاد . ولذا يقول المقرئ (٢) « ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل عبيد الله ابن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

(١) الكندى : ص ٧٦ — ٧٧ ، والمقرئ : البيان والإعراب ص ٥٠ — ٥١

(٢) المخطوط ج ٢ ص ٢٦١

ويذكر لين بول^(١) أن الذي دعا عبيد الله بن الحبحاب إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الأقباط . ولكننا لا نعرف مرجعاً قديماً يؤيد هذا القول .

أخذت القبائل العربية بمد ذلك وفد إلى مصر وقستقر في القرى المصرية . ويذكر المؤرخون أنه في زمن مروان بن محمد عند ما ولي الحوثة ابن سهيل الباهلي مصر (١٢٨ - ١٣١ هـ) مالت إليه بطون قيس ، فات مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوى قرباهم^(٢)

ويظهر أن القبائل العربية أخذت وفد إلى مصر باستمرار ، وأخذت تصاهر أهل البلاد ، ومن قدم إلى مصر في ذلك العهد أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وكانوا ينزلون الياقة ، وقد قدم كثير منهم إلى مصر في خلافة التوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) بعد سنة ٢٤٠ هـ ، وانتشروا في أنحائها ، ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وكانت البجة تشن الفارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى أخربوها ، فقامت بطون ربيعة تصدمهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بوادي العلاقي ، فكثرت أموالهم وأصبحوا في سعة من العيش . وبلاد البجة كما يذكر المقرئى^(٣) تمتد من صحراء قوص إلى أول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عندما اقتبحوا مصر بإخضاعها .

(١) A History of Egypt in the Middle Ages p. 28

(٢) الكندي ص ٧٧ والمقرئى : البيان والإعراب ص ٥١

(٣) المقرئى : البيان والإعراب ص ٣٨

(٤) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٤

ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عند ما قفل من غزو النبوة سنة ٣١ هـ تجمع له البجة على شاطئ النيل ، فسأل عنهم وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب^(١) ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يغيرون على مصر فخارهم الخليفة المأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بمقتضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم في سنة ٢١٦ هـ ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الإغارة على صعيد مصر ، فحاربهم الخليفة المتوكل العباسي ، وسار رئيسهم إلى الخليفة المتوكل بسر من رأى في سنة ٢٤١ هـ ليقدّم إليه فردوس الولاء والطاعة . ولما تسامح الناس بوجود معدن التبر في أرض البجة وفدوا إلى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربه النبوة في سنة ٢٥٥ هـ ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب^(٢) .

على أن ازدياد القبائل العربية بمصر سبب كثيراً من الاضطرابات فيها ، فمن منازعات قبلية بين القيسة والحنينية ، ومن منازعات بين العرب وأهالي البلاد الأصليين ، فضلاً عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون في المشاكل التي قامت حول الخلافة كما بينا سابقاً ، وبقدرة زيادة عددهم بمصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها

كذلك لما أصبح للعرب في مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج ، فكان ذلك سبباً لبعض الثورات . وقد بدأ العرب في مصر يشتغلون بالزراعة في أواخر العهد الأموي ، وقامت ثوراتهم

(١) ابن عبد الحكم طبعة توري من ١٨٩ وخطط القرينى ج ١ ص ١٩٥

(٢) خطط القرينى ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦

من أجل الخراج في العهد العباسي ، وتمددت تلك الثورات ، ففي ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر من قبل الخليفة المهدي (١٦٧ هـ - ١٦٨ هـ) تشدد في جباية الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان يجبي عليه وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب حتى قال الشاعر :

لو يعلم المهدي ماذا الذي . يفعله موسى وأيوب

بأرض مصر حين حلا بها لم يهتم في النصح يعقوب

وقد ثار أهل الخوف من أجل ذلك وطرّدوا عمال الوالي ، ولم تهدأ ثورة الخوف إلا في ولاية الفضل بن صالح بن علي العباسي سنة ١٦٩ هـ (١).

وفي خلافة هارون الرشيد ولي مصر إسحاق بن سليمان العباسي (١٧٧ - ١٧٨ هـ) فزاد الخراج على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، واثارت أهل الخوف ، فبعث إليهم جيوشاً لم تنل منهم شيئاً ، فأرسل إلى هارون الرشيد يخبره بذلك ، فبعث الخليفة بجيش على رأسه هرثمة ابن أعين . وكانت النتيجة أن رضخ أهل الخوف وأدوا الخراج (٢).

وثار أهل الخوف أيضاً في ولاية الليث بن الفضل (١٨٢ - ١٨٧ هـ) ذلك لأن الليث بعث بمساح يمسحون الأراضي الزراعية ، فانتقصوا من القصبه أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فساروا إلى الفسطاط لمحاربة الوالي ، فخرج إليهم الوالي سنة ١٨٦ هـ فانهزم أولاً ، ولكن ما لبثت الدائرة أن دارت على أهل الخوف ، غير أنهم مع هذا منعوا الخراج ، فخرج الليث إلى أمير المؤمنين في المحرم سنة ١٨٧ هـ ،

(١) الكندي ص ١٢٥ - ١٢٩

(٢) الكندي ص ١٣٦ وخطط القريري ج ١ ص ٨٠ وأبو الحسن : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨

وطلب منه أن يرسل معه جيشاً يساعده في جباية الخراج ، ولكن عفو
ابن سليمان ضمن للخليفة جباية الخراج كله بلا سوط ولا عصا فولاه الرشيد
الخراج وصرف الليث عن صلاة مصر وخراجها^(١) .

وفي ولاية الحسين بن جميل (١٩٠ — ١٩٢ هـ) على مصر امتنع
أهل الخوف عن أداء الخراج ، وقاموا بأعمال كثيرة في التخريب والنهب
وقطع الطريق ، وأغاروا على قرى من فلسطين ، فبعث الخليفة الرشيد يحيى بن
معاذ على رأس جيش أفلح في إخضاعهم سنة ١٩١ هـ .

وقد تنامت ثورات القبائل العربية في مصر من أجل الخراج ، فقامت
ثورة في ولاية عيسى بن يزيد الجلودي على مصر (٢١٢ — ٢١٤ هـ) ،
وهزم الثوار جيوش هذا الوالى سنة ٢١٤ هـ .

وعزل بعدها عيسى بن يزيد عن إمرة مصر وولى عمير بن الوليد من
قبل المتعصم في صفر سنة ٢١٤ ، فأرسل جيشاً لمحاربة أهل الخوف ليردهم
إلى الطاعة ، وفي تلك الأثناء أراد الخليفة المأمون أن ينهى ثورتهم عن
طريق السلم لا عن طريق الحرب ، فأرسل أبا خالد المهلبى إلى اليمنى ومحمد
ابن دواله العيسى إلى العيسية أو القيسية لمفاوضة الثائرين في أمر الصلح ،
ولكنهما لم يفلحا في مهمتهما السلمية ، وأقبل أهل الخوف على القتال ،
وقد قتل الوالى عمير أثناء محاربته لهم في ربيع الآخر سنة ٢١٤ هـ بيد أن
ولى مصر ستين يوماً^(٢) ، فأرجع المتعصم عيسى بن يزيد الجلودي إلى
منصب الوالى (٢١٤ — ٢١٥ هـ) وسير عيسى جيوشه لمحاربة أهل الخوف ،
وحدثت بينه وبينهم وقائع انتهى أمرها بأن فر الوالى منهزماً إلى القسطنطين

(١) الكندى ص ١٤٠ وخطط المقرئى ج ١ ص ٨٠

(٢) الكندى ص ١٨٥ — ١٨٦

في رجب سنة ٢١٤ هـ . فقدم المنتقم صاحب إقطاع مصر على رأس جيش من أربعة آلاف من جنده الترك لإخماد تلك الثورة ، وانتصر على أهل الحوف انتصاراً باهراً ، وقتل زعماءهم ، ثم خرج من مصر في المحرم سنة ٢١٥ هـ .

وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج تلك التي قامت في سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور والتي اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدم المأمون إلى مصر لإخضاعها^(١)

وكان العرب إلى عهد الخليفة المنتقم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) يتميزون عن الأقباط الذين أسلموا ، فكانوا يأخذون المطاء ، بينما يحرم منه أهل البلاد الذين يمتنعون الإسلام .

وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا ، فتذكر الروايات أن نفرأ من العرب كانوا يتخرشون بأهل الحرس^(٢) ، ويؤذونهم ، فذهب أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمري قاضي مصر إذ ذاك من قبل الخليفة هارون الرشيد (١٨٥ — ١٩٤ هـ) وكان هذا الكاتب منهم ، فقالوا له : حتى متى تؤذى ويظمن في أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكرياء بجمع مال يدفعونه إلى العمري — وكان ذلك القاضي من عرفوا بقبول الرشوة — ليسجل لهم سجلاً يثبت أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، وشهد جماعة لهم بأنهم عرب^(٣) .

ويقال إنه لما ولي قضاء مصر هاشم بن أبي بكر البكري من قبل

(١) الكندي ص ١٩٠ — ١٩٢

(٢) حرس بالتحريك قرية في شرق مصر (ياقوت . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٩) والظاهر أن أهلها كان يشك في عربيتهم وكانوا يعدون من القبط الذين أسلموا .

(٣) الكندي ص ٣٩٧ — ٣٩٩

الأمين (١٩٤ - ١٩٦ هـ) بث بعض العرب في مصر وفداً إلى الخليفة وذكروا ما فعل المصري مع أهل الحرس ، وأنه ألحقهم بالعرب ونسبهم إلى حونسكة بن أسلم بن الحاف بن قضاة ، فبث الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنع أحداً من غير العرب الالتحاق بالعرب وبأمره أن يردم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فرجع الوفد بذلك . ودعا البكرى أهل الحرس بالسجل الذي دونه المصري لهم ، فأتوه به فزقه وقال لهم : العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد^(١) .

وقد تم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المتعمم العباسي إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان ولياً للمهد تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس . فلما بويع بالخلافة أرسل إلى والي مصر كيدر نصر ابن عبد الله (٢١٦ - ٢١٩ هـ) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فم ذلك^(٢) . ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد ، بدليل أن قرار المتعمم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف . فعند ما قطع كيدر العطاء ثار يحيى ابن الوزير الجروى في جمع من لحم وجذام وقال : « هذا أمر لا تقوم في أفضل منه لأنه منعمنا حقنا وفيئتنا » . ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة رجل . ومات كيدر في ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والي مصر من بعده إلى يحيى بن الوزير وقاتله في بحيرة تنيس فأسر يحيى بن الوزير ، وتفرق عنه أصحابه في جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ^(٣) .

(١) الكندى ص ٤١٢ - ٤١٥

(٢) الكندى ص ١٩٣ وخطط القرىزى ج ١ ص ٩٤

(٣) الكندى ص ١٩٤ وخطط القرىزى ج ١ ص ٩٤

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فإننا نرى في معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثاً في مقابر أسوان والفسطاط أن أسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن في خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى الخ^(١)...

وهذا يدل على أنه في القرن الثالث الهجرى أصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين . إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الإسلامية ، اضطروا إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها . فكان هذا العمل الذى قام به المتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام فى مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضاؤها على اللغة القبطية .

والحق أن انتشار الإسلام بمصر لم يكن كله راجعاً إلى تأثير الحكومة المركزية بدار الخلافة ، بل انتشر الإسلام منذ أول الفتح بتأثير عوامل أخرى . فلقد اعتنق بعض الأقباط الدين الإسلامى منذ البداية حباً فى الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من حقوق ، والمغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب ، على حد قول ابن خلدون .

ولا وب في أن فريقاً من القبط أقبلوا على إعتناق الدين الإسلامي عن إيمان وإقتناع ، ولعل فريقاً كان قد ملّ الخلافات الدينية التي كانت تقسم العالم المسيحي في ذلك الوقت ، والاضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب المذهب الذي لا تؤيده الحكومة السائدة .

وقد تبع انتشار الإسلام في مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضاً ، فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب . على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامي فيها . وقد عرفنا مما سبق كيف كان احتلال العرب سبباً في إنعاش اللغة القبطية في أول الأمر ، بعد أن كانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربي هي اللغة الرسمية للحكومة وللكنيسة والتعليم وللتجارة والعلاقات الخارجية . ولا نعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين ، وإنما لا بد أن الذين اعتنقوا الدين الإسلامي كانوا يتعلمون اللغة العربية ، لغة القرآن . كذلك اضطر الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربية إلى تعلم تلك اللغة منذ أن أصبحت لغة الدواوين الرسمية سنة ٨٧ هـ فضلاً عن أن هجرة القبائل العربية إلى مصر واستقرارها بها قد ساعد على جعل تلك اللغة لغة التخاطب بين أهل البلاد .

ويذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن ، تلاشت اللغة القبطية نهائياً في معظم القطر المصري ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة^(١) . ولكننا نستبعد ذلك الرأي . ففي عهد الخليفة المأمون الذي أصبح

Quatremere : Recherches sur la langue et la littérature de (١)

فيه الشعب المصري ، يدين معظم أفراده بالإسلام ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين . ويدلنا على ذلك ما ذكره القرزى^(١) في كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول : « وكان لا يمشى أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جلس »

ولكننا نرى البطرك الملاكى سميد بن بطريق يكتب كتابه في التاريخ باللغة العربية ، وذلك في القرن الرابع الهجرى . وكذلك نرى ساويرس أسقف الأثمنيين يؤرخ للبطاركة في أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة ولم تمد اللغة القبطية تفهم بين عامة الشعب .

ويذكر متر أن القبط لم يبدأوا في ترك لغتهم القبطية إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجرى^(٢)

ولكن ليس معنى هذا أن اللغة القبطية اندثرت أو زالت نهائياً وإنما بقيت محصورة في نطاق ضيق ، ولا زالت تدرس إلى اليوم ، كما أن كثيراً من الكلمات العامية التى نستعملها اليوم ترجع إلى اللغة القبطية^(٣) .

ولا ريب في أن انتشار اللغة العربية في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فإن الشعوب المختلفة التى توالى على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين .

وهذه ظاهرة تستحق إيمان النظر ، لأن تنازل شعب عريق في اللدنية

(١) المخطوط ج ١ ص ٨١

(٢) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٨٩

(٣) Dr. Georgy Sobhy bey : The Survival of Ancient Egypt

pp. 65-67

كالشعب المصري ، عن لفته ، واتخاذ لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادى .

ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل إننا نجد مصر في أواخر عصر الولاة تشارك في الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى فيظهر فيها من له شأن في العلم باللغة العربية وآدابها إذ نسمع حين قدوم الإمام الشافى إلى مصر ، وهو الإمام في العربية وعلوم الدين ، أنه التقي رجلا من أهل مصر يعرف باسم « سرج النول » ، وكان هذا الرجل حجة في اللغة ، وكان الإمام الشافى شديد الأنس به ، يقول لتلميذه الربيع بن حن وآخر . « يا ربيع ادعى لى سرجا » فيأتى به ويذاكره الشافى وينظره ويمجّب بفزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه . « يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم . »^(١)

ونيف في مصر في القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث مثل أبى عبد الله أحمد بن يحيى التجيبى ولاء ، المصرى ، الحافظ النحوى ، أحد الأئمة الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين « وفي هذا ما يشهد بلشتراك مصر في الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا منذ ذلك العهد »^(٢)

وكانت مصر إحدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن ماضيتها الوطنى وعن لغتها القديمة ومرت بنفسها في أحضان الإسلام والمدنية الإسلامية فلم يقض فتح العرب لإيران والمند على لغتهما القومية ولم يقض على العقائد

(١) السيوطى : بنية الرواة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢

والأستاذ أمين الحولى : مصر في تاريخ البلاغة ص ٨

(٢) مجلة كلية الآداب — المجلد الثانى ج ١ سنة ١٩٣٤ م

(٣) الأستاذ أمين الحولى ، المريج خمسة ص ٨

الدينية التي وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما . ولم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاسلامي من الاحتفاظ بلغتهم القومية . وبنى الأندلس ، التي كانت تزدهر فيها حضارة إسلامية بعد أن فتحتها العرب ، تغلب على أمرها في أواخر العصور الوسطى وتمود ثانية دولة مسيحية الدين بمساعدة عن اللغة العربية^(١) .

ونجد مصر في الفترة ما بين الفتح العربي والفتح الممالي لا تصبح دولة إسلامية فحسب بل تزعم العالم الإسلامي كله ، فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة في عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطمية (٣٦٢ - ٥٦٧ هـ) التي نافست الخلافة العباسية في وقت ما ، ثم نجدها تصبح مركزاً للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول في سنة ٦٥٦ هـ وانتقالها إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ ، تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح الممالي سنة ٩٢٣ هـ ، أي أن مصر في هذه المرة بعد فتح العرب لها خرجت نفوذة بمحضارتها الإسلامية وبزعامتها للعالم الإسلامي أجمع . وحسبنا دليلاً على علو مركز مصر في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون . « ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع^(٢) » .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٤

(٢) المقدمة - ص ٤٨١ (فضل في أن حلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم)

الباب الرابع

حضارة مصر في فجر الاسلام

١ — الزراعة

تعتمد مصر اعتماداً رئيسياً في ثروتها على الزراعة وكانت الزراعة مصدر خيراتها الوفرة . ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تابعوا على البلاد المصرية منذ القدم فقد جاءوا لفتحها وهم يطمون بثروتها وخيراتها . وكثيراً ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والنعم التي خص بها الله مصر والمصريين . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب إذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة^(١) ، تعدل الخلافة^(٢) » . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فليتنظر إلى أرض مصر حين يخفض زرعها وتنبود ثمارها^(٣) . ولعل أبداع وصف ، وصفه العرب لمصر ، ما جاء في الكتاب الذي ينسب إلى عمرو بن العاص أنه كتبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين بعث إليه الخليفة يسأله أن يصف له مصر ، فقال : « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها

- (١) يقصد إذا اجتمعت الامارة والولاية على الحراج لشخص واحد ، فضم إلى الادارة العامة النظر في الأمور المالية
(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٩٢ وخط القريزي ج ١ ص ٢٧
(٣) خط القريزي ج ١ ص ٢٥ .

جبل أعبر ، ورمل أعبر ، يخط وسطها نيل مبارك السنوات ميمون الروحات
تجرى فيه الزيادة والتقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدبر حلاله ،
ويكثر فيه دبابه ، تمد عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اضلختم عجابه
وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى
بعض إلا في سفار الراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كائنهن في الخايل
ورق الأسائل ، فإذا تكامل في زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ
في جريته ، وطأ في درته ، فمئذ ذلك تخرج أهل ملة محفورة ، ودمة مخفورة
يخرجون باطن الأرض ويبنون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ،
لنيرم ما سحوا من كدهم ، فقاله منهم بغير جدم ، فإذا أحرق الزرع
وأشرق ، سقاء الندى وغذاء من تحت الترى ، فينبأ مصر يا أمير المؤمنين
لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة
قشاه ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينمىها ويقر
قاطنيها منها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج عمرة
إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها^(١) في عمل جسورها وترعها ، فإذا
تقرر الحال مع المال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى
يوفق في المبدأ والمآل .

وزعموا أن الخليفة حين ورد عليه هذا الكتاب قال : لله درك يا ابن
الناصر ! لقد وصفت لي خبراً كأنى أشاهده^(٢) .

(١) الارضاع . ثمنه الخراج أو ما يجمع من البلد .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ يشك بعض الأدباء
المحدثين في نسبة هذا الكتاب إلى عمرو بن الناصر . انظر كامل حسين :
(في الأدب المصرى الإسلامى ص ٨٨ — ٩٠) .

ولا يشهد هذا الوصف بثروة مصر الزراعية فحسب ، بل يدل أيضاً على أن العرب كانوا يملكون أنه يجب عليهم حفر الترع وعمل الجسور وغير ذلك من الأمور التي تضمن كثرة الحراج ودوام تلك الثروة .

والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت في القرآن في عدة مواضع كما ذكرت في الأحاديث النبوية . وقد كانت بعض الأحاديث التي تنسب إلى النبي عن « فضائل مصر » نواة لفصول في هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون في المصور الوسطى ، بل ألفت كتب مستقلة عن فضائل مصر منها كتاب فضائل مصر لمعمر بن محمد الكندي وفضائل مصر لابن زولاق^(١) .

ولاريد في أن العرب كانوا يقدرون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة من الزراعة . وكانت مصر كما هي الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضروات والفواكهة ، وكان يزرع فيها الكتان بكثرة . فكثيراً ما نرى الإشارة إلى زراعته في أوراق البردي^(٢) التي ترجع إلى عصر الولاة . وتشير أوراق البردي التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري إلى زراعة قصب السكر فيها^(٣) . وقد نسب إلى الأمام الشافعي ، الذي عاش بمصر في أواخر القرن الثاني ، أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقت بمصر^(٤) » .

(١) أنظر . التويري : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٤٣ ، خطط القرينزي ج ١ ص ٢٣ — ٣٠ الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية . ص ٣٠ ونذكر بهذه المناسبة أن هناك نسخة خطية لكتاب فضائل مصر للكندي بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٢ كما أن هناك نسخة خطية لكتاب ابن زولاق بمكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٩ .

(٢) Grohmann : Arabic Papyri, vol. 2 p.p. 44, 46—48.

(٣) وأنظر أيضاً آدم مترز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٦١ PapyrusErzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 183

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة (ج ٢ فصل ذكر الفواكه)

الروحات ،
حلابه ،
ثم محاجه
مضها إلى
في الخايل
لما بدأ
ة مخفورة
الرب ،
الزرع
المؤمنين
ديباجة ،
ها ويقر
اج ثمرة
أ ، فإنا
له تعالى

يا ابن

الأدباء
حسين :

وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا إلى روما ثم بيزنطة ، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح إلى الحجاز . وقد استمرت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشام ثم إلى العراق . بل استمرت تلك المادة إلى اليوم . لذا يذكر المؤرخون أن من فضائل مصر أنها تميز الحرمين الشريفين وتوسع على أهلها^(١) .

ولا نعرف أن العرب ، في فجر الإسلام ، أدخلوا أسنانا جديدة من المزروعات في مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والري غير تلك التي كانت موجودة في مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضي في مصر ظلت كما هي منذ عهد الفراعنة ، وإن كانت قد تقدمت نوعا في عهد الرومان إلا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر^(٢) .

وقد كانت الطريقة الشائعة للري حتى القرن التاسع عشر ، هي طريقة ري الحياض ، اللهم إلا في بعض الجهات التي كان يمكن ريها ريا دائما مثلما كان يحدث مثلا في أراضي الحدائق بالفيوم^(٣) . ومن الزراعات الشتوية في مصر القمح والكتان والشعير والفول والعدس . ومن الزراعات الصيفية . القطن وقصب السكر والقلقاس والسمن واللوز والبطيخ والكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ^(٤) .

وعرف العرب أن واجبهم ، كواجب أي حكومة تحكم البلاد المصرية ،

(١) النويري : نهاية الأرب : ص ٣٤١ - ٣٥٤ (في الطبعة الأولى) خلط القريري ج ١ ص ٢٨

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine p. 81

(٣) Johnson: Roman Egypt vol. 2, p. 7.

(٤) خلط القريري ج ١ ص ١٠١ - ١٠٣

أن يشرفوا على أمور الري والزراعة . فإن نظام الري والزراعة هو الذى جعل مصر أسبق الأمم منذ المصور القديمة ، إلى الوحدة والنظام وإلى الخضوع لحكومة منظمة موحدة ، تنظم الإنتاج ، وتنظم الري ، وتخفف الترع ، وتقسم الأحواض ، وتهتم بالجسور ، وتدفع خطر الفيضان وغير ذلك من الأمور التى تتطلبها هذه البلاد ، والتى لا يستطيع الأفراد القيام بها من غير هيئة عليها تشرف عليها وتقوم بالنفقات التى تلزم لها .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وغير ذلك مما يلزم للري والزراعة . وكان يقوم بذلك الممل سبيفاً وشتاء حوالى ١٢٠٠ ر٠٠٠ عامل^(١) .

ولا تعطينا كتب التاريخ شيئاً مفصلاً عن مدى عناية العرب وإشرافهم على الري والزراعة طوال عصر الولاة . ولكن لا نستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر قد حدوا حدو عمر بن الخطاب وعمر بن العاص فى هذا الشأن .

كذلك زجح أن المهال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور ، وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريق السخرة ، كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكما كان بعد الفتح حتى المصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان (ويعرفها الأهالى باسم العونة) للعناية بالجسور والمحافظة عليها حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، وأصبح الأهالى يتقاضون أجوراً عن أعمالهم بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٥١ . خطط المقرئى ج ١

ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٦٣ .

وهناك بصفة عامة نوعان من الجسور ، جسور رئيسية تهم البلاد كلها وجسور محلية تهم أهل الجهة دون الأخرى . وكان يطلق على الجسور الرئيسية في زمن الميرزى الجسور السلطانية ، وكان يطلق على النوع الآخر من الجسور ، الجسور البلدية . ويذكر الميرزى^(١) أن الجسور السلطانية من القرى بمثابة سور المدينة ، التى يتعين على السلطان الاهتمام بممارتها ، وكفاية الرعية أمره . أما الجسور البلدية فكانت دور التي من داخل السور ، فيزيم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

ويذكر الميرزى^(٢) أيضاً أنه كان يفرض على كل ناحية مال معلوم ليصرف في عمل الجسور والمحافظة عليها ، وأن ذلك بطل في زمانه . ونحن لانستبعد أن يكون العرب بعد الفتح قد جبروا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمراراً لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبي ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

وقد اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مقياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب في كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل في مصر ؛ وإنما عرفت مقاييس النيل منذ التاريخ القديم . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربى نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة ، وكانت مقسمة على أساس الفراع ، وكل ذراع ينقسم إلى أربعة وعشرين أصبعاً^(٣) ، وقد بنى عمرو بن العاص مقاييس

(١) المخطوط ج ١ ص ١٠١

(٢) المخطوط ج ١ ص ١١٠

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ ، مخطوط الميرزى ج ١ ص ٨٠

— ٥٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧

بجلوان وأسوان وندرة ، ثم بنى في أيام معاوية بن أبي سفيان مقياساً بأنصنا^(١) . ثم بنى عبد العزيز بن مروان في ولايته على مصر مقياساً بجلوان التي اتخذها عاصمة للديار المصرية . وفي خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج مقياساً بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ . ثم بنى الخليفة المتوكل مقياساً بجزيرة الروضة في سنة ٢٤٧ هـ . وكان يعرف في ذلك العهد بالجديد^(٢) . وقد عثر على مقياس المتوكل في جزيرة الروضة ، وقد كتبت عليه السنة ، وهي سنة ٢٤٧ هـ كما كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين أمر عبد الله جمفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمي لتعرف به زيادة النيل وتقصانه ، وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له المزمز والتكئين والظفر على الأعداء وتتابع الإحسان والثناء وزاده في الخير رغبة وبالرعية رافة ، وكتبه أحمد بن محمد الحاسب في رجب سنة سبع وأربعين ومائتين » . وكتب في موضع آخر أن الماء بلغ في السنة التي بنى فيها هذا المقياس المتوكل سبعة عشر ذراعاً وثمانية عشر أصبعا^(٣) .

وطبقي أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الإنتاج ، لأن ذلك

(١) أنصنا وهي مدينة من نواحي الصعيد على شقي النيل (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٨١) .

(٢) الفقهني : ج ٣ ص ٢٩٨ وخط الفرزي ج ١ ص ٨٨ وأبو الحسن ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٣) أنظر Van Berchem : *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte*. I p. 21; *Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe*. t. 2. d.p.4,4 53, 55—56

يكفل لهم كثرة المال وكثرة التمتع . ونرى في عقود إيجار الأراضي في ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً هذا نصه : « وما بورت فمليك خراجة ^(١) » أى أنه يلزمه بدفع الخراج عن الأراضي التى يتركها دون زرع حتى تصبح أراضي بور ، وطبيعى ألا يرضى المزارع أن يدفع خراجاً عن الأراضي البور التى لا يستفيد منها ، فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف إلى الزراعة ، وعدم إهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج .

وقد كانت الأراضي بمصر تقاس بالفدادين ^(٢) كما هو الحال الآن وكان إيجار الأراضي يدفع نقداً أو نقداً وعينا ، ولكننا لم نثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الإيجار كان يدفع عينا فقط . وكان إيجار فدان القمح يتراوح في ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين وأحياناً يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الإيجار ½ دينار أو ⅔ دينار ^(٣) .

ولاشك في أن الثورات التى كانت تحدث بمصر من وقت إلى آخر كانت تسبب أضراراً كثيرة بالزراعة إذ كانت تقل بسببها الأيدى العاملة كما كان المزارعون يهجرون قراهم أحياناً . ولكن حكومة العرب عملت على قمع مثل تلك الحركات بشدة لتلافى الخطر الناتج عنها . كذلك رأينا كيف كان قررة ان شريك يتتبع حركة الحرب ليقضى عليها دون هوادة . كما أن الخلافة

(١) Grohmann : Arabic Papyri. vol.. 2. pp. 45—48.

(٢) Grohmann : op. cit. pp. 32. 44. 45. 48 etc..

(٣) op. cit. pp. 32—34.

منذ عهد هشام بن عبد الملك أخذت تشجع القبائل العربية على الوفود إلى مصر والاشتغال بالزراعة .

فصر كانت إذاً مديناً فياضاً للأموال والنلال ولم تكن الخلافة لتنفل أمرها إذ أن كل ضرر يحيق بها لا بد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما يجنيه الخلافة منها .

وحسبنا دليلاً على رخاء مصر وازدهار زراعتها في فجر الإسلام ما كتبه النويري في الكلام على فضائل مصر (نهاية الأربع ج ١) ، فقد جاء فيه : « وقال سميد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال ، وهو في قبة الهواء : لمن الله فرعون حين يقول : « أليس لي ملك مصر » فلو رأى المراق ١ . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاطنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله ، هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضنا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفنيتهم : يجبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره ، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المكمل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاضرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر »

٢ — الصناعة

اشتهرت مصر منذ التاريخ القديم بمدة صناعات بالرغم من أن ثروتها الرئيسية تنوقف على الزراعة . فازدهرت فيها صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والديباغة وصناعة الخشب والفنون الدقيقة كالحلي وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والطور والفخار . ونلاحظ أن الصناعات التي نشأت بها كانت تعتمد في معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة في البلاد ولكن مصر كانت تضطر إلى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحرير .

وقد كان حكمها المختلفة يشجعون هذه الصناعات ، فلما فتحتها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة . على أن العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن ، وإنما كان معظمهم من المنصر المبني الذي اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونهِ الرائعة ، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الإسلام إلا أنه كان عندهم استعداد لقبول الحضارة وكان عندهم ملكة واسعة في التصور والذوق الفني نتيجة اتصالهم الدائم بالشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين في أثناء رحلاتهم للتجارة .

لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة إسلامية مصرية وفن إسلامي مصري كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وإن كان العرب قد أفلحوا في طبعه بطابع دينهم ، وفي إظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الإسلامية عما كان موجوداً في مصر قبل الفتح ، كما كان عمادها من المصريين لا العرب .

وكان معظم الصناع بمصر في فجر الإسلام من المصريين ، سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . فالعرب في أول ذلك العهد كانوا لا يتدخلون في الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالي ويملكون الأراضي ويستغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثاني الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع في مصر . ولا شك في أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم بإسقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب .

البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم في صناعة البناء وفي فن العمارة وتشهد بذلك آثارهم في مختلف العصور . فلما جاء العرب اختطوا مدينة الفسطاط وبنوا فيها المسجد الجامع إلا أن أبنيتهم كانت بسيطة جداً وذلك بحكم عيشة الخشونة التي كانت تغلب عليهم في أول الأمر ثم ما لبث الرخاء أن طغى عليهم وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا يزعمون عنهم عيشة البساطة وينعمون في حياتهم وفي مساكنهم . وأسرعوا إلى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعيم وبدأ ذلك واضحاً جلياً في العمارة الإسلامية في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ولما يمض على الفتوحات الإسلامية قرن من الزمان ، ولا زالت المآثر التي بنيت في ذلك العهد المتقدم باقية إلى اليوم ، مثل قبة الصخرة التي بناها في بيت المقدس عبد الملك ابن مروان ومثل الجامع الأموي الذي بناه في دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف في تزيينه .

تقدمت العمارة الإسلامية في جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها

مصر . فسرطان ما نمت مدينة الفسطاط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطاً . وقد عرفنا أنه في خلافة عثمان بن عفان بنى عبد الله بن سعد قصراً كبيراً عرف باسم قصر الجن^(١) وفي أثناء الشهرين اللذين أقامهما في مصر مروان ابن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال إنه لا ينبغي لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار^(٢) . كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ في غربي المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة^(٣) . وحسبنا هذه التسمية لتعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة . وبنى عبد العزيز الدور والمساجد في حلوان التي اتخذها عاصمة له ، وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل إنه أنفق في بنائها مليون دينار^(٤) .

وهكذا نرى أن العمارة الإسلامية أخذت تتقدم بسرعة في مصر . ولما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بني العباس ، اختط العباسيون مدينة المسكر وبنوا فيها جامع المسكر . أما جامع عمرو بن العاص فقد ناله من التحسينات والزيادات والتزيين بقدر ما نال العمارة الإسلامية من التقدم في ذلك العهد . فتذكر الروايات أنه لم يكن لجامع عمرو في بادئ الأمر محراب مجوف ويقال إن أول من جعل المحراب قبة بن شريك^(٥) . وكان جامع عمرو في بادئ الأمر طوله خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون ذراعاً . وكان

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١١٠

(٢) السكندى ص ٤٥

(٣) السكندى ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠

(٥) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٤٧

هناك بابان في شرق المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان في شماليه وبابان في غربيه وكان سقفه واطناً جداً ولا يحسن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع . ويقال إن عمرو بن العاص اتخذ منبراً فيه فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيه ، فكسره عمرو^(١) .

ولكن المسلمين لم يتركوا ذلك الجامع بسيطاً كما كان ؛ ففي ولاية مسلمة ابن مخلد الأنصارى على مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان (٤٧ - ٦٢ هـ) ضاق المسجد بأهله وشكروا ذلك إلى مسلمة فكتب مسلمة فيه إلى معاوية ، فأمره معاوية بالزيادة فيه ، فزاد فيه مسلمة في سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رجة في شماليه وطلاء بالجص وزخرف جدرانه وسقوفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف . كذلك أمر ببناء منار المسجد فجعل مسلمة للجامع أربع صوامع أو مآذن في أركانه الأربعة . وهو أول من جعلها فيه ، كذلك فرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء^(٢) . وفي ولاية عبد العزيز بن مروان أمر بالزيادة في هذا الجامع فهدم كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك في سنة ٧٧ هـ^(٣) . وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك أمر برفع سقف المسجد وكان واطناً وذلك في سنة ٨٩ هـ . ثم هدمه قرة بن شريك سنة ٩٢ هـ بأمر الوليد بن عبد الملك وابتدأ في بنيانه في شعبان من السنة المذكورة^(٤) وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى نبي طامر بن

(١) المرجع نفسه ص ٢٤٧ و ٢٤٨ Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture p.29.

(٢) خطط القرينى ج ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٣) ابن عبد الحكم - طبعة تورى - ص ١٣١ والكندى ص ٥١

(٤) عثر على نص يدل على أن إصلاح جامع عمرو تم في ولاية قرة بن شريك في رمضان سنة ٩٢ هـ

لؤى وكانوا يجمعون الجمعة في قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه وذلك في شهر رمضان سنة ٩٣٠ هـ. ونصب المنبر الجديد في سنة ٩٤٤ هـ ونزع المنبر الذي كان في المسجد. وقيل إن المنبر القديم هو منبر عمرو بن العاص، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان، وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر، وقيل إن ملك النوبة أهدها إلى عبد العزيز بن مروان وبث معه نجاره الذي ركبه واسمه بقطر من أهل دندرة. ولم يزل هذا المنبر في المسجد حتى زاد قوة بن شريك في الجامع فنصب منبراً سواه. ولم يكن يخطب في القرى إلا على المعصى إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير مصر من قبل مروان بن محمد فأمر في سنة ١٣٢ هـ باتخاذ المنابر في القرى^(١) ويذكر الأستاذ كريزول أن شكل المنبر الإسلامي مشتق من المنبر المسيحي الشرق^(٢)

وهكذا نرى أن ولاية مصر وحكامها أخذوا يتمهدون جامع عمرو بن العاص بالزيادة والزخرفة والتحسينات. وتكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا في أول الأمر بالصناعة في مصر وإنما قام ببناء المهارة الإسلامية فيها معماريون وبناءون من أهالي البلاد وصنّفها الفاتحون بصيغة دينهم. ولا شك في أن المهارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر، وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان، استخدموها في مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية في جامع عمرو^(٣). ونجد كثيراً من أعمدة الكنائس الرخامية في معظم المساجد، ولكن لا يجب

(١) خطط القريري ج ٢ ص ٢٤٨. Creswell : op. cit. p. 80.

(٢) Creswell : op. cit. p. 30.

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون

أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمداً لتسد حاجة البقاء في المساجد وخاصة في العهد الأول للإسلام ، إنما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزومهم لمصر قبيل الفتح العربي^(١). وقد اتخذ العرب كثيراً من كنائس النصارى ، مساجد لهم بعد أن غلبوا على القرى في عهد الخليفة المأمون^(٢) وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين فضلاً عن أنه لم يكن جديداً في التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية في القرن الرابع لليلاد الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية حول النصارى في مصر الهياكل إلى كنائس بأن نقشوا الصليبان على أوابها وأعمدتها وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسل والقديسين ، وبنا مذابح لإقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلي . كما نرى في بعض هذه الكنائس والأديرة أحجاراً انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط في أبنيتهم الجديدة^(٣) كذلك نرى البطرك كيرلس يهدم بعض بيوت اليهود ويستعمل الأخرى كنائس^(٤).

ومهما يكن من شيء فإن المعارة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر المعارية ؛ فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن « الحنية » التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق ، وأن مآذن

Mrs. Devonshire : L'Egypte Musulmane p. 11. (١)

(٢) خطط القريزي ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ٨

وما ذكره من مصاحح

Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne. T. IV. p. 23. (٤)

الجامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس^(١).

كذلك أخذ المسلمون عن القبط في زخرفة المباني كثيراً من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المباني بطبقة من الجص^(٢).

ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصناع المصريين في بناء أبنيتهم في هذه البلاد بل كثيراً ما استخدموهم في الأبنية التي أنشئت في غير مصر . ففي كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال الذي سيرسلي للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر^(٣) . وفي كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أما كن مختلفة للعمل في بناء قصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك^(٤) . وفي كتاب ثالث يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر في جامع بيت المقدس^(٥) . ونجد كتاباً آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا في بناء جامع دمشق^(٦) . ونجد كتاباً آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون في جامع بيت المقدس وفي قصر أمير المؤمنين^(٧) . وهناك كتب أخرى تختص

(١) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية
ص ٩ وما ذكره من مصاحج

(٢) المرجع نفسه ص ١٠

(٣) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der
Islam vol. 2) p. 274.

(٤) Bell : op. cit. p. 274.

(٥) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 93.

(٦) Bill : (Der Islam 8) p. 133.

cf. Bell : op. cit. p. 388. (٧)

بالصرف على العمال الذين يعملون في بيت المقدس أو دمشق أو قصر
أمير المؤمنين^(١).

ويذكر البلاذري^(٢) أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن
عبد العزيز عامله على المدينة بأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه عامل
وقسيفساء ورخام وثمانين صائناً من الروم والقيبط من أهل الشام ومصر ،
فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك في سنة ٨٧ هـ ويقال في سنة
٨٨ هـ . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين في فن البناء
والمهارة وكيف كانوا يستخدمونهم في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية .
فمصر كانت تابعة للخلافة الإسلامية سياسياً ولا بد أنها أثرت وتأثرت
بالخلافة من الناحية الفنية أيضاً .

النسوجات

ومن الصناعات التي ازدهرت بمصر في فجر الإسلام صناعة النسوجات ،
صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية^(٣) . ولم تكن هذه الصناعة
أو غيرها من الصناعات التي اشتهرت بها مصر في عهد الولاة شيئاً أحدثته
الخلافة . وإنما كانت تما اشتهرت به مصر منذ القدم . فاستمرت صناعة
النسيج زاهرة في عهد الولاة واستغلتها الخلافة كثيراً لسد حاجاتها المختلفة ،

(١) Bell, (Der Islam 3) p. 138, 137, (Der Islam IV) p. 95, (Der Islam XVIII) p. 6.

(٢) فتوح البلدان ص ٨٢ . ٧ . Creswell : op. cit. p. 82.
(٣) يشك الأستاذ Lamm في إنتاج القطن في مصر في ذلك العهد الذي تتحدث
عنه ولكنه لا يجزم بذلك لأن القطن كان ينمو حينذاك في كل البلاد الإسلامية تقريباً
ولا بد أنه كان ينمو في مصر أيضاً أنظر . C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval
Textiles of the Near East pp. 4—6

كما أن القامعين بتلك الصناعة كانوا من المصريين ، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى في ذلك العهد . إلا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطي^(١) ، ولا بد أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية في ميدان النسيج ، كذلك يذكر ياقوت^(٢) القى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجري أن لمسجى الثياب في دمياط وتنبس من القبط . وعلى كل حال فإن المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في مصر الإسلامى كانت ، في أغلب الأحيان ، المدن التي اشتهرت بالنسيج في مصر القبطى . وكان عدد كبير من سكانها لا يزالون على دينهم المسيحى^(٣) ، وقد كانت صناعة النسيج زاهرة في عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدماً كبيراً في مصر القبطى . فكانت مصر تصدر إلى بزنطة وإلى بابوات رومة كثيراً من الأقمشة النفيسة التي كان يذهب جزء كبير منها إلى الكنائس المسيحية^(٤) . ويذكر Pliny أن مصر في العهد الرومانى كانت تستورد سلع بلاد العرب والهند في نظير تصديرها للمنسوجات السكتانية التي كانت مطلوبة جد الطلب للتجارة الشرقية^(٥) .

أما في مصر الإسلامى فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطوراً عظيماً غير فجائى . وكان العرب منذ الفتح يميلون في الزخرفة إلى

(١) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ١٣٧-١٦٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم

ص ٢٠٣ ، خطط القريزى ج ١ ص ١٨١

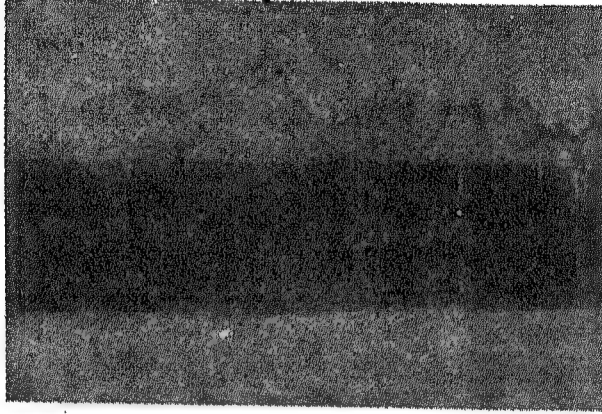
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ١٦

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ج ١ ص ٨٣ ، ٩٧

(٥) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 338

العناصر الهندسية والنباتية لكراميتهم تصوير الانسان والحيوان (شكل ١).



(شكل ١) قطعة لسيج محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة
ولعلها من صناعة مصر أو سورية في فجر الاسلام

وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية في زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة إلى حد بعيد (شكل ٢) . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة في إرضاء الفاتحين وإنتاج التحف الفنية التي تتفق ومزاجهم . وعلى كل حال فإن صناعة النسيج لم تطبع في مصر بطابع إسلامي ظاهر إلا في العصر الفاطمي ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات في العصر الفاطمي إسلامية بحتة لم تخل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها في وادي النيل (١) .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسيج الكتان لوفرة زراعته ،

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض



وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية
والقطنية والحريية . وإن كنا نوجع أن القطن
والحرير الخام في مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلي
والتصدير وأن مصر استوردت في استيرادها كما
كان الحال قبل الفتح العربي . بينما كانت مصر
تنتج من الصوف ما يكفي حاجتها ، فيذكر
المقريزي^(١) أن أرض الصعيد كثيرة المواشي من
الضأن وغير ذلك ، لكثرة نتاجه . فضلا عن
ذلك فإن العرب الذين استقروا في مصر عنوا برعى
الإبل والماشية كما كان الحال في بلادهم ، ويذكر

(شكل ٢) قطعة قماش من
الصوف محفوظة بدار الآثار
العربية في القاهرة وهي من
صناعة مصر في القرن الثالث
المهجري (٢٩ م)

ابن الفقيه^(٢) أن أهل مصر يقولون : « الصوف
والكتان لنا ، ليس لأحد من أهل البلدان مثلها » .
وكانت أهم مراكز النسيج في الوجه البحري ،
كما كانت توجد أيضاً مراكز هامة للنسيج في مصر الوسطى والعليا .
وداعت شهرة الاسكندرية في هذه الصناعة . ويذكر المقريزي^(٣) أن الثياب
المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها ، وتحمل إلى أقطار الأرض ، وأن في ثياب
الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً ، يقال لها الشرب ، كل
زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تيس أيضاً بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها

(١) المخطوط ١ ص ١٩٠

(٢) مختصر كتاب البلدان ص ٦٩

(٣) المخطوط ١ ص ١٦٣

يشتغلون بالنسج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظيمة تنيس في النسج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الفزل سداة ولحمة^(١) غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس إلى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ ، حين ولي وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فنع الإصدار^(٢) . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كان يوجد ثياب رقيقة « مهلهلة النسج كأنها المنخل »^(٣) ، وهي المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب بلون ، وكان الملون منه ينسج بتنيس ، ولم ينسج في أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمام للرجال وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان ينسج بدمياط^(٤) . إذ يذكر المقدسي^(٥) أن من تنيس الثياب الملونة لا من دمياط .

وكانت دمياط تقارب تنيس في شهرتها في النسج ، وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر الإدريسي أن الثياب التي كانت تعمل بها من الكتان ، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، ومالم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه^(٦) .

(١) السدى من الثوب خلاف اللحة وهو مامد من خيوطه . واللحة ما نسج

عرضا من الثوب وهو بخلاف سداة

(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٩٠ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ الأدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٥٦ ، ياقوت :

معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٢ ، خطط القريري ج ١ ص ١٧٧

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

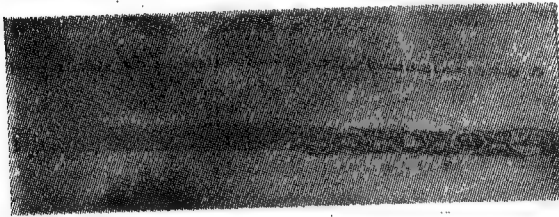
(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، الأدريسى صفة المغرب ... ص ١٥٦

— ١٥٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢ — ٦٠٣ ، خطط القريري

ج ١ ص ١٧٧ .

وقد اشتهر في النسيج أيضاً من بلدان مصر السفلى شطاً ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط^(١). وقد اشتهر في النسيج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن ، وكان إذا صنع بها شيء من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلاً بعد جيل^(٢). وقد كانت الكتابة ذات شأن في صناعة المنسوجات في العصر الإسلامي ؛ ففي دار الآثار العربية قطعة من الكتان الأبيض تشبه كثيراً الأقمشة القبطية وعليها شريط من زخارف فيه رسوم طيور محوّرة عن الطبيعة ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفي البسيط سطر بالحبر الأحمر نصه :

« هذه الهامة لسمويل بن موسى . عملت في شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين^(٣) » (شكل ٣) .



(شكل ٣) قطعة قماش من الكتان الأبيض محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة . ومؤرخة من سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م)

واشتهرت القيس أيضاً بتياب الصوف وأكسية المرعش^(٤) التي لم يكن

(١) الأدرسي : صفة الغرب ص ١٥٦ ، خطط القرينى ج ١ ص ١٧٧ و ٢٢٦

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان . ص ٣٣١ ، خطط القرينى ج ١ ص ٢٣٧

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٨٦

(٤) المرعش الابن من الصوف .

لها مثيل والقيس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا ، من أعمال مديرية
النيابة^(١)

وكان هناك مصانع للنسيج في الأشمونين^(٢) وأسيوط وإخميم وأهناس^(٣)
وبوسير قريدم^(٤) وغيرها من بلاد الوجه القبلي .

وكانت هذه المنسوجات تنسب في العادة إلى البلاد التي تعمل فيها ،
فيقال الثياب الشطوية والقيسية ، ويقال التنيسى والدمياطى الخ ..

أما نسيج الحرير فقد ازدهرت صناعته في مصر في فجر الإسلام . ومن
المدن التي قامت فيها هذه الصناعة مدينة ديق^(٥) وقد عثر في أخميم على
لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان . ولنا نعرف هل المقصود
هنا مروان بن الحكم أو مروان بن محمد^(٦)

وهناك أيضا منسوجات حريرية من أخميم في المتحف البريطانى نسجها
الصناع القبط وترجع إلى هذا العهد الذى نتحدث عنه أو بعده بقليل^(٧)
ويتجلى فيها الميزات القبطية والعربية . والحق أن زخارف المنسوجات
لمصرية بين الفتح العربى وقيام الدولة الفاطمية كانت لا تزال محتفظة بقسط
وافر من روح الزخارف فى المنسوجات القبطية (شكل ٤) ، وتعتبر عصر

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣١ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٧

(٢) الأسطخرى : مسالك الممالك ص ٥٣

(٣) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣١

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٤

(٥) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٢٦

(٦) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1, No. (٦)

36 p. 28.

(٧) Butler : Islamic Pottery p. 31 انظر

انتقال بين الطراز القبطي والنسوجات ذات الزخارف الإسلامية الخالصة
في العصر الفاطمي .



(شكل ٤) قطعة قماش من الصوف والكتان محفولة بدار الآثار العربية
في القاهرة . وهي من صناعة مصر في القرن الثالث الهجري (٩ م)

ولم يكن الفضل في اتساع نطاق فن النسيج في مصر في المصور
الوسطي راجعاً إلى الأهالي فقط. وإنما كان يرجع إلى الحكومة أيضاً فقد
كانت تسيطر على مصانع النسيج ، والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه
المسلمون في مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون
البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع حكومية للنسيج إلى جانب المصانع
الأهلية ، فلما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام^(١) .

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » و « تراز » بمعنى التطريز
وعمل المديج broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو

Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p. 174. (١)

السلطان ورجال الحاشية لاسيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة ، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات^(١) على أن كلمة « طراز » استعملت في معان أخرى ، مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التي توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفوراً في الخشب كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على دوح البردى^(٢)

ولم يبق نظام الطراز وقفاً على مصر بل نكاد نجده في كل الأقاليم الإسلامية كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى واسمانيا وحمص صقلية^(٣) . ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية . الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصة . والثاني طراز العامة وكان يتبع أيضاً بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يعمل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب^(٤) . وقد كتب على بعض المنسوجات التي عثر عليها والتي ترجع إلى هذا العهد أنها صنعت في طراز الخاصة وعلى البعض الآخر أنها صنعت في طراز العامة^(٥) *

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر - ١ ص ٨٤

(٢) أدولف جردهان : أوراق البردى العربية - ١ ص ٣ - ٤ (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن)

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ص ٨٥

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٠ وما بعدها

(٥) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. I, pp. 75,

1894, t. II, pp. 98, 138.

والذى يهمننا بياحه هو أن الخلفاء عنوا منذ الفتح الإسلامى بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية ، وكثيراً ما كان الخلفاء يستعملون هذه المنسوجات للملابسهم أو للخلع التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم ، فكان الخلفاء أو الأمراء يكافئون أفراد رعيتهم ويظهرون رضاهم عنهم بما كانوا يخلعونهم عليهم من الخلع والملابس

وقد رأينا مما سبق أنه كان يصنع للخلفاء بتيس ثياب فاخرة تعرف باسم البدنة . ويذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان لما كثرت سنه كان لا يدفأ ، فاتفقوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز فعمل له منها عدد فاحتاج منها إلا إلى واحد (١).

وقد عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان الغرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه (٢).

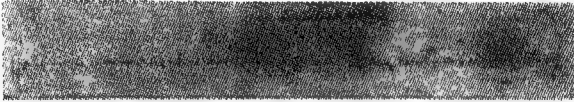
وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء المباسيين ، فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدى فى طراز تيس سنة ١٦٢ هـ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز

(١) مخطوط القرىزى ج ١ ص ٢٠٤

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٥

تتيسر على يدى الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(١) . وهناك قطعة صنعت فى طراز تونة سنة ١٩٠ هـ للخليفة هرون الرشيد^(٢) كما صنعت له قطعة أخرى فى سنة ١٩٣ هـ^(٣)

وقد عثر أيضاً على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين^(٤) . ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون فى سنة ٢٠٦ هـ^(٥) كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة فى طراز الخاصة ٢١٦ هـ^(٦) (شكل ٥) ، وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله فى سنة ٢٥٢ هـ^(٧) وأخرى صنعت فى طراز الخاصة بمصر فى سنة ٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين^(٨) وهو لى ذاك المتر بالله .



(شكل ٥) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية وعليها كتابه نصها
» بركة من الله لعبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين أعزه الله مما عمل
فى طراز الخاصة سنة ست وعشر ومائتين «

وقد عني الخلفاء أيضاً منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. p. 35.

(٢) op. cit. p. 62.

(٣) op. cit. p. 68.

(٤) op. cit. p. 75.

(٥) op. cit. p. 115.

(٦) op. cit. p. 165.

(٧) op. cit. t. 2. p. 122.

(٨) op. cit. t. 2. p. 188.

من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع بها ، فيذكر الأزرقي^(١) أن عمر ابن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت السال ، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده . فلما كان معاوية ابن أبي سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر القباطي ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان .

ويقول القرظي : إن الفاكهى ذكر في كتابه أخبار مكة أنه رأى كسوة من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان ، أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاط بن مسعدة عامله سنة تسع وخمسين ومائة^(٢) .

ويذكر الفاكهى أيضاً أنه رأى كسوة من كساء المهدي ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم ابن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(٣) » . كذلك يقول الفاكهى أنه رأى كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة^(٤) » .

ومن بين ما رآه الفاكهى كسوة لهرون الرشيد أيضاً من قباطي

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

(٢) المخطوط ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire. t. 1. p. 34.

(٣) خطط القرظي ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire t. 1. p. 35.

(٤) خطط القرظي ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire t. 1. p. 62.

مصر، مكتوباً عليها . « بسم الله بركة من الله لعبد الله هرون أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع ، مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة (١) » . ورأى الفاكهى أيضاً كسوة في الكعبة ، مكتوباً عليها « مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ، ذى الرياستين ، وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة (٢) » . ويذكر أيضاً أنه رأى قطعة من قباطى مصر في الكعبة ، مكتوباً عليها بخط رقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » (٣) .

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنوياً إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة واستقلت عنها مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنوياً ، بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله ، وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسباى سلطان مصر (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تيمورلنك بسبب إرسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الإسلامى (٤) .

الورق

واشتهرت مصر فى فجر الاسلام بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٢٦ أنظر Repertoire t. 1. p. 63.

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ١٨١ Repertoire t. 1. p. 115.

(٣) المقرئى : ج ١ ص ١٨١ ، Repertoire t. 1. p. 74.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne p. t. IV. pp. 563—564.

صناعة الورق من البردى شهرة قديمة ، وخاصة منذ العهد الروماني^(١) .
ويذكر ابن النقيع^(٢) في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر
القراطيس التي لا يشركون فيها أحد ، ويذكر اليعقوبي^(٣) أن القراطيس
كانت تصنع في بورة ، وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط وفي
مدينة إخنو وهي على ساحل البحر غربي فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة .

وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يعتمدون على
مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند
عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ؛ لأنها
أحسن وأنعم وأرقق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين
ويذكر كراباتشيك Karabacek أن صناعة إعداد ورق البردى للكتابة
انتهت في مصر بالإجمال حوالي القرن الرابع الهجري . والواقع أن ورق
البردى المؤرخ الذي وصل إلينا ينتهي في عام ٣٢٣ هـ على حين أن الوثائق
المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ^(٤) . وهكذا نرى أن
مصر كانت طوال عهد الولاة تقريباً تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان
صناع الورق ، كغيرهم من الصناع في مصر من المصريين ، وكانت أغليتهم
أوكلهم في أول عهد الفتح من الأقباط ، وإلى أواخر القرن الأول الهجري
وأوائل الثامن الميلادي كان الطابع الذي يطبع على الورق يشمل هذه
الكلمات . « الأب والابن وروح القدس » ، ومع أن ذلك الطابع

(١) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 387.

(٢) مختصر كتاب البلدان : ص ٦٦

(٣) البلدان ص ٣٣٨ .

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ .

استيئذل بعد ذلك بما يتفق ، والدين الاسلامي ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة^(١).

الخشب

وقد مهر المصريون منذ عهد الفراعنة في صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب في مصر ، وأن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال التجارة البسيطة ، مثل شجر الجيز والسند والزيتون والسرو والبندق . وكان المصريون منذ المصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرض والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها من أنواع الخشب الثمين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب في حالة جيدة^(٢) . وقد ظلت لمصر السيادة في الحفر على الخشب وصناعته ، حتى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي .

وكما خلف لنا الفراعنة التماثيل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد لغيره من التماثيل ، نرى أن الفن القبطي ورث مهارة قدماء المصريين في صناعة الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد تطورت هذه الصناعة على يد التجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطي ، فازدادت صناعتهم جمالا ، وزاد إنتاجهم كثيرا .

وقد اشتغل الرهبان بالتجارة أيضا وأتقنها الكثير^(٣) منهم ، فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة في يد الأقباط كما كانت سياستهم . وقد وصلت

Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t. 2. p. 147. (١)

(١) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ - ١٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٤ - ١٥

إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية ، أو فى قطع الأثاث . وأقدم هذه القطع يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى) ، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بعد كسره من الأبنية والأثاث لمنع انهيار الأتربة فى المدافن وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة ، مع تطورها التدرجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية^(١) . وقد وصلت إلينا قطع خشبية ترجع إلى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة ، فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) والصناعة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر السيجى . وبعض القطع المذكورة لا تكاد تميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية^(٢) (شكل ٦) .



(شكل ٦) لوح من الخشب محفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وهو من صناعة مصر فى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة (٧ — ٤٨)

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضاً الكرسي الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يعرفه القبط باسم منجلية ، (أى محل الإنجيل^(٣)) .

(١) الدكتور ذكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ وما ذكره من مراجع

(٢) الدكتور ذكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية . ص ١٤

(٣) المرجع نفسه ص ١٥

الخزف والزجاج والمعادن

وتم صناعة أخرى اشتهرت بها مصر حينذاك وهي صناعة الخزف .
ويذكر الأستاذ بشر أن صناع الخزف في مصر ظلوا محتفظين بمهارتهم
وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة ، كما تأثروا بالفن البيزنطي من حيث
المنادج والزخرفة . وتدل التحف الخزفية التي ترجع إلى فجر الاسلام .
على أن طلاء الخزف بالدهان كان متقناً حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق
المعدني كان معروفاً ؛ ولكننا لا نعرف تماماً هل نشأت صناعة هذا الخزف
في مصر أم نقلت إليها من إيران أو العراق^(١) .

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ المصور القديمة وكان
مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية . ولا ريب في أنها لم تهمل في



فجر الاسلام ، فإنه فضلاً عن عمل
الأوزان الزجاجية والخواتم والأختام
التي كان يطبع بها على الأواني لبيان
أحجامها المختلفة^(٢) (شكل ٧) ،
كان المصريون لا يزالون محتفظين
بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار
صناعة الزجاج (شكلي ٨ و ٩) .

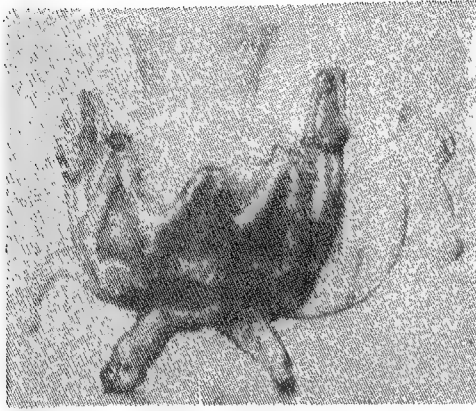
(شكل ٧) ختم زجاجي باسم حبيب الله
ابن الحبيب مؤرخ من سنة ١١٠ هـ
(٨٢٩ م)

وكانت صناعة المصادن مزدهرة
في مصر الفرعونية واحتفظ القبط

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١١٧ — ١١٨

Flinders Petrie : Glass Stamps and Weights (London 1926).



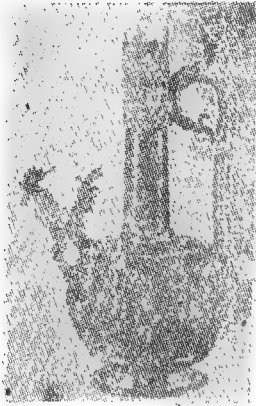
(شكل ٨) قنينة من الزجاج على هيئة حيوان ، كانت محفوظة في القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين ، وهي من صناعة مصر في فجر الاسلام



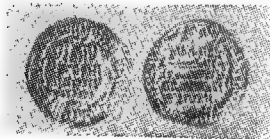
بالتفوق فيها والراجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب في فجر الاسلام ، ولكننا لا نعرف تماماً أي آثار معدنية مصرية من هذا العصر. أما أريق البرونز الذي كشف في أبي صير الملق (شكل ١٠) فيرجع إلى القرن الأول أو الثاني بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساساني في الصناعة والزخرفة .

(شكل ٩) وعاء من الزجاج كان محفوظاً في القسم الاسلامي من متاحف الدولة ببرلين ولعله من صناعة مصر في فجر الاسلام يتخذون منها ما تتخذها عاصمة الخلافة ولكن بعض قطع السكة كانت تضرب في مصر (شكل ١١) .

ومن الصناعات الشعبية التي ازدهرت في مصر منذ فجر الاسلام صناعة شواهد القبور . وكانت هذه الشواهد في البداية بسيطة من الحجر والرخام ، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجياً حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفي الذي ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمي (شكل ١٢) .

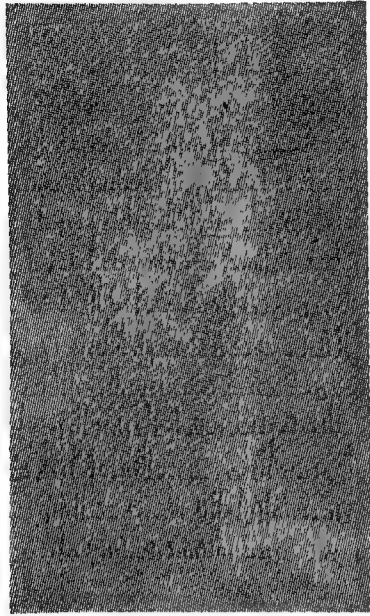


(شكل ١٠) إبريق من البرونز محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة وينسب إلى الخليفة الأموي مروان ابن محمد . ولعله من صناعة القرن الاول أو الثاني الهجري (٧ - ٨ م)



(شكل ١١) دينار من عصر الخليفة المأمون ضرب في سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م)

والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التي اشتهرت بها مصر في ذلك العهد ، نرى من الواجب علينا أن نقول إن الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة ، وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور ، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك في كافة مظاهر الحضارة المادية ، وقد ظل العرب لا يتدخلون في هذه الصناعات ولا يشاركون المصريون فيها حتى عهد المتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم ، وتركوا الجندية ، وأصبحوا يعيشون في مصر كالمصريين .



(شكل ١٢) شاهد قبر من سنة ٢٣٦ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية
في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — إن في الله عزاء
من كل مصيبة و — خلف من كل هالك ودرك لما قا — ت وأن أعظم
المصائب المصيبة — بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم — هذا ما تصهد به جنة
ابنت ا — لفرح ابن يونس تصهد لإلا إله إلا — الله وحده
لا شريك له وأن — محمد عبده ورسوله صلى الله — عليه
وسلم وأن الجنة والنار وا — لموت حق والساعة
آتية لا — ريب فيها وأن الله يبعث من
في القبور — توفيت في رجب
سنة ست وثلثين
ومايتين

٣ - التجارة

يتطلب النشاط الزراعى والصناعى نشاطا فى التجارة أيضا . وإن كانت مصر قد نشطت فى التجارة فلم يكن ذلك راجعا إلى تقدم الزراعة والصناعة فقط وإنما يرجع إلى موقع مصر الممتاز بين قارات أفريقية وأوربا وآسيا . وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر المقدونى أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة .

وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى فلم تكثف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس . وهكذا كانت التجارة تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية .

ولم يغيّر الفتح العربى فى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم ، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر ، اهتموا أيضا باستغلال الموقع الجغرافى العالمى لمصر . وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (فى القرن ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر ، إذ كان هذا الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنقبات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فإذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر وتتبع الطريق المباشر . أى أقصر

الطرق للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . وقد استفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونستطيع أن نقول عن مصر كلها ما قاله وليم البورى عن الاسكندرية بأنها كانت سوق العالمين *forum publicum utrique orbi*^(١) . ورغم الصعاب التي كانت تكتنف الملاحة في هذا البحر فإنه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة والمواصلات بين الشرق والغرب ، وزاد في أهميته حديثاً حفر قناة السويس التي تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهي أحياناً إلى ميناء *Leuce Come* (الحورة الحالية) على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ومنها تتخذ طريق القوافل إلى سوريا ، وكانت أحياناً تصل إلى أيلة عند العقبة الحالية ومنها أيضاً تخرج التجارة إلى فلسطين وسوريا . وكثيراً ما كانت تنتهي التجارة الشرقية عند ميناء *Berenice* (رأس بناس الحالية) أو *Leucos Limen* (القصير الحالية) أو *Myostormos* (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانئ تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحياناً في البحر الأحمر إلى القلزم وهي السويس الحالية ثم تسير في القناة النيلية التي تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادي طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفرعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيراً على التجار

ويستخدمونها للوصول إلى الإسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهي طريق البحر عند ميناء القازم .

وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصرى فى العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجملوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيراً ما دفعهم هذا إلى الاستيلاء على فلسطين وسوريا ، للسيطرة على طرقهما التجارية ولتأمين الحدود المصرية . واهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وبإقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانىء على الشاطئ الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالأهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلى غير ذلك من ضروب الأهتمام بالتجارة .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والشام وسائر البلاد الشرقية ، وبين مصر والواحات الغربية والمغرب ، وبين مصر وأثيوبيا وأواسط إفريقيا .

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين ، وبلاد العرب أصبحت كلها جزءاً من إمبراطورية واحدة . وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ،

وذلك أن من ساحلها بالقازم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقصى الافرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وسقيلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن^(١) .

وإن كانت مصر أفادت كثيراً من التجارة التي تمر بها ومن مركزها العالمي لتصدير منتجاتها الزائدة عن حاجتها ولاستيراد ما يلزمها من البضائع فإن الفائدة لم تكن قاصرة على المصريين فحسب ، بل استفادت الشعوب التجارية الأخرى من هذه التجارة العالمية ، ولا سيما البيزنطيون وسكان الجمهوريات الإيطالية واليهود الذين كان لهم شأن عظيم في التجارة والذين كانوا يملكون سفناً تجارية تخمر في البحر الأبيض طولا وعرضا^(٢) .

وقد اهتم عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التي كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى مدينة منف القديمة أى عند السكان الذى كان يتفرع منه النيل إلى فروعه في الدلتا . وقد كانت هذه القناة ، منذ حفرها في عهد الفراعنة أو البطالسة ، تهمل حيناً وتجدد حيناً آخر ويماد حفرها . وكان الإهتمام بها راجعاً إلى الرغبة في تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل .

ولكى نفهم ظروف حفر هذه القناة القديمة يجب أن نتذكر التغييرات التي طرأت على جغرافية نهر النيل خلال الألف سنة الماضية . فنهري النيل

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط الميرزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. pp. 125—126. (٢)

كان يتفرع شمالى بابلليون بمسافة قليلة حيث موضع القاهرة الحالى تقريباً ، إلى ثلاثة فروع كبيرة منها فرعاً دمياط ورشيد الحاليان ، أما الفرع الثالث فهو الفرع البلوزى الذى كان فى شرق فرع دمياط وينتهى بالقرب من مدينه بلوزيم القديمة (أو القرما أو طينة الحالية) . وفى وسط ذلك الفرع تقريباً كان هناك بحيرة واسعة تتصل بمدينة بوباستيس القديمة أو تل بسطة الحالية القريبة من الزقازيق . ومن هذه البحيرة كانت قناة نخاو تسير نحو ميناء أرسنوى Arsinoë أو السويس ، ولكنها كانت تنتهى عند البحيرات المرة التى كانت تقع فى الشمال الغربى لرأس البحر الأحمر . أما قناة بطليموس فقد امتدت من البحيرات المرة إلى البحر الأحمر نفسه عند السويس ماره بمدينة Heroöpolis التى يظن أنها كانت فى شمال غربى السويس وتبعد عنها بنحو ١٥ ميلاً وفى جنوب شرقى البحيرات المرة وتبعد عنها بنحو ٦ أميال . ويظن كثير من الكتاب أن البحر الأحمر نفسه أو خليج السويس كان يمتد شمالاً عما هو الآن ، ليس إلى البحيرات المرة ولكن إلى مدينة هروأوبوليس على الأقل . وعندما جفت مياه القناة الطبيعية التى كانت بين البحيرات المرة وخليج السويس الحالى ، حضر الملك دارا الفارسى والملك اجزر كسيس (القرن الخامس ق م) قناة توصل بين البحيرات المرة والخليج . وقد أعيد حفرها فى حكم بطليموس الثانى (القرن الثالث ق م) . وفى أثناء الحكم الرومانى لمصر كان الفرع البلوزى قد بدأ يجف كما أن القناة التى بين بوباستس والبحر الأحمر لم تمتد صالحة للملاحة للسفن الكثيرة فى العهد الرومانى . ولذا اهتم الامبراطور تراچان فى القرن الثانى الميلادى (٩٨ - ١١٧ م) باصلاح تلك القناة وتعميقها كما أنه حفر قناة تخرج من النيل بالقرب من المنطقة التى تقوم فيها القاهرة الآن وتقابل مع قناة نخاو

عند بلبيس الحالية في نقطة متوسطة بين بوباستيس والبحيرات المرة^(١).
ولكن قناة تراجان هذه أهملت على ممر الأيام حتى أصبحت غير صالحة
للملاحة في بداية القرن السابع الميلادي^(٢). فلما فتح العرب مصر في أوائل
ذلك القرن اهتموا بإعادة حفر هذه القناة. ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن
تقل عنه من المؤرخين مثل المقرئ^(٤) والسيوطي^(٥) أن أهل المدينة المنورة
أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك في عام
الرمادة^(٦)، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستنجده، فبعث
إليه عيرا عظيمة، كان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً، فلما
قدمت على الخليفة وسع بها على الناس فأعطى أهل كل بيت بالمدينة وماحولها
بعمراً بما عليه من الطعام. ونحن وإن كنا نلصق في هذه الرواية شيئاً كثيراً
من المبالغة إلا أنها تدل على أن بلاد العرب أصبحت تعتمد بعد فتح مصر
اعتماداً رئيسياً عليها لإطعام أهل الحجاز. ثم يذكر المؤرخون أن عمر بن
الخطاب أمر بحفر قناة توصل بين النيل والبحر الأحمر وذلك ليسهل حمل
الطعام من مصر إلى المدينة ومكة. فأعاد عمرو بن العاص حفر القناة التي

(١) Wilson : The Suez Canal ... pp. 3-5.

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine ... p. 82.

(٣) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢ — ١٦٤.

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨.

(٦) يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤، أنه
في سنة ١٨ هـ أصاب الناس مجاعة شديدة وجذب وقحط، وهو عام الرمادة، وكانت
الريح تسمى تراباً كالرمادة، فسمى عام الرمادة. وفي هذه السنة أيضاً كان طاعون
عمواس. فكتب عمر بن الخطاب إلى أنشأ الأمصار، يستغيثهم لأهل المدينة ومن
حولها ويستقدم، ومن بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر.

كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن في القناة وحمل الطعام إلى أهل الحرمين . وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب .

ويتبين من هذه الرواية أن الفرض الأساسي من حفر خليج أمير المؤمنين كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز ، وليس تسهيل التجارة . وذكر المقرئى نقلاً عن السكندى في « كتاب الجند العربى » أن عمرأ حفره في سنة ثلاث وعشرين وفتح منه في ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع^(١) . ويظهر أن العرب استعملوا السخرة في حفر هذا الخليج أو القناة كما أنهم استخدموا عدداً عظيماً من أهل البلاد وذلك لأن عمرأ أعاد حفرها في وقت قصير ذكر المؤرخون أنه لم يتجاوز السنة . ويذكر حنا النقيوسى^(٢) أن المسلمين فرضوا على المصريين إعادة حفر قناة تراجان من بابلين إلى البحر الأحمر وأن يبرم على المصريين كان أشد وطأة من نير فرعون على بنى إسرائيل .

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب إنما اهتم بحفر قناة تراجان لتسهيل حمل القلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، فقد أفاد ذلك العمل التجارة والتجار ، فيذكر المقرئى^(٣) نقلاً عن ابن الطوير أن هذا الخليج كان مسلكاً للتجار وغيرهم ، ويذكر أيضاً أن السفن كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر وتمر في البحر إلى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد النفس الزكية نائراً في الحجاز زمن الخليفة المنصور العباسى فكتب

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) تاريخ ص ٥٧٧ (ed. Zotenberg)

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٤٣

النصور إلى عامله على مصر يأمره بطم الخليج حتى لا تحمل البيرة من مصر إلى المدينة فطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القازم^(١). ويقال إن ولاية مصر أهملوا أمر هذا الخليج بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فقلب عليه الرمل وصار متناه إلى ذنب بحيرة التماسح^(٢).

كذلك يقال إن عمرو بن العاص فكر في حفر قناة توصل ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر رأساً ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك^(٣). ولو تمت هذه الفكرة حينذاك لسهلت الطريق التجاري كثيراً بين الشرق والغرب. ويذكر ابن خلدون^(٤) أنه ما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين إلا أن ذلك لم يتم.

ويذكر السعدي^(٥) والسيوطي أن الخليفة هرون الرشيد أراد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القازم مما يلي الفرما. فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل سراكبهم الحجاز. فمدل الرشيد عن هذه الفكرة.

وبالرغم من أن إهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح للملاحة السفن في أوائل العصر العباسي، وأن هذا الإهمال لا يدل على بعد نظر في شيء — فيما عدا أنه كان علاجاً مؤقتاً نظراً من الظروف، إن صح أن أبا جعفر

(١) الخطط ج ٢ ص ١٣٩

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٦٤، خطط القبري ج ٢ ص ١٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨.

(٣) السعدي: خروج الذهب — طبعة أوروبا — ج ٤ ص ٩٩.

(٤) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض).

(٥) السعدي — خروج الذهب — طبعة أوروبا — ج ٤ ص ٩٨-٩٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩.

المنصور أمر بسده كي يقطع الميرة عن أهل الحجاز عندما ثاروا عليه — بالرغم من هذا يظهر أن طريق التجارة عن طريق القلزم وبرزخ السويس ظل يطره التجار طوال عصر الولاة الذي نتحدث عنه . ويؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافي المشهور ابن خردادبه^(١) عن التجارة ، في أواخر القرن الثالث الهجري . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذنية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والأندلسية والصقلية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برأ وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والعلماء والديباج وجلود النمر والفراء والسمور^(٢) ، والسيوف ، ويركبون من إفريقية^(٣) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة^(٤) ثم يمضون إلى السند والمهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرحموا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ، فرجما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، ورجما صاروا بها إلى ملك إفريقية فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من إفريقية في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في

(١) كتاب المسالك والممالك من ١٥٣ — ١٥٤ والدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في الصور الوسطى ص ٧ — ٩
(٢) السمور حيوان يرى يقبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر ، مائل إلى السواد ، يتخذ من جلده فراء ثينة ، وربما أطلق السمور على جلده ، والجمع سلهبر .
(٢) يقصد إفريقية هنا فرنسا .
(٤) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهي ميناء مكة .

الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل ببعضه ببعض » .

وبين هذا النص أهمية مركز مصر التجارى ، كما بين أن طريق القلزم والفرما كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

ولدينا نص متأخر عن ذلك ، كتبه المسمودى ^(١) فى القرن الرابع الهجرى وهو بين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضاً . فيقول إن مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن ^(٢) ، لأن من الفرما التى على ساحل بحر الروم إلى القلزم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والمقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكول والمشروب والملابس ، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها » .

وبالرغم من الأهمية التى كانت لخليج أمير المؤمنين فى التجارة ، أو لطريق القلزم — الفرما ، بعد سد ذلك الخليج ، فلا نستبعد أن يكون بعض التجار قد اتخذوا الطريق الصحراوى الذى يوصل بين البحر الأحمر والنيل طريقاً لسيرهم خصوصاً بعد سد خليج أمير المؤمنين ، ونظراً لصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر . وكان بعض التجار يتخذون هذا الطريق قبل الفتح ، فكانوا يسرون من القصير أو برنيس إلى قفط على النيل ثم يسرون فى النيل إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن يظهر أن هذا الطريق لم يكن

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٠

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)

سورة الرحمن ، آية ١٩ — ٢٠

مفضلاً على غيره في فجر الإسلام؛ لأن الجغرافيين والمؤرخين العرب في ذلك العصر لم يطنبوا في الحديث عن أهميته كما فعل المؤرخون في عصر المماليك فبينما نرى اليعقوبي^(١)، أحد الجغرافيين الذين زاروا مصر في القرن الثالث الهجري لا يزيد على القول بأن عيذاب كانت ميناء تجارية، يذكر القريري^(٢) أن صحراء عيذاب كانت مزدهرة في القرن الخامس الهجري باعتبارها طريقاً للحج وللتجارة بين مصر والحجاز وغيرها من البلاد، ويذكر أن حجاج مصر والمغرب كانوا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب فيركبون النيل حتى قوص ويمبرون الصحراء إلى ميناء عيذاب ومنها يركبون البحر إلى جدة، وكذلك كان تجار الهند واليمن والحبشة يركبون البحر إلى عيذاب ثم يسلكون الصحراء إلى قوص ومنها يسيرون في النيل إلى مصر أو الإسكندرية. فالحق أن صحراء عيذاب ظلت آهلة بالتجارة والحجاج أكثر من مائتي سنة، وذلك بين سنتي ٤٥٠ هـ و ٦٦٠ هـ. أي أنها كانت مسلماً للتجار والحجاج وبلغت درجة عظيمة من الازدهار في عهد متأخر عن العهد الذي نبحث فيه.

ولم يكن فتح العرب مصر سبباً في قصر تجارتها على دول الشرق وضمف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب، فقد رأينا من نصوص جغرافي العرب كيف كانت مصر طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب معاً. وكذلك لم تفقد الإسكندرية مكانتها التجارية العالمية التي كانت لها قبل الفتح. فقد زار الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين سنة (حوالي سنة ٦٧٠ م ٥٠٠ - ٥١٠ هـ) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن

(١) كتاب البلدان ص ٣٣٥

(٢) المسطوح ج ١ ص ٢٠٧

الأسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شوب لا حصر^(١) لها . وإن كانت شهرة الأسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية ، فقد احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام . ويذكر آدم منز^(٢) أنه حينما أخذت تجارة المسلمين إلى المكان الأول في التجارة العالمية في القرن الرابع الهجرى كانت الأسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر ولا سيما في البضائع السكالية . وكما ظلت الأسكندرية محتفظة بأهميتها التجارية فقد ظلت أيضا العلاقات التجارية مستمرة بين مصر وأمم الغرب ، ففي أوائل القرن التاسع الميلادى (نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى) نرى الحكومة البيزنطية تفكر في أن تحرّم على بحارتها الرسو في الشواطئ السورية والمصرية . ولا بد أن البيزنطيين في ذلك الوقت كانوا يتبادلون التجارة مع المسلمين^(٣) . وإذا كان الامبراطور شارلمان قد استطاع أن يرسل المساعدة إلى الفقراء المسيحيين في الإسكندرية فلا بد أنه كان يستورد من مصر ما يلزمه من الحاجات وعلى الأخص التوابل التى كثيراً ما نجد ذكرها في الوثائق المعاصرة^(٤) :

وطبيعى أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضاً مسلكاً للتجار في ذلك العصر ، لأن الخلافة كانت تهتم بمهارة هذه الطرق وبالعناية بها وتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملاً لملاحة السفن كان بمض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضاً للحج ، ويذكر السيوطى^(٥) أن حجاج

(١) Kammerer : La Mer Rouge. t. 1, p. 12—18.

Heyd : Hist. du commerce. t. 1. p. 41

(٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٢

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. 1V. p. 174.

(٤) Wiet : op. cit. p. 174.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩ .

البحر كانوا يسرون فيه إلى القلزم ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب الكبيرة ،
ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوي بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا
للتجارة والحجاج . على أن هناك طريقا بريا كان يرقده الحجاج بكثرة وهو
طريق أيلة التي كانت عند موضع العقبة الحالية . فيسير الحجاج من مصر
عن طريق البر إلى القلزم فإما أن يركبوا البحر إلى الجار ميناء المدينة —
وإما أن يسيروا إلى أيلة وبعدها إلى بلاد الحجاز .

وكان هناك ست مراحل^(١) بين القلزم وأيلة^(٢) . ويذكر المقرئ^(٣)
أن أيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة على ساحل البحر بها التجارة
الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ، وكانت في الإسلام منزلا لبني أمية
وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج ، وكان بها علم كثير وآداب
ومتاجر وأسواق عامرة .

وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتحق بالحجاج وللتجارة فكانت البضائع
الشرقية تنبع إلى الحجاج المديدين ، فضلا عن أنها كانت تصل إلى أسواق
الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج في عودتهم إلى مصر
بالطريق البري حول خليج البحر الأحمر أو بواسطة التجار السوريين
الذين يحملون هذه البضاعة في اتجاه دمشق^(٤) .

أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذي أتت منه الجيوش المنيرة
على مصر في المصور المختلفة . مثل جيوش قبيز والاسكندر الأكبر ،

(١) المرحلة المسافة التي يقطعها المسافر في يومه ، انجع مراحل .

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٣

(٣) الخطوط ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) Heyd : Hist. du commerce. vol. 1. p. 41.

وعمر بن العاص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة وورفع والعريش والفرما وبليبس ثم القسطنطينية . وهناك طريق آخر يخرج من القسطنطينية إلى برقة وأفريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من القسطنطينية إلى المغرب دون أن يمر بالإسكندرية ولكنه يلتقي بالطريق الذي يخرج من الإسكندرية في ذات الحمام (١) .

كذلك لا نشك في أن مصر كانت تتبادل التجارة في هذا العهد مع النوبة والسودان وأواسط أفريقية ، فنشد الفتح العربي كانت هناك شبه اتفاقية تجارية بين مصر والنوبة تقضى بأن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر إليها القمح والعدس والحبوب (٢) ، ولا بد أن مصر كانت في علاقات تجارية مع الحبشة وأواسط أفريقية وكانت تصل إليها منتجات هذا الإقليم ، إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان . ولا ننسى في هذه المناسبة ما كان هناك من علاقات دينية بين مصر وبين هذه الأقطار المختلفة ، إذ أن البطرك الأرثوذكسي في مصر كانت ولا تزال له الرئاسة الدينية على نصارى الحبشة والنوبة وسائر المسيحيين في السودان ، وهو الذي يرسم أساقفتهم (٣) ولا بد أن هذه العلاقة الدينية قد تبعثها علاقة تجارية أيضا . ويذكر اليعقوبي (٤) أن التجار كانت تأتي إلى نهر عيذاب فيحملون التبر والماج وغير ذلك في المراكب . ولا شك أن مصر كان يصيبها شيء من تجارة أواسط أفريقية عن طريق هذا الميناء .

(١) قديمية بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢١٩ — ٢٢٥

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٨٨ — ١٨٩ ، الكندي :

الزلافة والفضة ص ١٢ — ١٣

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨

(٤) البلدان ص ٣٣٥

ولا نعرف تماما ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العهد وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانباً من القمح بالإضافة إلى ما كانت ترسله سنوياً إلى الحجاز . ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العهد لوفرة زراعته بها ، كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن . ويظهر أيضاً أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العهد أيضاً ، فقد كان هناك سوق للرقيق بمصر فى الفسطاط منذ أول عهد الفتح^(١) .

(١) ابن عبد الحكم - طبعة تورى - ص ٩٢ ، السيوطى : حسن
المحاضرة ج ١ ص ٥٩ .

٤ - الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية، في كافة الأنصار الإسلامية في صدر الإسلام في الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهروا إذ ذاك علماء دين . أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفاً في ذلك العصر بل كان ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه إلى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به ^(١) .

وقد تفرق الصحابة في كافة البلدان التي فتحتها الجيوش الإسلامية بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التي فتحت تلك البلدان . وربما تمعد الخلفاء تفرقهم ليعلموا أهلها الدين الإسلامي . وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح ، عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العاصري والزيبر بن الموام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وخارجة بن حذافة العدوي ومسلمة بن مخلد وأبو رافع مولى رسول الله وشريك بن سمى الغطيفي المرادي وعبد الله بن الحارث بن حزم ابن عبد الله بن معدى كرب الزبيدي الذحجي وكان آخر صحابي مات بمصر ، توفي في سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة ، وغيرهم كثير ^(٢) ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أخذ الصحابة يفدون إلى مصر بمسد

(١) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري من ٩٢ — ٩٣ ، السيوطي : حسن

المحاضرة ج ١ ص ٧٣ — ١٠٠

الفتح . إذ شجعهم على ذلك مارأوه من وفير الخيرات وسهولة العيش . فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الإسلامى . وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار .

على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو ابن العاص ؛ فيذكر القرزى^(١) أن أهل المدينة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر . رضى الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما ، وأن أهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأن أهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

ولأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قراءة مائة حديث^(٢) . وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه^(٣) وكان فاضلا علما قرأ القرآن والكتب المتقدمة واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له فقال : يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والنضب . قال : نعم فأتى لا أقول إلا حقا^(٤) . ويذكر ابن سعد^(٥) عن اسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : رأيت

(١) المخطوط ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) ابن عبد الحكم - ص ٢٥٤

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤

ص ١١٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣

(٥) الطبقات الكبير . ج ٧ ص ١٨٩

عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسأله عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد . وقال أبو هريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل ^(١) .

وقد اختلف في سنة وفاة عبد الله بن عمرو وفي أى جهة توفى ، ويذكر بعض المؤرخين أنه توفى عند ما قدم مروان بن الحكم إلى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . وفي اليوم الذى قتل فيه الاكدر بن حمام بن عامر سيد لخم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ولم يستطع أحد أن يخرج في جنازة عبد الله بن عمرو إلى المقبرة لشغب الجند على مروان ^(٢) ويمتدح عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية إذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث .

وإن كان عبد الله بن عمرو هو المعلم الأول في مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح . وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا في الدولة الإسلامية . وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين إليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم في أحكامه وكافة أمورهم ، فنلا نرى عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبى جيلة ليفقههم ^(٣) . ويبعث الخليفة

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣ وابن حجر : الإصابة ج ٤

ص ١١٢

(٢) الكنتى ص ٤٦ وخط الطبريزى ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) السبولى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ - ٨٢

عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلمهم السنن^(١).

وقد تتلمذ على أيدي الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم وكانوا لا يعتمدون فتاويهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة^(٢). على أننا نلاحظ أن أكثر حملة العلم في عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم في الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم في تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابيهيم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالى وأبنائهم^(٣) ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال : رجلا من الموالى ورجل من العرب ؛ فأما العربي فجعفر بن ربيعة ، وأما المولىان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر . وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها سعدا وأنتم لا تسمون !

واشتهر من مصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين . نذكر منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولد بمصر سنة إحدى وستين وقيل ثلاث وستين ، وأبوه عبد العزيز بن مروان أمير عليها ، « وقد تفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد وله مناقب كثيرة »^(٤) . ومن اشتهر بمصر أيضا يزيد بن حبيب واسمه سويد الأزدي أبو رجاء المصرى ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وهو أحد ثلاثة فوض إليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا

(١) المرجع نفسه ص ١١٩

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ - ٤٨١ (فصل في أن حملة العلم في

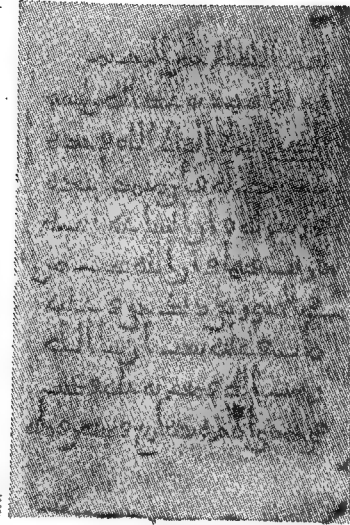
الاسلام أكثرهم النجم) وأحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ١٨٣

(٤) السيوطى : حس المحاضرة ج ١ ص ١١٩

مصر . وقد أخذ عنه عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون ، وكان الليث ابن سعد يثنى عليه ويقول « ابن أبي حبيب سيدنا » وتوفي يزيد بن أبي حبيب عصر في سنة ١٢٨ هـ .^(١)

ومن علماء مصر ومحدثيها وفقائها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي النافق المصري الفقيه الذي ولد في سنة ٩٧ هـ وقيل سنة ٩٦ هـ وولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ومات بها في منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤ هـ (شكل ١٣) وقيل سنة ١٧٠ هـ^(٢) . ومن أشهر فقهاء وأئمتها في ذلك العهد أيضا الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم الأصمعي الأصل المصري ، ولد في مصر في بلدة قرقشدة^(٣) سنة ٩٤ هـ وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشتغل بالفتوى في زمانه . ويقال إن دخله كان في كل سنة خمسة آلاف دينار ، كان يفرقها في الصلوات وغيرها . ولا نعرف ما هو مصدر ثروته هذه ، وقيل إن الإمام مالك كتب إليه من المدينة « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » فكتب إليه الليث بن سعد : (قُلْ من حَرَّمَ زينة الله) . وكان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب كانا من تحت أمره ومشورته وكان الشافعي يتأسف على فوات لقاءه . وتذكر الروايات أن الشافعي قال « كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٣ و ٣٠٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠
(٢) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ١ ص ٣١٣ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٧٧ السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠
(٣) قرقشدة : قرية بأسفل مصر . ولد بها الليث بن سعد (ياقوت . معجم البلدان ج ٤ ص ٦٤) وهي قرقشدة بمديرية القليوبية .



(شكل ١٣) شاهد قبر عبد الله بن لهيعة ، محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة — الحضري أنه لا إله إلا الله وحده — لا شريك له وأن محمداً عبده — ورسوله وأن الساعة آتية — لا ريب فيها وأن الله يبعث من — في القبور على ذلك حي وعليه — مات وعليه يبعث إن شاء الله — رحمت الله ومفغرة عليه وكتب في جمدي الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة

وقال يحيى بن بكير: « ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » . وقد توفي الليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ ، وقال قائل حين مات ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريباً وقبر^(١)

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٤ — ٥٥٥ وخط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ ، أبو الحسن ج ١ ص ٨٢ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ وأحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣٠

وقد شمر كثير من التابعين في الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال من جهة إلى جهة للدرس وتحصيل العلم . فالصحابا العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين في أشياء وينقص في أشياء أخرى ؛ إذ كان بعض الصحابة يقيمون عن مجلس النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأوقات التي يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه . فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة في الأقاليم أصبح كل إقليم متأزراً بالصحابة الذين علموا فيه . فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة إلى التفقه على علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى فكترت الرحلة إلى الأمصار المختلفة^(١) ، وتقابل العلماء في مختلف الجهات ، وازدهرت في ديار الإسلام مراكز عديدة للعلم يفد إليها الطلاب من مختلف الأقاليم الإسلامية . ويقال إن أول من رحل من أهل مصر إلى العراق في طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذي توفي سنة ١٨٤هـ^(٢) . وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي . ففي ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها .

ونشأت في العصر العباسي مذاهب انقرض بعضها في العصر العباسي نفسه ولا يزال بعضها الآخر قائماً حتى اليوم . وقد كان فريق من الفقهاء يغالون في اتباع

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ص ٦ - ٧

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ وأحمد أمين بك : فجر الإسلام

ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١

الرأى وفريق آخر ينال في اتباع الحديث وفريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين الاثنين . وأهم المذاهب التي ذاعت في مصر الميماى هى المذاهب الأربعة التي قدر لها البقاء إلى اليوم . واقدام هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الإمام أبى حنيفة وقد ولد الإمام أبى حنيفة الثمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ هـ وقيل سنة ٦١ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ وبعد أبى حنيفة إمام أهل الرأى والقياس ، وكان أشهر من دون مذهبى تلميذه أبى يوسف يعقوب بن محمد القاضى (١١٣ - ١٨٣ هـ) (١) . وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الإمام مالك ابن أنس الأصبحى الذى ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ ويمتاز مذهبى باعتاده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، ويقال لأصحابه أهل الحديث (٢)

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الإمام محمد بن ادرىس الشافى القرشى وقد ولد بقرىة سنة ١٥٠ هـ ، وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى إلى مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبى الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ (٣) ويذكر ابن خلدون (٤) أن الإمام الشافى مزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب أى أنه جمع بين

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨ وأحد تيمور باشا :

نظرة تاريخية فى حوث المذاهب الأربعة ص ٨ - ٩

(٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٥٦ ، وأحد

تيمور باشا : المرجع السابق ص ١٩

(٣) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦٥ - ٥٦٦ وأبو الحسن

النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١ -

١٢٢ وأحد تيمور باشا : المرجع نفسه . ص ٢٨

(٤) المقدمة ص ٣٧٥

مذهبي الرأي والحديث . ويحذر أن نشير هنا إلى أن قدومه بمصر كان مع عبد الله بن والي مصر العباس بن موسى بن عيسى العباسي الذي أرسله أبو خليفة له على ولاية مصر^(١) .

ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ وقيل بمرور وجل إلى بغداد وهو رضيع وتوفي بها سنة ٣٤١ هـ وكان ابن حنبل يفتي في اتباع الحديث إذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأي^(٢)

بالرغم من أن مذهب أبي حنيفة هو أقدم المذاهب إلا أن مذهب مالك هو الذي دخل مصر أولاً وانتشر بها . ويذكر المقرئ^(٣) أن « أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمع وكان فقيهاً روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفي بالإسكندرية سنة ١٦٣ هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبي حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » .

ويذكر ابن فرحون^(٤) والسيوطي^(٥) أن عثمان بن الحكم الجذاي هو أول من أدخل علم مالك بمصر وتوفي سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكندي ص ١٥٤ وأبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠ و ٦٥٥ وأحمد تيمور باشا . ص ٣٨

(٣) المخطوط ج ٢ ص ٣٢٤

(٤) الديباج ص ١٨٧

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

وكلا القولين صحيح ففي ترجمة عثمان الجذائى من « تهذيب التهذيب » لابن حجر المصقلانى ما نصه : « وقال ابن وهب أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد » .

فيظهر أنهما بعد أن تفقها عن الإمام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا بها مذهبه^(١) وقد اشتهر من مدرسة مصر كثير من الفقهاء المالكية نذكر منهم طليب بن كامل اللخمي الذي كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالإسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك . وقد مات طليب في حياة مالك بالإسكندرية سنة ١٧٣هـ^(٢) . ومن فقهاء المالكية في مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المفاوى المصرى ، كان من كبار أصحاب مالك تفقه بان وهب وابن القاسم ومات بالإسكندرية سنة ١٧٣هـ^(٣) .

ومن أشهر فقهاء المالكية في هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة المقتى بالولاء إذ تفقه على الإمام مالك رضى الله عنه ونظرائه وصحب مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت مالك وعنه أخذ سحنون (من أشهر فقهاء أفريقية) وقد ولد ابن القاسم في سنة ١٣٢ وقيل سنة ١٣٣ وقيل سنة ١٢٨هـ وتوفى بمصر سنة ١٩١هـ^(٤) .

(١) تيمور باشا : نظرة في حدوث المذاهب الأربعة ص ٢٠

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧

ومن فقهاء المالكية بمصر في ذلك العهد عبد الله بن وهب بن مسلم
المصري الفهرى مولاهم ، ولد سنة ١٢٥ هـ وقيل سنة ١٢٤ هـ وقد صحب
الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه عشرين سنة : رحل ابن وهب إلى الإمام
مالك في سنة ١٤٨ هـ ولم يزل في صحبته إلى أن توفي ، وسمع من مالك ، وسمع
من مالك قبل عبد الرحمن القاسم ببضع عشرة سنة . وكان مالك يكتب إليه
إذا كتب في المسائل : إلى عبد الله بن وهب المقتي ، ولم يكن يفعل هذا مع
غيره . وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك فقال : ابن وهب عالم وابن
القاسم فقيه . وقد توفي ابن وهب في مصر سنة ١٩٧ هـ ^(١) .

ومن الفقهاء المالكية في ذلك العهد أيضا أشهب بن عبد العزيز بن
داود بن إبراهيم القيسي العامري المصري فقيه مصر وقيل اسمه مسكين ولقبه
أشهب . ولد سنة ١٤٠ هـ ومات في سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الإمام الشافعي
بثانية عشر يوما . وكان الشافعي يقول : « ما أخرجت مصر أफقه من أشهب
لولا طيش فيه » ^(٢) .

ومن مشاهير فقهاء المالكية في مصر في ذلك العهد عبد الله بن
عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصري . كان أعلم أصحاب مالك بمختلف
قوله وأفضت إليه رئاسة الطائفة المالكية بمداشب . وكان من ذوى الأموال
والجاه ، يقال إنه دفع للإمام الشافعي عند قدومه إلى مصر ألف دينار من

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٣١٧ والسيوطى : حسن المحاضرة

ج ١ ص ١٢١

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦ ، والسيوطى :

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠

ماله ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجلين آخرين ألف دينار . ولد في سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٥٥ وتوفي سنة ٢١٤ هـ ودفن بمجوار قبر الإمام الشافعي . وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ومن أخذ عنه بنوه ، نذكر منهم عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذي توفي سنة ٢٥٧ هـ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وقد سجد محمد هذا الإمام الشافعي عندما قدم مصر وتفق عليه ، فلما مات الشافعي رجع محمد إلى مذهب مالك وانتهت إليه الرئاسة بمصر . قال ابن يونس : كان المفتي بمصر في أيامه . وقال غيره : كان من العلماء الفقهاء مبرزا ، من أهل النظر والمناظرة والحجة وإليه كانت الرحلة من الغرب والأندلس في العلم والفقه وقد كان محمد هذا فقيه مصر في عصره على مذهب مالك كأرسخ في مذهب الشافعي وله مصنفات كثيرة وتوفي سنة ٢٦٨ هـ (١).

هؤلاء الفقهاء المالكية بمصر ، نذكرهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . أما المذهب الحنفي فيظهر أن أحداً من أهل مصر لم يذهب إليه إذ ذاك إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة وخاصة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذي ولي قضاء بغداد بعد سنة ١٧٠ هـ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبي حنيفة ، ولم يقبل الخليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف واعتنى به (٢) وطيبى الأبول أبو يوسف أحداً إلا من كان من أصحابه أى ممن يذهب بمذهب أبي حنيفة .

(١) ابن خلكان وفیات الأعيان ج ١ ص ٣١١-٣١٢ والبيوطي : حسن

المخاضة ج ١ ص ١٢٢-١٢٤

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٣

وقد ظل الخلفاء العباسيون يؤثرون للمذهب الحنفي على غيره من المذاهب ،
طوال ذلك العهد الذي نتحدث عنه في مصر ^(١) .

على أنه إذا كان ولي القضاء بمصر في العصر العباسي قضاء على مذهب
أبي حنيفة إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا ذلك المذهب وإنما كان مذهب مالك
هو المنتشر بها . وكان أول من ولي قضاءها من أتباع مذهب أبي حنيفة
القاضي اسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ) ويذكر الكندي ^(٢)
عن أحد الرواة أنه قال : « قدم علينا اسماعيل بن اليسع الكندي قاضياً بعزل
ابن لميعة ، وكان من خير قضاتنا غير أنه كان يذهب إلى مذهب أبي حنيفة ،
ولم يكن أهل مصر يعرفونه وشأنه » .

ويقال إن الليث بن سعد كتب فيه إلى الخليفة المهدي : إنك وليتنا
رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أنا ما علمناه في
الدينار والدرهم إلا خيراً » . فكتب المهدي بعزله ^(٣) .

ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفي إلا أن قضاء مصر في
العصر العباسي لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفي ^(٤) .

ومن هذا نرى أن حظ المذهب الحنفي كان قليلاً في مصر في ذلك العهد
وكان محصوراً في مكان ضيق حينذاك ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكي
حتى قدم الإمام الشافعي إلى مصر وكون مذهبه الجديد بها . فتمتدُّ أخذ
كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب

(١) خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢

(٢) الرواة والقضاة ص ٢٧١

(٣) الرواة والقضاة ص ٢٧٢

(٤) الرواة والقضاة ص ٢٨٢ ، ٢٩٢

الشافعي منافساً للمذهب المالكي في مصر . وقد شعر بعض المصريين حين قدوم الإمام الشافعي إلى بلادهم بالانقسام الذي أحدثه بينهم في مذهبهم الديني . ولا أدل على ذلك مما ذكره الكندي^(١) عن أحد الرواة إذ يقول : « سمعت ابن المنكدر يصيح بالشافعي والشافعي يسمع : يا كذا دخلت هذه . البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر فرق الله بين روحك وجسمك » .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية في ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي الذي كان الشافعي يقول عنه : ما رأيت أحداً أرفع بحجة من كتاب الله مثل البويطي . « ولما مات الشافعي تنازع محمد بن عبد الحكم والبويطي في الجلوس موضع الشافعي حتى شهد الحميدي على الشافعي أنه قال البويطي أحق عجلسي من غير » فأجلسوه مكانه . وقد سعى به القاضي بن أبي الليث الحنفى قاضى مصر إذ ذاك لدى الخليفة الوائق زمن الهبة بمخلق القرآن فحمل البويطي إلى بغداد ولكنه امتنع عن القول بمخلق القرآن فسجن ببغداد ومات في السجن سنة ٢٣١ هـ^(٢) .

ومن فقهاء الشافعية في ذلك العهد عبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعى المصرى ، كان من أكابر العلماء المالكية فلما قدم الشافعي مصر لزمه وتفق على مذهبه . وتوفى في سنة ٣٣٤ هـ^(٣) .

ومن أبرز الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزى مات بالجيزة في سنة ٢٥٦ هـ^(٤) .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٣٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ والسيوطى : حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧ (٤) المرجع نفسه

وهكذا نرى أنه أصبح بمصر في ذلك العهد مذهبان يتماثلان : هما المالكي والشافعي ، ومذهب أقل شأناً تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفي . أما المذهب الحنبلي أو المذاهب الأخرى السنية فلم يكن لها ذكر بمصر إذ ذاك . أما عن المذاهب التي لا تمتد من مذهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج فلم يكن لها أثر إلا في ظروف سياسية معينة ، تحدثنا عنها في الباب الثاني ، ولكنها لم تتمر طويلاً إذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب . وبالرغم من أنه في وقت ما حكمت مصر دولة شيعية هي الدولة الفاطمية ، إلا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية في مصر وقلبها النابض في ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله في هذا مثل الأزهر الشريف الآن . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة وإليه يلجأ الناس للإستفتاء وإليه يفتد الطلاب لتلقى العلوم التي كانت تدرس في ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً في أواخر عصر الولاة . فكان يفتد إليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس وبذلك أثرت مصر على المغرب والأندلس في المذاهب وفي العلوم الدينية التي كانت تدرس حينذاك . ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش المقرئ واسمه عثمان بن سميد المصري الذي تحدر من أصل قبلي وكان مولى لآل الزبير بن العوام . وأخذ القراءة عن نافع وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه . والورش شيء يصنع من اللبن . وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت إليه رئاسة القراء بالليار المصرية وكان ماهراً في اللغة العربية

وتوفى سنة ١٩٧ هـ (١).

ومن أئمة القراءات في مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو ابن يسار المدني ثم المصري . لزم ورشاً مدة طويلة واتقن عنه الأداء وخلفه في الأقرء بالديار المصرية وانفرد عنه بتخليط اللامات وترقيق الراءات . وقال أبو الفضل الخزاعي : « أدركت أهل مصر والمغرب على أبي يعقوب وورش لا يعرفون غيرهما » وتوفى أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ (٢).

ومن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد إذ كان ممن أخذ عنهم الليث بن سعد . وقد توفى البهلول في سنة ١٨٣ هـ وقيل سنة ١٨٢ هـ (٣).

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين في فجر الإسلام عيسى بن دينار ، إذ سمع من ابن القاسم وصحبه وعول عليه . وقد أدرك عيسى أيضاً ابن وهب وأشهد إلا أنه سمع من ابن القاسم واقتصر عليه ثم انصرف إلى الأندلس فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة في الفتيا وكانت له فيها رئاسة وبه ويحجي ابن يحيى انتشر مذهب مالك في الأندلس . وتوفى عيسى سنة ٢١٢ هـ في طليطلة (٤).

ومن أساتذة ذلك العهد أيضاً زكريا أبو يحيى الوقار المصري . كان من موالى قریش وقيل من موالى عبد النار وروى عن ابن القاسم وابن وهب

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ والسيوطى : حسن المحاضرة

٢٠٧ ص ١٢

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

(٣) Ben Cheneb: Classes des Savants de l'Ifrîqiya, pp. 112-125

وابن فرحون : الديباج ص ١٠٠ - ١٠١

(٤) ابن فرحون : الديباج ص ١٧٨ - ١٧٩

وأشهب وغيرهم وكان مختصاً بابن وهب . وقد ذهب إلى أفريقيا سنة ٢٠٥ هـ علم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٢٥٤ هـ وقيل سنة ٢٦٣ هـ (١)

ومن يستحق التنويه من مدرسة مصر في ذلك العهد أيضاً أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض ابن إبراهيم المصري المعروف بذي النون . كان أوحده وقته علماً وورعاً وأدباً وزهداً ، روى عن الإمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة والفُضَيْل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم وكان مولد ذي النون بأخميم . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية . وله فضل كبير في وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد انكر عليه أهل مصر وقالوا أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة وسبى به بعض أعدائه لدى الخليفة التوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى التوكل ورده مكرماً . وتوفي ذو النون بمصر في سنة ٢٤٥ هـ (٢) .



وكانت الإسكندرية عند الفتح العربي أهم مركز في الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية . ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسية وكان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلمية تبعاً لذلك . ولسنا نستطيع أن نفعل الحديث عن أمر طالما كثرت فيه الجدل . ذلك هو حريق مكتبة الإسكندرية الذي

(١) Ben Cheneb: *Classes des Savants*. P. 174 . وابن فرحون :

الدِّيَاج ص ١١٨

(٢) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ والدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٦ وآدم مقرر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥ .

(٣) جبر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠

نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن الماص ونفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربي وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه أنه أمر عامله عمرًا بأن يحرق المكتبة .

وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ ميلادية) وقد ذكر أنها حُرقت بأمر عمرو بن الماص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تبجل غوامضه . أما الذى أتى على قصته طويلة في مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج ابن العبري . وهو مؤرخ ولد في ملطية بأرمينية سنة ١٢٢٦ ميلادية ودرس اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك اسقفًا وتوفي سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) .

وملخص القصة التى رواها أبو الفرج اللطفي هذا أنه في زمن فتح العرب مصر اشتهر في البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراماطيقوس) والظاهر أنه كان من القسس اليمانية في الاسكندرية وأنه رجع عما يعتقده اليمانية في طبيعة المسيح وطلب إليه الأساقفة بمصر أن يعود إلى المذهب الأرثوذكسى فلم يرجع فمزله مجمع منهم . وعاش يوحنا هذا إلى أن فتح عمرو بن الماص مدينة الاسكندرية فأتصل بعمرو وأعجب هذا بزيارة علمه فقرّبه إليه . ثم قال يوحنا له في يوم من الأيام : « إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على ما فيها ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندما نافع » فقال عمرو : « وما الذى تقصد ؟ » فأجاب يوحنا : « كتب الحكمة الموجودة في خزائن الروم » فأجاب عمرو بأن ذلك أمر ليس له فيه رأى قبل استئذان الخليفة . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستفتيه في المسألة فأجابه عمر : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق

ما جاء في كتاب الله في كتاب الله غنى عنه . وإذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم بإعدادها ، فأمر عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها في مواقدها ستة أشهر .

هذه هي القصة التي رواها أبو الفرج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (١٣م) كما أشار إليها من قبل عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي صاحب كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء من كتاب النصف الأول من القرن السابع (١٣ م) . وربما كان ابن القفطي وأبو الفرج بن العبري أخذاهما عن البغدادي .

وعلى كل حال فإن الشك في صحتها قديم بين المؤرخين المحدثين فإب
إدوارد جيبون المؤرخ الإنجليزى المشهور الذى كتب بين سنتي ١٧٧٠ و ١٧٨٧
مؤلفه المشهور عن تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ناقش هذه القصة ونفاها
(جزء ٩ ص ٤٣٧ وما بعدها) .

وربما كان الأفضل بنا الآن أن نلخص في بضع تقط الجدل الذى دار
حول هذه المسألة .

أولا — إن اتهام المسلمين بإحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون إلا بعد
أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الإسكندرية . وإذا جاز لنا أن نهم
المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى
والطبرى بأنهم أحجموا عن الإشارة إلى ذلك تعصبا منهم للمسلمين — مع
أن هذا غير معقول لأن عقلية العرب لم تكن لتتغير بهذه السرعة — نقول
إذا جاز ذلك فلسنا نجد شيئا يفسر به عدم الإشارة إليها في كتب المؤرخين
المسيحيين مثل حنا النقيوسى الذى كان قريب العهد بفتح الإسكندرية
ومثل سميذ بن بطريق (أوتينخا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٦٠ م) .

ثانياً — اثبت الدكتور الفرد بتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر أن يحيى النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر زمن طويل ثالثاً — إن كتاب القرنين الخامس والسادس وأوائل القرن السابع بعد ذلك لم يذكروا شيئاً عن مكتبة الإسكندرية والواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة إلى واحدة منهما أو إليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى زمن طويل — فالأولى وهى مكتبة المتحف أو الجامعة اتلفتها النار سنة ٤٨ ق. م فى الحريق الذى أحدثه بوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك التوفى سنة ١٢٥ م وغيره من انؤرخين . أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرايوم فليس العلماء متفقين فى أمرها ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرايوم قبل سنة ٣٩١ م وهى السنة التى اشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكم الطرفان الأميراطور ثيودوسيوس فقضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخرّبوا السرايوم وكان حصن الوثنية المنيع بل الواقع أن مجاه الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثائرين واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة . فيمكننا إذن أن نجزم بأن هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولا سيما أن أوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرايوم فارغة ليس فيها شيء من الكتب ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية .

رابعاً — إذا سلمنا جدلاً بأن الإسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الإسلامى على مكتبة كبيرة فأت المهدنة التى عقدت بين المسلمين وأهل الإسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا كنوز هذه المكتبة إن لم يكن لقيمتها العلمية فلقيمتها المادية . ونحن نعلم أن العرب

أباحوا للروم نقل ما يريدون من متاع وأموال .
خامساً — إن عناصر القصة تدل على أنها خرافية ولا أثر للتباسك بين
أجزائها المختلفة . من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة واتخاذها وقوداً
مدة ستة شهور . فإن القائد الذى يأبى إعطاءها لصديقه ويريد حرق الكتب
تنفيذاً لأمر الخليفة يحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل
تقدير — ولا يدفع الكتب إلى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها
للناس بثمن بخس . ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق .
والرق لا يصلح للوقود وليس من المقول أن يكفى الباقى مدة ستة أشهر
وقوداً للأربعة آلاف حمام التى زعم العرب وجودها فى الإسكندرية

سادساً — إن الذين يؤيدون دعوى إتهام المسلمين بحرق المكتبة بأنهم
حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى
بأى دليل من المؤرخين الأقدمين ويكتفون بحاجى خليفة وهو كما نعلم من
مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) فلا يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد
سابعاً — إن الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبة لم يروها
ابن العبرى فقط ، وقد يظمن فى قوله بالتمصّب ؛ بل رواها مؤرخان مسلمان
هما عبد اللطيف البندادى وابن الففطى ، هذا الاحتجاج ليس قوياً لأن هؤلاء
المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، ولعلمهم ،
ثلاثتهم ، أخذوا عن مصدر مشترك كان متعصباً ضد الإسلام ولم يصل
إلينا . أو لعلمهم صدقوا الروايات التى كانت تتناقضها الألسن والتى لم يكن
الغرض منها إلا الطعن على المسلمين فضلاً عن أن عبد اللطيف لم يشر إلى
المسألة إلا عرضاً عند كلامه على عمود السوارى .

ثامناً — إن التعاليم الإسلامية تحترم الديانات السماوية وإن المسلمين لم

يكونوا ليقدموا على هذا العمل ، ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك
للمسيحيين الحرية الدينية وأن لا يتدخل المسلمون في شئونهم - وحرقت
المكتبة يعتبر خرقاً لهذه الشروط لأنه لا شك في أنها كانت تحتوى على
كتب دينية كثيرة .

وهكذا انتهت إلى أن مكتبة الإسكندرية حُرقت منذ عهد يوليوس قيصر
سنة ٤٧ ق . م بعد ذلك بأربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية
وقضى الأمبراطور ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية .

ومع ذلك كله فإن في التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن إحراق الكتب لم
يكن في يوم من الأيام وفقاً على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات
فالصليبيون أحرقوا الكتب في طرابلس الشام في القرن الثالث عشر
والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس .
وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التي وقعت في أيديهم عند ما فتحوا
مدينة قسطنطينية في تونس كما يشهد بذلك المؤرخ الفرنسي سديلو نفسه
وليس ببعيد أيضاً ما فعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التي ألفها
اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون .

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفتح العربي لم يقض على الحياة العلمية في
الإسكندرية ، ولا سيما في العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء
الروم غادروها بعد الفتح

وحسبنا دليلاً على النشاط العلمي في الإسكندرية في فجر الإسلام ما ذكره
ابن النديم ^(١) من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر

(١) القهرست (طبعة ليزج سنة ١٨٧١ م) ص ٢٤٢

باحصار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم إلمام
بالعربية، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية
إلى العربية، فكان هذا أول نقل إلى العربية في الإسلام. وذكر ابن
أبي أصيبعة أنه كان في الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن ابجر وكان
يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه في صناعة الطب حين كان
أميرا وبعد أن صار خليفة. كذلك أرسل الخليفة هرون الرشيد في طلب
بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له^(١).

وقد احتذى حنين بن اسحق، طبيب بغداد الذي عاش القرن الثالث
المجهرى، حذو الاسكندرانيين في التأليف^(٢). لكن يظهر أن مدرسة
الاسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك، فإن الأقباط لم يهتموا اهتماما
كبيرا بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية. أما العرب والأقباط الذين أسلموا
فقد أقبلوا على دراسة العلوم الإسلامية الدينية. ولعل بعض المصريين
المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية الرومانية، فيذكر ابن النديم^(٣) أن
ذا النون المصري كان من الفلاسفة الذين تكلموا في علم الصنعة (الكيمياء).
والواقع أنه إن كان لمصر في عصر الولاة نصيب في حفظ تراث اليونان
والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب، فانما هو في تركها علماء الروم يفادرون
مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفي عدم تمرضها لمدرسة الاسكندرية
أو للأديرة التي كانت مراکز الثقافة المسيحية في مصر.

(١) طبقات الأطباء — (القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) — ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣.

(٣) الفقهى ص ١٧١ — ١٧٢

(٤) الفهرست ص ٣٥٣

الخاتمة

تبوأ مصر مركزاً ممتازاً في الدولة الإسلامية عقب الفتح العربي وذلك لغزوتها وخيراتها الوفيرة ولوقوعها العالي الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحياناً أبناءهم أو أخوتهم أو أفراداً من البيت الخلفي القائم بالحكم . وقد كانت مصر كالمرآة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التي تحدث في دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة إلى منصب الخليفة . وبالرغم من أنه نشأت في مصر فتن وخرافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت في الإسلام بدع ونجل وفتن دينية كثيرة ، إلا أن مصر بعد الفتح العربي أقبلت على اعتناق الإسلام ولم يكن لها يد في إثارة الخلافات الدينية التي قامت في العالم الإسلامي . وإن كان قد أثير فيها بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثيرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تمود الحياة ثانية إلى مجاريها .

ويشبه التقسيم الإداري في مصر الإسلامي التقسيم الذي كان معروفاً في مصر اليوناني الروماني ولكنه لم يكن مماثلاً له كل الماثلة . كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطي ، وبعبارة أخرى النظام الديواني الذي كان سائداً في الإدارة المصرية قبل الفتح أثر في العرب فكانت الإدارة مركزية في دواوين الحكومة بالعاصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل أو الانشاء ، وديوان الجند وديوان القضاء . ولهذا يقول لامانس

Lamians : Un gouverneur Omayyade d'Egypte. p. 106. (١)

فجر الإسلام - (٧٧)

Lammens أن الوثائق البردية العديدة التي اكتشفت حديثا تقدم دليلا ماديا على وجود نظام بيروقراطي استمدته العرب من البيزنطيين .
ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا اقليمين منفصلين من الوجهة الإدارية ومع ذلك فإن أصحاب الكورات كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد .
والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين في العصر الإسلامى من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة .
ونلاحظ أن الغرض الأساسى للإدارة كان ينطوى على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كان الحال في العهد البيزنطى .
وكان العامل على الصلاة والعامل على الخراج متساويين في الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية في القطر ، بل حدث كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذا من الوالى . وأحيانا كان الوالى يجمع بين المنصبين . وفي الواقع لم تكن سلطة الوالى مطلقة في ولايته على مصر ، بل كان يجد منها نفوذ العامل على الخراج ونفوذ الجند ونفوذ الموظفين . ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى دائما إلى أن يضاف إليه اختصاص هذا المنصب ليصبح واليا على الصلاة والخراج معا . ولم يكن في الجمع بين هذين المنصبين بأس ما دامت الحكومة المركزية في مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب . ولكن عندما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال الوالى وتفكك الامبراطورية ، فترى ابن طولون يتنازع مع ابن الدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله إلا بعد تخلصه من ابن الدبر .
والظاهر أن العرب وجدوا في مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما . وكان هذا النظام يعمد إلى حد كبير عن الاتصال

بالفلاحين ودافى الضرائب مباشرة ، وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جدا ، وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص . ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحلون محل هؤلاء الملاك في جمع الضرائب ، وإلى أى حد وبأى سرعة تم هذا التغيير . ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ، ولكن أخذ العرب يحلون محلهم تدريجيا في امتلاك الأرض وضمان الخراج . وقد كان فلاحو القرية متضامنين في الضرائب التي تفرض عليهم وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم إلا باذن من الحكومة وقد اتخذت الحكومة في بداية العصر الإسلامي اجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة إلى أخرى ولكشف المهاجرين وإعادةتهم أو الاذن لهم بالاستقرار في مقرهم الجديد ضمنا لحسن سير فلاحه الأرض ولجمع الضرائب . كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو المنقولات من مكان إلى آخر إلا بتصريح ، ويدل على ذلك أمثلة عديدة في أوراق البردى^(١) .

وقد كان في مصر ديوان للخراج والأموال^(٢) ويظهر أن بيت المال في مصر لم يكن وفقا على حفظ أموال الضرائب فحسب^(٣) ، فانا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل إلى أبي عون وإلى مصر (١٣٣ - ١٣٦ هـ) يأمره بادخال أموال اليتامى في بيت المال^(٤) ، وربما كان يرد إلى بيت المال أيضا

Voir: J. Karabacek: Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch (١) die Ausstellung. Wien 1894. pp. 158, 148

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يذكر ابن رسته أن مقر بيت المال كان في المسجد الجامع (الأعلام

النفيسة ص ١١٦)

(٤) الكتندى ص ٣٥٥

الوارث التي يموت أصحابها دون أن يكون لهم ورثة . ولعل خمس الغنيمة التي كان يقنمها المصريون في فتوحاتهم في الغرب والجنوب كانت ترد إلى بيت المال أيضا .

ويبدو من المصادر الإسلامية والمسيحية في تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسي الذي كان يعني به العرب هو الجزية التي كانوا يجمعونها من القبط . ويظهر أن الادارة المالية كانت معقدة وأن الذين كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط . ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تقيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد في عصر الولاة لا تحكها أسرة تحرص على ازدهارها ، لم تكن من الوجهة المالية إلا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج ، إذ كان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن .

ومن النظم التي وجدت قبل الفتح العربي وأخذ بها العرب نظام الالتزامات المعروف في العالم الكلاسيكي باسم *Leiturgia* ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففي أثينا كان كل مواطن يمتلك نصيباً معيناً من الأملاك يقدم إلى الدولة بعض الخدمات الشخصية^(١) .

ولكن هذا النظام لم يكن في العصر الإسلامي عاماً كما كان عند الإغريق بمعنى أنه كان ظاهراً في الضرائب وما يتصل بها ، فكانت السكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ في مقابل إعفائها من ذلك . وفي بعض

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت في البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السياسية التي يتمتع بها الأثرياء . فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أقل من نصيب الفقراء . ولكن لما ازدهرت الديمقراطية في أثينا وأصبح المواطنون متباوين في الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الالتزامات وصارت نوعاً من ضرائب الدخل .

الأحيان كان الوالى يوصى عمله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الإعفاء من أدائها .
ومن أهم أنواع الالتزام أو التبتورجيا .

١ — تقديم المال والأدوات اللازمة لتشبيد الطرق وحفر الترغ أو كرمها

٢ — تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشهر بإنتاجه الكورات .

٣ — إيواء الجند وضيافتهم .

٤ — تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ — تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشبيد المباني العامة في

مصر بل ولعمارة المساجد في الشام وبلاد الحجاز .

٦ — تقديم البحارة ومواد بناء السفن^(١) .

ورأينا أيضاً أنه كان هناك مصانع حكومية للنسيج (طراز الخاصة)

ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) . وكانت الحكومة

في عصر الولاة بل والى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانعها

الخاصة بينما أصبحت في عصر المماليك تعتمد على المصانع الأهلية العامة .

ولا نعرف إذا كانت التجارة الخارجية في عصر الولاة مع أقاليم البحر

الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه في العصر اليونانى الرومانى ، أم

أخذت في النمو والزيادة تمهيداً للازدهار الذى وصلت إليه في عصر الأيوبيين

والمماليك . والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدراً كبيراً لثروة ذوى الأمر

في مصر إلا منذ الدولة الأيوبية . ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا في

النشاط التجارى الخارجى إلا بقدر ضئيل ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال

المصريين بوجه عام على التجارة في المصور القديمة . ويرجح أن معظم التجار

في عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة المادرائين العراقية ، التي اشتهرت قبيل العصر الطولوني وظلت واسعة النفوذ ورفيعة المكانة إلى العصر الأخشيدى ، وكان لليهود شأن عظيم في التجارة في ذلك العصر .

ولا نعرف إذا كانت مصر في عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم إلا إذا استثنينا ما فعله ابن الدبر في نهاية هذا العصر من الحجر على النطرون بعد أن كان مباحا لكل الناس^(١) كذلك أدخل ابن الدبر المرامى ، أى الكلاب الذى ترعاه الدواب ، في الديوان وحرّم على الناس أن يبيموا المرامى أو يشتروها إلا من الديوان^(٢) .

وقد احتفظت مصر في هذا العصر من الناحية الفنية (المهارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول إلى الروح الإسلامية في هذه الفنون تحولاً بسيطاً . ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية إلى الأساليب الفنية العباسية التي سادت مصر في العصر الطولوني .

ولم يكن للمصريين في عصر الولاة حق الاشتراك في الجيش فكان رجال الجيش النظامي والأسطول من العرب . ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل الطوعة وربما كان أغلبهم من المصريين ، كذلك كان يجتمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقاً لنظام الالتزامات أو الليتورجيا . ولا ينفي هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا في صلب الجيش إذا كانوا يقومون بأدوار ثانوية كما أنهم لم يثبتوا في ديوان الجند ولم يصرف لهم العطاء الذي كان يصرف للفرق النظامية . ونجد أن العنصر العربي في الجيش

(١) خطط القرينى ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٩ .

Zaky M. Hassan: Les Tulunides. p. 244.

(٢) خطط القرينى ج ١ ص ١٠٧ . Zaky M. Hassan: op. cit. p. 244.

والأسطول يقل ابتداءً من العصر العباسي لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزراعة والتجارة ويصبح قوام الجيش من الفرس أولاً ثم الترك ثانياً حتى أتى المتصم في بداية القرن الثالث الهجري فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الديوان.

وقد ترك العرب المصريين أراضيهم وأمنوم عليها وفرضوا عليها الخراج ولم تكن أرض مصر، في بداية هذا العصر، أرض خراج غصب بل نشأت فيها أرض العشر، إما قطيعة منحت لبعض المسلمين. أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء، أو أرض موات احتلوها. كذلك كان القبطى الذى يمتنع الإسلام تصبح أرضه عشرة. ولكن نجد أنه مضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر إلى مالكمها سواء أكان قبطياً أم مسلماً، ولا نعرف متى كان هذا التحول بالضبط والراجع أنه كان في العصر العباسي

وكانت أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة عجيبة زمن الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن مصعب الخثعمي والياً على مصر (١٦٧ - ١٦٨ هـ). ولا بد أن بعض ولاية مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الأثراء وجمع الأموال الطائلة، وخاصة في العصر العباسي، حين كثر تولية المال وعزلهم. ولا نعرف هل كان الولاية في هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها إلى خزانة الدولة ثانية، كما كانت يحدث في عصر الطولونيين والأخشيديين، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جداً في مقر الخلافة في القرن الثالث الهجري ولا سيما في حالة الوزراء حين عزلهم^(١). وربما كانت

(١) انظر كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الهلال الصابئ

مثل هذه المصادرات مألوفة في عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والأخشيديين رغبة منهم في تنمية ثرواتهم الخاصة^(١).

ومن المدن التي اشتهرت في عصر الولاة مدينة القسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ومينائها الهام ومقر البطركية . « وقد ظلت الإسكندرية محافظه على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة حتى أول القرن الرابع الهجري ، حيث نجد في إحصاء أموال الدولة أفراد باب خاص بعنوانه . مصر والإسكندرية ، فقد حافظت الإسكندرية على مكانتها باعتبارها قسما مستقلا بجايتة كما كان الحال على عهد البطالسة^(٢) » . ومن المدن الهامة أيضا في هذا العصر تنيس ودمياط وبورة وتوتة ودميرة وديق وشطا واهناسيا والبهنسا وأسيوط وإخميم والفيوم . وكلها تدين في شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسيج . كذلك اشتهرت منطقة البشموور بثورتها المتعددة كما رأينا في الفصول السابقة .

وقد حدثت في عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت في العصور التى تلتها مثل العصر الأخشيدى والفاطمى والأيوبي . وعصر المماليك . ويذكر الكندى^(٣) والمقريزى^(٤) أن أول غلاء وقع بمصر بعد فتح العرب كان في سنة ٨٧ هـ ، وكان هذا أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر . ولا يذكر الكندى أو المقريزى مجاعة أخرى حدثت في مصر قبل ذلك أو بعده طوال عصر الولاة . على أن المؤرخ ساويرس ، الذى استمد معلوماته من

(١) فارن آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٤٠ ، ١٩٤

(٢) متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٨

(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩

(٤) إغاثة الأمة ص ١١

وثائق ترجع إلى هذا العصر ، يتحدثنا عن مجاعات أخرى حدثت فيه .
فيذكر أنه في ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر (٢٥ - ٤٥ هـ)
حدث غلاء عظيم كان يموت بسببه كل يوم عدد لا يحصى^(١) ولكن
لا يذكر لنا في أى سنة كان هذا الغلاء أو المدة التي دام فيها .

وفي عهد أسامة بن زيد عامل خراج الخليفة سليمان بن عبد الملك حدث
غلاء عظيم مات بسببه خلق كثير^(٢) كذلك حدث غلاء عظيم لنقص مياه
النيل في أول سنة من ولاية القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب خراج مصر^(٣)
كذلك حدثت مجاعة في خلافة المأمون قبيل ثورة البشموريين التي أخضعها
الخليفة^(٤) .

ونلاحظ أن المجاعات التي حدثت في مصر منذ المصور القديمة يرجع
معظمها إلى نقص مياه النيل نقصاً يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضر بها ،
ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة كان يترتب على الإضرار
بالزراعة غلاء ومجاعات .

ويذكر القريري^(٥) أن الغلاء إنما يحدث من آفات سماوية في غالب
الأمر كقصور جرى النيل بمصر وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز
وغيره ، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها أو جراد
يأكلها ، وما شابه ذلك . ولا بد أن المجاعات والأوبئة التي حدثت في
مصر ، والثورات القبطية ، والغزوات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، والنفن

(١) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient t. I. p. 287)

(٢) Part Orient. t. 5. p. 67.

(٣) Patr. Orient. t. 5. p. 97.

(٤) Patr. Orient. t. X p. 486.

(٥) إغاثة الأمة ص ٤١

للدخيلة والمحن الدينية ، لا بد أن كل هذا أثر رعاها وثروتها ، إلا أنه لم يؤثر فيها تأثيراً بليغاً كما كنا ننتظر في قطر آخر ، وذلك لأن هذه الظروف كانت متقطعة ومتفرقة ، فضلاً عن خصوبة أرض مصر الدهشة^(١) وقد كانت هجرة القبائل العربية إلى مصر ، ثم اختلاط العرب بأهل وادي النيل ، ثم تحول الحكم في العالم الإسلامي إلى ملك استبدادي يعتمد على الفرس ثم الأتراك ، كان كل ذلك مؤدياً إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين وإلى اندماجهم في سلك المحكومين وتغير المركز الذي كان يريد لهم الخليفة عمر بن الخطاب . فالفكرة الأساسية الأولى في حكومة الأباطورية العربية كانت تنطوي على أن تكون الدولة العربية حرية تديرها الأرستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون في مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للأرستقراطية العربية . فهو شبيه من بعض الوجوه بنظام الحماية في العصر الحديث . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلاً للأسباب السابقة ، ونظراً لأن الدين الإسلامي نفسه ذو طابع دولي فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية . وعندما قضى نهائياً على مقاومة القبط في بداية القرن الثالث الهجري — ذلك القرن الذي شهد أيضاً انحدار العنصر العربي وفقده امتيازاته اللهم إلا من الناحية اللغوية والدينية — كان من السهل أن تتم فيه حركة الاندماج بين العرب والمصريين . وظاهرة تمصير العرب وتعريب مصر ونشر الإسلام فيها هي أم الظواهر التاريخية في مصر الإسلامية . واستمرت تلك الظاهرة بعض الشيء إلى عصر المماليك . ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الإسلام فيها ليسا مترادفين

وقد كان هناك عوامل لها بعض الأثر الضعيف في تعريب مصر . ومن ذلك تعريب الدواوين الذي حدث نظرياً في سنة ٨٨٧ م (٧٠٥ - ٧٠٦ م) ، ولكن وثائق البردي في مجموعة افروديتو تدل على أن الحكومة في عصر هذه الوثائق كانت تستخدم العربية واليونانية ، بينما كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيراً بالقبطية . وكذلك نجد وثائق ذات لغتين (عربية ويونانية) إلى القرن الثاني الهجري بل أنه وجد اتصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية^(١) . ومن العوامل ذات الأثر الضعيف في التعريب أيضاً اتصال العرب في العاصمة الجديدة (الفسطاط) بالأهلين واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم في الريف بأهلهم .

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية في الريف المصري واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادي النيل وفي الدلتا ، مما أدى إلى اختلاطهم بالقبط اختلاطاً كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية في مصر وإلى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية في العهد العثماني لغة البلاد الرسمية ، ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصري ، فكان اليونان ينزلون المدن ويسبقونها بمحاضراتهم ولكن نفوذهم الثقافي لم يذهب للريف إلا قليلاً ، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا في بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع . وكذلك عاش الآراك في بيئات خاصة في مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركي دام عدة قرون . ولكن حدث في عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك

(١) جروهان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٨

الفلاح المصرى القديم لفته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه . أما عن انتشار الإسلام في مصر فنلاحظ أن بيكر Becker من الكتاب الذين يشيرون إلى أن العامل الأساسى في انتشار الاسلام بين القبط هو العامل المالى والاجتماعى ، وإن كانت هناك اضطهادات وإرغام على اعتناق الاسلام فقد كانت نادرة (١) .

ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة إذا قرأنا ساويرس أسقف الأشموتين ، وهو الذى لا يشك في كتاباته في هذا الصدد ، والذى لم يكن ليفعل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين .

على أن القبط الذين ظلوا على دينهم لم يقفوا مكتوفى الأيدي طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة المالية ، بل قاوموها ، فعند ما زاد عدد القبط الذين دخلوا في الاسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد ، زاد العبء على من بقى على دينه من القبط ، وكذلك اشتدت الحكومة في استئصال الأرض الموات وفي مراقبة الزراعة والهجرة ، فلم يزل القبط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى ، وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى ، على أن معظم تلك الثورات كانت في الوجه البحرى . وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وإرغامهم على النزول على إرادتها ، وكان آخر هذه الثورات وأعظمها تلك الثورة التى انتهت في بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ ، ٨٣٢ م) بمجى الخليفة المأمون وإخضاعه للثائرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المسلمون أغلبية في القطر المصرى .

Becker: Islamstudien, 1. p. 254

(١) وانظر أيضاً L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman p. 114.

كذلك نلاحظ أن الرهبان كانوا يبنضون الولاية لأنهم كانوا يفتنون في البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ عبد العزيز بن مروان سنة فرض الجزية عليهم . ولعل الولاية كانوا يحاربون الرهينة لأنها تحرم البلاد من الأيدي العاملة . وهذه المداوة بين الرهبان والولاية تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين في ذلك العصر — وجلهم من الرهبان — ضد الاسلام والحكومة الاسلامية .

وقد ظل الاسلام ينتشر في مصر إلى عصر المماليك . وحدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجا في الدين الاسلامي على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط^(١) . والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط كل ذلك لم يمنع الشعب نفسه من أن يسيء معاملة القبط في بعض الأحيان . ونرى أن التضيق على أهل الذمة بالتزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو إنشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى إلا فترات قصيرة جداً ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لا يهمل هذه الالتزامات هو الذي كان يدفع الحكومة إلى العمل على تنفيذها في فترات معينة . والظاهر أن الدواوين كانت غاصة بالموظفين القبط إلى عصر المماليك مما كان سبباً في قيام عدة ثورات في هذا العصر (القرن ٨ ، ١٤ م) أشار إليها القريري^(٢) ، وكان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدواوين .

وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكاً بروح الدين

(١) خطط القريري ج ٢ ص ٤٩٧ — ٥٠٠ .

(٢) المخطط ج ٢ ص ٥١٢ — ٥١٧ .

وما يقضى به من التسامح وضمانا لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحيانا إلى التقرب إلى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها .

ونلاحظ أن مصر في فجر الإسلام كانت مركزاً هاماً للحركة العلمية الدينية في الدولة الاسلامية . وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هو الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن . وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجرى علماء أدب ودين ولغة وتاريخ لهم مكانتهم الرفيعة في التراث العربى . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء أفريقية والأندلس بوجه خاص .

وقد رأينا أن الشعور الوطنى بين المصريين كان ضعيفا في فجر الإسلام فلم يكن في ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطنى ، بل كانت كلها بسبب الضرائب . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب على القضاء على حركات القبط وعلى دفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامى وإلى استعمال اللغة العربية .

وقد كانت الحالة في مصر بمكس إيران مثلاً . فلا نعرف في مصر حركة شعوبية كما كان في شرق العالم الإسلامى . ففي عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون ويناقشون العرب ويمددون مزاي الفرس . وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب والمعجم باسم حركة الشعوبية فكان المعجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعا ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدل بين العرب والمعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى

لهم فضلا على العجم^(١) وهذه الحركة وإن كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والعجم ، إلا أنها تعبر عن تمسك الإيرانيين بتراسهم الوطني وثورتهم على سيادة العرب التي قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيقة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم . وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس إلى اتباع نحل غربية على الدين الإسلامى ، ولم تكن هذه الحركات فى الحقيقة سوى حركات سياسية دينية إيرانية ترمى إلى إقامة دولة فارسية تعود إلى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم . كذلك نجد أن بعض الأسرات التى قامت فى فارس كانت أسرات فارسية كما كانت الحال فى الدولة الطاهيرية بخراسان (٢٠٥ — ٩٥٢ هـ) والدولة الصفارية بفارس (وهو الإقليم الإيرانى الذى يقع شرق الخليج الفارسى) (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ودولة بنى ساج فى آذربيجان (٢٦٦ — ٣١٨ هـ) والدولة السامانية فى إقليم ما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) .

أما فى مصر فإن الأسرات التى قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد ظل الروح الوطنى قائما فى إيران حتى أمكن قيام شاعر وطنى ، مثل الفردوسى الذى نظم الشاهنامة بالفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، بينما فى مصر اضطرت رجال الدين الأقباط منذ القرن الرابع الهجرى إلى الكتابة باللغة العربية وإلى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم . وكانت

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ط . القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ - ج ٢

مصر خاضعة خضوعاً تاماً للخلافة طالما كانت الخلافة قوية الجانب . ولكن بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة العباسية في أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون . وما لبث أن وضح ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم في حكم الدولة بالأتراك الذين تحكموا في شئون الدولة المدنية والحربية ، حتى أصبح بيدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) انتخاب الخلفاء وعزلهم ، ولذا نجد أن النزعة إلى الاستقلال تظهر في مصر واضحة جلية في أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما ، بل إن السرى وأولاده استطاعوا الاستقلال عن الخلافة وحكموا القسطنطينية عاصمة مصر أكثر من عشر سنين ، إلى أن نجح المأمون في إعادة مصر إلى حوزة الخلافة ثانية في سنة ٢١٢هـ .

على أن أحمد بن طولون الذي قدم إلى مصر في سنة ٢٥٤هـ واليا على الصلاة من قبل بابك صاحب إقطاعها ، وجد مصر ولاية إسلامية تامة التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سيما بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالاً فعلياً في الواقع واسمياً في الظاهر ، بل إنه نجح في ضم سورية إلى مصر وفي تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاماً ، وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الإسلامية .

المراجع

١ - المصادر القديمة

- ١ - ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ هـ و ١٢٣٢ م) : «الكامل في التاريخ»
١٢ جزءاً . ليدن ١٨٦٦ - ١٨٧٤ م .
- ٢ - : «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ٥ أجزاء . القاهرة ١٢٨٥
- ١٢٨٦ هـ .
- ٣ - الأزرق (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م أو ٢٢٣ هـ /
٨٣٨ م) :
«أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» جزءان . الطبعة المجددية بمكة
المكرمة . ١٣٥٢ : ١٣٥٧ م .
- ٤ - ابن أبي أسيبعة (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ - ١٢٧٠ م) :
«طبقات الأطباء» جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٥ - البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ - ٨٩٣ م) : «كتاب فتوح البلدان»
ليدن ١٨٦٦ م .
- ٦ - بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) : «زبدة الفكرة في
تاريخ الهجرة» الجزء الرابع مخطوط رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة
فؤاد الأول .
- ٧ - حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) : «كشف الظنون عن
أسماء الكتب والفنون» ٧ أجزاء . ليدن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ م
- ٨ - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٤٩ م) : «الاصابة
في تمييز الصحابة» ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ هـ .
فجر الإسلام - (٢٤)

٩ — حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى) :

« تاريخ »

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte Ethiopien
publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits
des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres
bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ — ابن خرداذبه (ت حوالى ٣٠٠هـ / ٩١٢ م) : « كتاب المسالك
والممالك » (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية).

ليدن ١٨٨٩ م .

١١ — ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : « المعبر وديوان

المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء . القاهرة ١٢٨٤ هـ . . .

١٢ — — : « المقدمة » . القاهرة ١٢٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .

٢٣ — ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١ م) : « وفیات الأعيان » جزءان .

القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٤ — ابن الداية (ت ٣٣٠هـ / ٩٤١ م أو ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م أو ٣٤٠هـ /

٩٥١) : « سيرة أحمد بن طولون » . برلين ١٨٩٤ م .

١٥ — الشريف الأدريسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤ — ١١٦٥ م) : « صفة

المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب

زهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . لندن ١٨٦٤ — ١٨٦٦ م .

١٦ — ابن دقاق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : « كتاب

الانتصار لواسطة عقد الامصار » الجزء الرابع والخامس . بولاق

١٣٠٩ هـ .

١٧ — الدينورى (ت ٢٨١هـ / ٨٩٤ م أو ٢٩٠هـ / ٩٠٣) : « الإخبار

- الطوال . القاهرة ١٣٣٠ هـ .
- ١٨ — ابن رسته : « العلاقات النفيسة » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م .
- ١٩ — ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ / أواخر القرن ١٠ م) : سير الآباء البطارقة (الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة *Patrologia orientalis* . باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥ .
- ٢٠ — ابن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : « الطبقات الكبير » ٨ أجزاء . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م .
- ٢١ — سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوتيسخا (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزءان . بيروت ١٩٠٥ و ١٩٠٩ م .
- ٢٢ — السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) « تاريخ الخلفاء » : القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٢٣ — — : حسن المحاضرة : جزءان . القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ٢٤ — ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) : « فوات الوفيات » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٢٥ — أبو صالح الأرميني : « تاريخ » المعروف بكنائس وأديرة مصر . طبعة *Evetts* . اكسفورد ١٨٩٥ م .
- ٢٦ — الاصطخري « كتاب مسالك الممالك » : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧ م .
- ٣٧ — ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الطبعة الثانية — مطبعة المعارف بمصر .

- ٢٨ — الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك »
١١ جزءاً — الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية المصرية .
- ٢٩ — ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ — ٨٧١ م) : « فتوح مصر
وأخبارها » طبعة توري Torrey . نيوهافن ١٩٢٢ م وطبعة هنرى
ماسيه Henri Massé . المعهد العلمى الفرنسى . القاهرة ١٩١٤ م
- ٣٠ — ابن العميد المعروف بالسكين (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ — ٢٢٨٤ م) :
« تاريخ السالكين » ليدن ١٦٢٥ م .
- ٣١ — أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « المختصر فى
أخبار البشر » ٤ أجزاء . الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ
- ٣٢ — ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ — ١٣٩٧ م) : « كتاب الديباج
المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » . القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٣٣ — ابن الفقيه (ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م) : « مختصر
كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) ليدن
١٨٨٥ م .
- ٣٤ — ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) : « كتاب
الامامة والسياسة » . جزءان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٥ — قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو
٣٣٧ هـ / ٩٤٨ — ٩٤٩ م) : « نبد من كتاب الخراج وصناعة
الكتابة » . (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٩ م
- ٣٦ — القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : « صبح الأعشى فى صناعة
الانشا » — ١٤ جزءاً . الطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ م
- ٣٧ — الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة »
بيروت ١٩٠٨ م (Gibb Memorial Series.)

- ٣٨ — الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية »
القاهرة ١٢٩٨ هـ .
- ٣٩ — أبي المحاسن ابن تفرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ — ١٤٧٠) :
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثاني .
طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م .
- ٤٠ — المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . لندن ١٨٧٧ م .
- ٤١ — السمودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : « صروج الذهب ومعادن الجوهر
في التاريخ » جزءان — طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة
Barbier de Meynard — باريس ١٨٦١ — ١٨٧٤ م .
- ٤٢ — — : « التنبيه والإشراف » (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية)
لندن ١٨٩٣ — ١٨٩٤ م .
- ٤٣ — المقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ — ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار
في ذكر الخطط والآثار » . جزءان . بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٤٤ — — : « البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب » القاهرة
١٣٥٦ .
- ٤٥ — — : « شذور المعقود في ذكر النقود القديمة والإسلامية »
المعروف باسم النقود الإسلامية . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .
- ٤٦ — — : « إغاثة الأمة بكشف النعمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى
زيادة والأستاذ الشيبال . القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٤٧ — ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : « الفهرست » . لينزج ١٨٧١ م .
- ٤٨ — النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « نهاية الأرب
في فنون الأدب » ١٣ جزءا — طبعة دار الكتب المصرية والباقي

- مخطوط بدار الكتب المصرية . الجزء الأول طبعة دار الكتب
الثانية ١٩٢٩ م — والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .
- ٤٩ — ياقوت-الجوى (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) : « معجم البلدان »
٦ أجزاء . ليزج ١٨٦٦ — ١٨٧٣ م .
- ٥٠ — يحيى بن آدم القرشى : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ — ١٨٩٦ .
- ٥١ — اليمقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : « كتاب البلدان » (الجزء
السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ .
- ٥٢ — — : « تاريخ » . جزءان . طبعة هوتسما Houtsma . ليدن ١٨٨٣
- ٥٣ — أبو يوسف صاحب أبى حنيفة (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : « كتاب
الخراج » . بولاق ١٣٠٢ هـ .
- ٥٤ — Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des
Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1914).
- ٥٥ — Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito
Papyri in the British Museum. (Der Islam. Band
II, III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).
- ٥٦ — van Berchem Max : Matériaux pour un Corpus
inscriptionum Arabicarum,
a) L'Egypte (Mémoires publiés par les membres
de l'Institut Français du Caire — 1894).
b) Jérusalem Ville (Mémoires..... 1920 — 1922).
- ٥٧ — Combe, Et. J. Sauvaget, G. Wiet : Répertoire
Chronologique d'epigraphie Arabe. t. I, II. Le
Caire 1931.

— ٥٨ — Crum : W. E, Coptic Ostraca. London 1902.

— ٥٩ — Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian Library vols. I, II, III., Cairo 1934, 1936, 1938.

الجزء الأول نقله المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ - المصادر الحديثة

١ - المصادر العربية

٦٠ - الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ - القاهرة ١٩٢٨ م

٦١ - — : فحى الإسلام ج ٣ - القاهرة ١٩٣٦ م

٦٢ - أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة .

القاهرة ١٣٥١ هـ

٦٣ - أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجته وزاد عليه الدراسات

الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن - القاهرة ١٩٤٣ .

٦٤ - أحمد لطفى السيد : قبائل العرب في مصر - ج ١ - القاهرة

١٩٣٥ م

٦٥ - ادولف جرومان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية

ترجم الأستاذ توفيق أسكاروس - دار الكتب المصرية -

القاهرة ١٩٣٠ م

٦٦ - الياس بك الأيوبي : تاريخ مصر الإسلامية - ج ١ - القاهرة ١٩٣٢

- ٦٧ — الأستاذ أمين الخولي : مصر في تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثاني ، الجزء الأول القاهرة — مايو ١٩٣٤ م .
- ٦٨ — الأب انستاس الكرملي : النفود العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٣٩ م
- ٦٩ — الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص . القاهرة ١٩٣٦ م
- ٧٠ — — : تاريخ الإسلام السياسي . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧١ — الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧٢ — — : كنوز الفاطميين — القاهرة ١٩٣٧ م
- ١ — — : في مصر الإسلامية مع البكباشي عبد الرحمن زكي وآخرين
القاهرة ١٩٣٣ م
- ٧٤ — — : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . القاهرة ١٩٣٩ م
- ٧٥ — — : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية (في مجلة جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ .
- ٧٦ — — : مصر والحضارة الإسلامية — القاهرة ١٩٤٢ م
- ٧٧ — — : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .
- ٧٨ — الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني (المجمع المصري للثقافة العلمية . الكتاب السنوي الثالث عشر) .
القاهرة ١٩٤٢ م .
- ٧٩ — الدكتور عبد الحكيم الرافعي : الاقتصاد السياسي . الجزء الأول —
القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٨٠ — علي بك بهجت : حفريات الفسطاط . القاهرة ١٩٢٨ م .

- ٨١ — الأستاذ محمد كامل حسين : في الأدب المصري الاسلامي من الفتح
الاسلامي إلى دخول الفاطميين . القاهرة ١٩٣٩ م .
٨٢ — الدكتور محمد كامل مرسي بك : الملكية العقارية في مصر وتطورها
التاريخي من عهد الفراعنة حتى الآن — القاهرة ١٩٣٦ م .
٨٣ — الدكتور محمد نساى جنيته : القانون الدولي العام . القاهرة ١٩٣٣ م
٨٤ — يوسف اليان سر كيمس : معجم الطبوعات العربية والمصرية . القاهرة
١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

ب — المصادر الأخرى

- ٨٥ — Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en
Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut
Egyptien. Quatrième Série — 6 Avril 1903 —
Le Caire 1903).
٨٦ — Amélineau E. : Etude sur le Christianisme en
Egypte au Septième siècle, Paris 1887.
٨٧ — Arnold Th.: The Preaching of Islam. London 1935.
٨٨ — Becker C. H.: The Expansion of the Saracens (The
Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge
1913).
٨٩ — : Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam,
vol. 11. Leyden — London 1927).
٩٠ — : Art. Cairo (The Encyclopaedia of Islam —
vol. 1. Leyden — London 1913)

- : Historische Studien über das Londoner — ٩١
Aphroditowerk. (Der Islam Band 11, 1911).
- : Islamstudien. Leipzig 1924. — ٩٢
- Van Berchem, Max, La Propriété territoriale et — ٩٣
l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Gen-
ève 1886.
- : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte — ٩٤
(Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX
Paris. Janvier Février 1907).
- Brockelmann, Carl : Geschichte der Arabischer Lit- — ٩٥
teratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, 2
Suplementband — Leiden 1937 — 1038.
- Butcher Mrs. E. L. : The Story of the Church of — ٩٦
Egypt. 2 vols. London 1897.
- تعريب أسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها »
في ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٦ م
- Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. — ٩٧
Oxford 1902.
- تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر »
القاهرة ١٩٣٣ م
- : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. — ٩٨
Oxford 1884.
- : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913. — ٩٩

- : Islamic Pottery. London 1929. — ١٠٠
- Caetani, Leone : Annali dell' Islam. vols. IV, V. — ١٠١
Milano 1911, 1912.
- Creswell (K. A. C.) : Coptic Influences on-Early — ١٠٢
Muslim Architecture (Extrait — Bulletin de la
Société d'Archéologie Copte. Tome V 1039.
Le Caire).
- De Castries Henri : L'Islam, Impression et Etudes. — ١٠٣
Paris 1896.
- تعريب احمد فتحي زغلول باشا بعنوان «الإسلام . خواطر وسواخ»
مطبعة السعادة بالقاهرة
- De Sacy Silvestre : Recherches sur la nature et — ١٠٤
les Révolutions du droit de propriété territoriale
en Egypte (Bibliothèque des Arabisants Français,
t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le
Caire 1923.)
- : Traité des monnaies Musulmanes. Le Caire — ١٠٥
1905.
- Devonshire Mme R. L. : L'Egypte Musulmane et — ١٠٦
les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.
- Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 to- — ١٠٧
mes. Leyde 1932.
- : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols — ١٠٨
(Leyden 1881).
- : Dictionnaire détaillé des noms des vêtements — ١٠٩
chez les Arabes. Amsterdam 1845.

- Georgy Sobhy Bey : The Survival of Ancient Egypt. — ۱۱۰
(Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie
Copte. T. IV. Le Caire 1938.)
- Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen — ۱۱۱
Age. 2 vols. Leipkig 1885-1886.
- Johnson Allan Chester : An Economic Survey of — ۱۱۲
Ancient Rome vol. II Roman Egypt. Baltimore.
1936.
- Jouguet Pierre : L'Egypte Gréco Romaine (Précis — ۱۱۳
de l'histoire d'Egypte. t. 1).
- Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome Premier. — ۱۱۴
Le Caire 1929.
- Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles — ۱۱۵
of the Near East. Paris 1937.
- Lammens : Un gouverneur Omayyade d'Egypte; — ۱۱۶
Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes
(Bulletin de l'Institut Egyptien. 5e. Série. Tome
11. Le Caire Décembre 1908).
- Lane-Poole Stanley : A History of Egypt in the — ۱۱۷
Middle Ages. London 1925.
- Macmichael : A History of the Arabs in the Sudan. — ۱۱۸
2 vols. Cambridge 1922.
- Marcel : Égypte, depuis la conquête des Arabes — ۱۱۹
jusqu'à la domination Française. Paris 1848.
- Massignon : Annuaire du Monde Musulman. — ۱۲۰
Paris 1925.

Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heide- — ١٢١
lberg 1922.

نقله إلى العربية في جزئين الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة

بمنوان «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى»

القاهرة ١٩٤٠ م.

Milne J. Grafton : A History of Egypt Under — ١٢٢
Roman Rule. London 1924.

Mohammed Ben Cheneb : Classes Des Savants de — ١٢٣
l'Ifrqiya, Alger 1920.

Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l'hist. — ١٢٤
d'Egypte t. 11. 1932).

Le Prince Omar Tousson : La Géographie de l'Egypte — ١٢٥
à l'Epoque Arabe. Tome Premier - Le Caire 1926.

Pedersen : Art. Masjid (The Encyclopaedia of — ١٢٦
Islam vol. 111. Leiden. London 1936).

Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Hist- — ١٢٧
oriques 2 tomes. Paris 1811.

— : Recherches Citiques et Historiques sur — ١٢٨
la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris
1808.

Sauvaire M.H. : Materiaux pour servir a l'histoire — ١٢٩
de la Numismatique et de la Metrologie Musul-
manes (Extrait du Journal Asiatique, 7eme Série t. ,
XIV. XV, XVIII, XIX. Paris 1879).

Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de — ١٣٠
l'histoire d'Egypte t. 11).

— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation — ١٣١
Egyptienne. t. IV).

— : Les Communications en Egypte au Moyen — ١٣٢
Age.

نقلها إلى العربية محمد وهي بعنوان « المواصلات في مصر
في المصور الوسطى » ونشرت في كتاب « في مصر
الإسلامية » أخرجه الدكتور زكي محمد حسن والبكباشي
عبد الرحمن زكي

Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides. Paris 1933. — ١٣٣



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

جدول

بأسماء الولاية وعمال الخراج وأصحاب الشرطة
والقضاة والبطارقة في عهد الولاية

جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب

عمال الخراج	الولاة	الخطباء	السنون
	عمرو بن العاص	عمرو بن الخطاب	٦٤١/٥٢٠ ٦٤٤/٢٣
	عبد الله بن سعد انقراه محمد بن أبي حقيق (١)	عثمان بن عفان علي بن أبي طالب	٦٤٥/٢٤ ٥٦—٦٥٥/٣٥
	قيس بن سعد الاشتر مالك محمد بن أبي بكر عمرو بن العاص (٢)		٦٥٧/٣٧ ٦٥٨/٣٨ ٦٦٠/٤٠ ٦٦١/٤٢ ٦٦٣/٤٣ ٦٦٤/٤٤ ٦٦٧/٤٧ ٦٦٩/٤٩ ٦٣٧/٥٣ ٦٧٧/٥٧ ٦٧٩/٥٩ ٦٨٠/٦٠ ٦٨٢/٦٢ ٦٨٤/٦٤ ٦٨٥/٦٥
وردان	عتبة بن أبي سفيان عقبة بن حاصر مسلمة بن مخلد	معاوية	
	محمد بن يزيد عبد الرحمن بن عتبة عبد العزيز بن مروان	يزيد الأول (عبد الله بن الزبير) مروان الأول عبد الملك بن مروان	

(*) اعتمدنا على جدول الأستاذ فييت في هذا الصدد وذكرنا في خانة

الشرطة والقضاة والبطاركة في عهد الولاية (*)

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
خارجة بن حذافة	فيس بن أبي العاص كعب بن يسار عثمان بن فيس	بنيامين	(١) لم يذكر الأستاذ فيت انتراء محمد بن أبي حذيفة
هشام بن كنانة			
سائب بن هشام			
عبد الله بن أبي حرمة خارجة بن حذافة (٢) زكريا بن جهم	سليم بن عتق	أغاتون (ب)	(ب) ذكر الأستاذ فيت في جداوله أن أغاتون ولي البطركية في سنة ٦٥٨/٣٩ ولكنني اعتمدت فيها أورده على ما جاء في كتاب سير الآباء البطاركة لساورس (ج) ذكر الأستاذ فيت أن يوحنا الثالث ولي البطركية سنة ٦٨٠/٦٠ ولكنني اعتمدت على ساورس
سائب بن هشام (٢) عابس بن سعيد سائب بن هشام (٣) عابس بن سعيد (٢)	عابس بن سعيد	يوحنا الثالث (ج)	

للملاحظات أوجه الخلاف بين ما وصل إليه وما استنبطناه من المراجع القديمة

عمال الخراج	الولاية	الخلفاء	السنوات
			٦٨٦/ ٦٧
			٦٨٧/ ٦٨ — ٨٨
			٦٨٨/ ٦٩
			٦٨٩/ ٧٠
			٦٩٥/ ٧٦
			٧٠٢/ ٨٣
			٧٠٣/ ٨٤
			٧٠٥/ ٨٦
	عبد الله بن عبد الملك	الوليد بن عبد الملك	
	قرة بن شريك		٧٠٨/ ٨٩
			٧٠٩/ ٩٠
			٧١٠/ ٩١
أسامة بن زيد	عبد الملك بن رفاعه	سليمان بن عبد الملك	٧١٢/ ٩٣
			٧١٥/ ٩٦
			٧١٦/ ٩٧
			٧١٧/ ٩٨
حيان بن سريج	أيوب بن شرجيل	عمر بن عبد العزيز	٧١٨/ ٩٩
			١٩ — ٧١٨/ ١٠٠
		يزيد بن عبد الملك	٢٠ — ٧١٩/ ١٠١
	بشر بن صفوان		
	حنظلة بن صفوان		٢١ — ٧٢٠/ ١٠٢
		هشام بن عبد الملك	٧٢٣/ ١٠٥
عبيد الله بن الجعاف	محمد بن عبد الملك		
	الحمر بن يوسف		
	حفص بن الوليد		٧٢٦/ ١٠٨
	عبد الملك بن رفاعه		٧٢٧/ ١٠٩
	الوليد بن رفاعه		

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
زياد بن حنابلة	بشير بن النضر عبد الرحمن بن حجيبة	اسحاق (أ)	(أ) ذكر الأستاذ فيت أن اسحق ولي البطركية سنة ٦٩٠/٧٠
عبد الرحمن بن حسان	مالك بن شراحيل يونس بن عطية	سيمون (ب) الاول (ظل حق سنة ٨٠١/٨٢)	(ب) ذكر فيت أن سيمون ولي سنة ٧٣ ٦٩٣/
يونس بن عطية	أوس بن عبد الله عبد الرحمن بن معاوية	الأكسندروس الثاني	
عبد الرحمن بن عبد الرحمن	عمران بن عبد الرحمن عبد الواحد بن عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن		
عبد الأعلى بن خالد			
عبد الملك بن رفاعة			
عبد الرحمن بن معاوية			
الوليد بن رفاعة			
الشيخ بن جرو الحصري	عبد الله بن عبد الرحمن ٢ عياض بن عبيد الله ٢		
الحسن بن يزيد الرعي			
الحارث بن داخر	عبد الله بن يزيد		
شعيب بن حميد			
حنظلة بن صفوان			
محمد بن مطير البلوي			
حفص بن الوليد	يحيى بن ميمون		
عبد الله بن أبي مسهر			

عمال الخراج	الولاية	الحقلاء	السنوات
			٧٢٩/١١١
			٧٣٠/١١٢
			٧٣١/١١٣
			٧٣٢/١١٤
			٧٣٣/١١٥
قاسم بن عبيد الله	عبد الرحمن بن خالد		٧٣٤/١١٦
	حنظلة بن صفوان ٢		٧٣٥/١١٧
			٧٣٧/١١٩
			٧٣٨/١٢٠
			٧٤٠/١٢٢
	حفص بن الوليد ٢		٧٤٢/١٢٤
			٧٤٣/١٢٥
عيسى بن أبي عطا		يزيد بن الوليد	٧٤٤/١٢٦
		إبراهيم بن الوليد	
	حسان بن عتاهيه	مروان بن محمد	٧٤٥/١٢٧
	حفص بن الوليد ٣		
	الحوشرة بن مسميل		٧٤٦/١٢٨
عبد الملك بن مروان	المغيرة بن عبيد الله		٧٤٩/١٣١
	عبد الملك بن مروان		٧٥٠/١٣٢
	صالح بن علي	السفاح	٧٥١/١٣٣
	أبو عون عبد الملك		
عطا بن شرحبيل			٧٥٢/١٣٥
	صالح بن علي (٢)		٧٥٣/١٣٦
	أبو عون (٧)	المنصور	٧٥٤/١٣٧

أصحاب القرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
عبد الرحمن بن خالد	يزيد بن عبد الله (الخيار بن خالد) توبة بن عر الحضري	قسبا الأول تاودوروس (ولي البطركية حتى سنة ١٢٦ / ٧٤٣)	
عبد الله بن يسار عباس بن جرجية قيس بن أشعث عقبة بن نعيم	خير بن نعيم		
حسان بن عتاهية عبد الله بن مغيرة معاوية بن سهوان محسن بن هانيء عبد الله بن عبد الرحمن عكرمة بن عبد الله	عبد الرحمن بن سالم خير بن نعيم (٢) فوت بن سليمان	ميمناثيل الأول	

السنون	الخلفاء	الولاية	عمال الخراج
٧٥٧/١٤٠			
٧٥٨/١٤١		موسى بن كعب	نوفل بن فوات
٧٦٠/١٤٣		محمد بن الأشعث	
٧٦١/١٤٤		حميد بن قحطبة	
٧٦٧/١٥٠		يزيد بن حاتم	مطوية بن مروان
٧٦٩/١٥٢		عبد الله بن عبد الرحمن	محمد بن سعيد
٧٧٢/١٥٥		محمد بن عبد الرحمن	
		موسى بن علي	محمد بن سليمان
٧٧٥/١٥٨	المهدي		
٧٧٦/١٥٩			
٧٧٨/١٦١			سلامة بن رجاء
٧٧٩/١٦٢		عيسى بن لقمان واضح مولى أبي جعفر منصور بن يزيد	
		يحيى بن داود	
٧٨١/١٦٤		سالم بن سواده	اسماعيل بن ابراهيم

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
		أبو خزعة إبراهيم يزيد بن عبد الله غوث بن سليمان (٢)	محمد بن معاوية عبد الله بن عبد الرحمن (٢)
	مينا (ولى حتى سنة ٧٧٤/١٥٨) .	أبو خزعة إبراهيم	عباس بن عبد الرحمن محمد بن حسان
	يوجنا الرابع	عبد الله بن لهيعة	الحارث بن الحارث موسى بن زريق هاشم بن عبد الله عبد الأعلى بن سعيد عسامة بن عمرو
		إسماعيل بن اليسع	الأخضر بن موهان

عمال الحراج	الولاية	الملتقاء	السنون
	ابراهيم بن صالح		٧٨٢/١٦٥
	موسى بن مصعب		٧٨٤-٧٨٣/١٦٧
	عسامة بن عمرو		٨٥-٧٨٤/١٦٨
	الفضل بن صالح	المادى	٨٦-٧٨٥/١٦٩
	على بن سليمان		
		مرون الرشيد	٧٨٦/١٧٠
	موسى بن عيسى		٧٨٧/١٧١
	مسلمة بن يحيى		٧٨٨/١٧٢
عمر بن غيلان	محمد بن زهير		٧٨٩/١٧٣
	داوود بن يزيد		٧٩٠/١٧٤
	موسى بن عيسى (٢)		٧٩١/١٧٥
	عمر بن مهران (١)		٧٩٢/١٧٦
نصر بن كلثوم	ابراهيم بن صالح (٢)		
روح بن روح	عبد الله بن السيب		٧٩٣/١٧٧
	اسحاق بن سليمان		
	هرثمة بن أعين		٧٩٤/١٧٨
	عبد الملك ابن صالح		
	عبيد الله بن المهدي		٧٩٥/١٧٩
	موسى بن عيسى (٣)		
	عبيد الله بن المهدي (٢)		٧٩٦/١٨٠
	اسماعيل بن صالح		٧٩٧/١٨١

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>عسامة بن عمرو (٢)</p> <p>عسامة بن عمرو (٣)</p> <p>عبد الرحمن بن موسى</p> <p>إسماعيل بن عيسى</p> <p>عسامة بن عمرو (٤)</p> <p>عبد الرحمن بن مسلمة</p> <p>جندب بن الحلاء</p> <p>عمار بن مسلم</p> <p>حبيب بن أبي</p> <p>عمار بن مسلم (٢)</p> <p>عبد الرحمن بن موسى ٢</p> <p>خالد بن يزيد</p> <p>الأمكيس</p> <p>مسلم بن بكار</p> <p>حاتم بن هرثة</p> <p>عمار بن مسلم (٣)</p> <p>معاوية بن صرد</p> <p>عمار بن مسلم (٤)</p> <p>سليمان بن الصمة</p> <p>يزيد بن عبد العزيز</p>	<p>غوث بن سليمان (٣)</p> <p>المفضل بن فضالة</p> <p>عبد الملك بن محمد</p> <p>المفضل بن فضالة (٢)</p> <p>محمد بن مسروق الكندي</p>		<p>(١) لم يرد ذكر لمر</p> <p>بن مهران في جداول</p> <p>الأستاذ فيت ولا في</p> <p>الكندي ، ولكن</p> <p>أوراق البردي دلت على</p> <p>توليه مصر في سنة</p> <p>١٧٦ هـ (انظر .</p> <p>جرومان : المحاضرة</p> <p>الثالثة في أوراق البردي</p> <p>الروية ص ٩ — ١٠)</p>

عمال الحراج	الولاية	الحلقاء	التوث
	اسماعيل بن عيسى		٧٩٨/١٨٢
	الليث بن الفضل		٧٩٩/١٨٣
			٨٠٠/١٨٤
			٨٠١/١٨٥
محفوظ بن سليمان	أحمد بن إسماعيل		٨٠٣/١٨٧
	عبد الله بن محمد		٨٠٥/١٨٩
	الحسين بن جميل		٨٠٦/١٩٠
	» » »		٨٠٧/١٩١
	مالك بن دهم		٨٠٨/١٩٢
	الحسن بن التتخاخ		٨٠٩/١٩٣
		الأمين	
	حاتم بن هرثمة		٨١٠/١٩٤
	جابر بن الأشعث		٨١١/١٩٥
	عباد بن محمد	للامون	٨١٢/١٩٦
	الطلب بن عبد الله		٨١٥/١٩٨

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>المصك بن مسكين عبد الوهاب بن موسى علي بن الفضل</p> <p>معاوية بن صرد (٢) أحمد بن حوى محمد بن عسامة كامل الهنائى معاوية بن صرد (٣)</p> <p>محمد بن يزيد محمد بن خالد صالح بن عبد الكريم سليمان بن غالب (٢)</p> <p>ابن حاتم بن هرثة علي بن المثنى عبيد الله الطرسوسى عبد الله بن ابراهيم سليمان بن غالب (٢)</p> <p>هيرة بن هاشم</p> <p>محمد بن عسامة (٢) عبد العزيز بن وزير</p>	<p>اسحاق بن القرات عبد الرحمن العمري</p> <p>هاشم بن أبى بكر</p> <p>ابراهيم بن البكاء لهيعة بن عيسى الفضل بن غانم</p>	<p>مرقس الثالث</p>	

السنون	الختفان	الولان	عمال الخراج
		العباس بن موسى	
٨١٥/١٩٩		المطلب بن عبد الله (٢)	
٨١٦/٢٠٠		السري بن الحكم	
٨١٧/٨١٦/٢٠١		سليان بن غالب	
		السري بن الحكم (٢)	
٨١٩/٢٠٤			
٨٢٠/٢٠٥		أبو نصر بن السري	
٨٢١/٢٠٦		عبيد الله بن السري	
٨٢٦/٢١١		عبد الله بن طاهر	

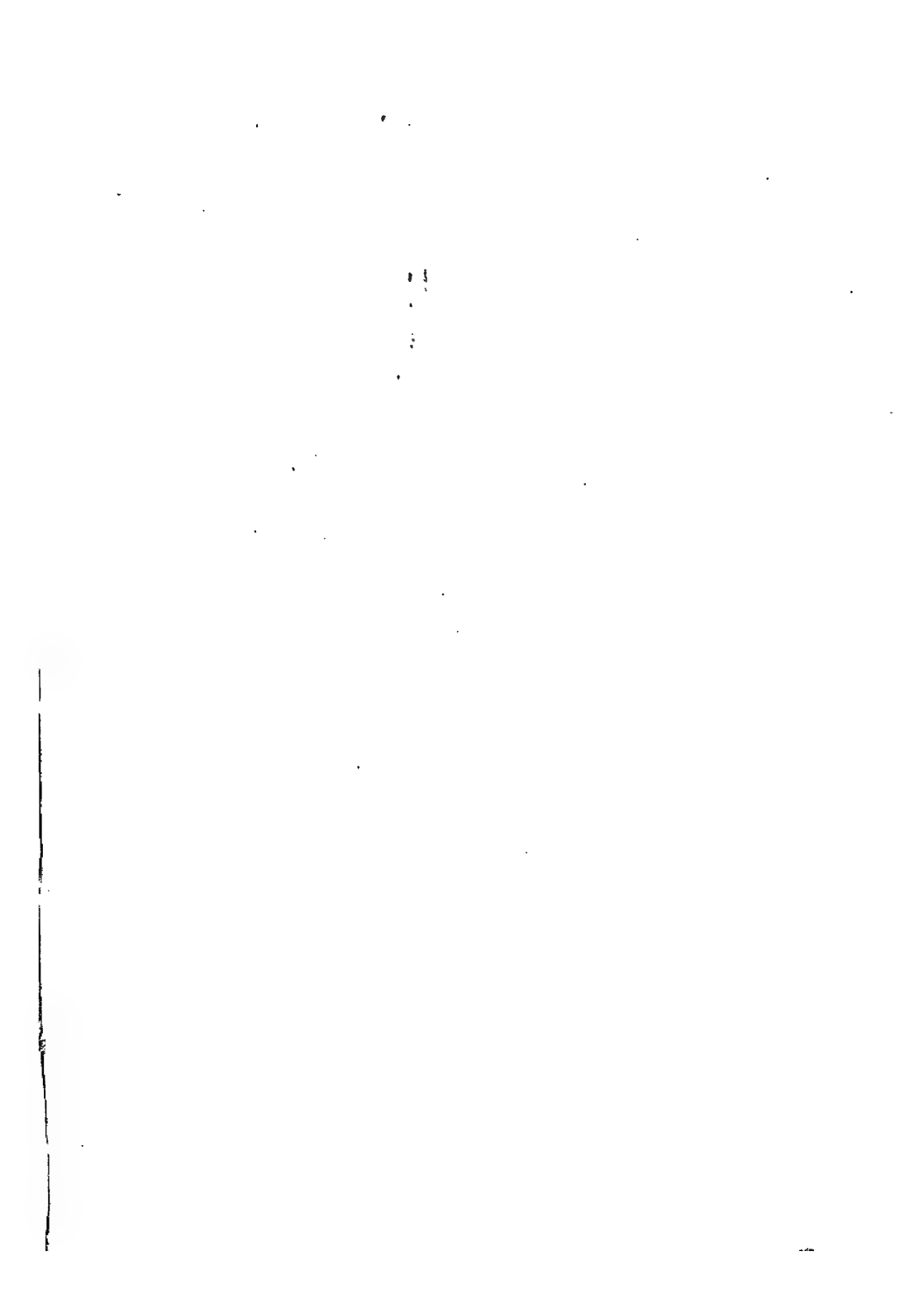
أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>إبراهيم بن عبد السلام هيرة بن هاشم (٢) محمد بن عسامة (٣) عبد العزيز بن وزير أحمد بن حوى (٢) هيرة بن هاشم (٣) محمد بن عسامة (٤) أبو بكر بن جنادة عباس بن لهيعة محمد بن عسامة (٥) الحارث بن زرة ميمون بن السرى أبو بكر بن جنادة ٢ حماد بن المخارق إسماعيل بن الحكم صالح بن الحكم داود بن الحكم</p>	<p>لهيعة بن عيسى ٢</p>	<p>أبنا يعقوب</p>	<p>إبراهيم بن إسحاق إبراهيم بن الجراح</p>
<p>محمد بن قشاشي عبيد الله بن السرى محمد بن عتبة معاذ بن عزيز عبدويه بن جيله</p>			

عمال الخراج	الولاية	الخلفاء	السنوات
			٨٢٧/٢١٢
صالح بن شيرازاد	عبد الله بن طاهر عيسى بن يزيد المتصم عيسى بن يزيد عمير بن الوليد عيسى بن يزيد (٢)		٨٢٨/٢١٣ ٨٢٩/٢١٤
	عبدويه بن جلله عيسى بن منصور كيدر بن نصر	المأمون	٨٣٠/٢١٥ ٨٣١/٢١٦ ٨٣٢/٢١٧
		المتصم	٨٣٣/٢١٨ ٨٣٤/٢١٩
سعيد بن عبد الرحمن	الظفر بن كيدر أشناس موسى بن أبي العباس		٨٣٨/٢٢٣ ٨٣٩/٢٢٤ ٨٤١/٢٢٦
عيسى بن يونس	مالك بن كيدر علي بن يحيى	الواثق	٨٤٢/٢٢٧ ٨٤٣/٢٢٨ ٨٤٥/٢٣٠
أبو الوزير	عيسى بن منصور ٢ إيتاخ هرثة بن النصر حاتم بن هرثة علي بن يحيى (٢) المتصم إسحاق بن يحيى	التوكل	٨٤٨/٢٣٣ ٨٤٨/٢٣٤ — ٤٩ ٨٤٩/٢٣٥ — ٨٥٠

أصحاب الشرطة	الفضاة	البطاركة	ملاحظات
محمد بن عيسى	عيسى ابن النكدر (ولى حتى سنة ٨٢٩/٢١٤)		
محمد بن عمير			
مطهر			
ابن عبدويه		أنا سيمون	
موسى بن إبراهيم		أنا يوسف	
اسنديار			
ابن بسطام			
ذاوه			
المظفر بن كيدر			
	هرون بن عبد الله		
ذاوه (٢)			
حسن بن أبي العباس			
ذاوه (٣)			
معاوية بن معاوية	محمد بن أبي البيت		
ابن منصور			
أبو قتيبة			
محمد بن سويد			
معاوية بن نعيم			
الهايجي		ميخائيل الثاني	

عمال المزارع	الولاية	الحلقاء	السنوات
١ بدر	خوط عبد الواحد		٨٥٠/٢٣٦ — ٥١
			٨٥١/٢٣٧
	عنبسة بن إسحق		٨٥٢/٢٣٨
			٨٥٥/٢٤١
	يزيد بن عبد الله		٨٥٦/٢٤٢
			٨٥٨/٢٤٤
سليمان بن وهب أحمد بن مدير			٨٥٩/٢٤٥
			٨٦٠/٢٤٦
			٨٦١/٢٤٧
		المنصور	
		المستعين	٨٦٣/٢٤٨
		المعتز	٨٦٦/٢٥٢
	مزاخم بن خلفان		٨٦٧/٢٥٣
	أحمد بن مزاخم أزجور		٨٦٨/٢٥٤

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
	قسا الثاني	الحارث بن مسكين	محمد بن سليمان محمد بن عبد الله خالد بن يزيد بجي بن أحمد
	شودة (حتى سنة ٨٨٠/٢٦٦)	بكار بن قتيبة (حتى ٨٨٣/٢٧٠)	أزجور محمد بن اسبنديلو أزجور (٢) بولبيا



كشاف

(١)

إختم : ١٩٠ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤	ابن جعدم : (انظر عبد الرحمن)
إخنا : ٤٠ ، ٢٩٢	ابن سبأ : (انظر عبد الله)
ادريس بن عبد الله (أخو النفس الزكية) :	ابن سندر : ٥٣
١٥٤ ، ١٥٣	ابراهيم بن صالح : ١٤٩
أديرة : ١ ، ٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٣٦	ابراهيم بن محمد بن عبد الله (ابن النفس الزكية) : ١٥١ ، ١٥٢
أرتودوكس (ياقبة) : ٥ ، ١٨٤ ، ١٨٨	ابراهيم بن المهدي : ١٧١ ، ١٧٢
١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١	ابن طولون : (انظر أحمد)
ازجور التركي : ٢٥ ، ١٥٨	ابن عبد الغفار الجلي : ١٦٥
أسامة بن زيد التنوخي : ٢١٦ ، ٢٢٩	ابن المدبر : (انظر أحمد)
٢٣٠ ، ٢٦٩	أبو حنيفة (الإمام) : ١٠٥ ، ٢١٧
استراكا : ١١ ، ٦٧ ، ٦٨	٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
إسحق بن سليمان الباسي : ٢٥٤	أبو شعر (ميناء) : ٣٠٠
إسحق بن القرات : ١٠٥	أبو صير : (انظر بوسير)
أسطول : ١٣ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٣٠	أبو عون : ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٤٤ ، ٢٣٦
٨١ ، ٨٨ - ١٤٣ ، ١٤٥ -	أبو مسلم الخراساني : ١٣٦ ، ١٣٧
١٤٧ ، ١٩٧ ، ٣١٣ ، ٣٤٢	أبو نصر بن السري بن الحكم : ١٧٤
٣٤٣	أجاس : (انظر وقف)
الاسكندرية : ٢ ، ٤ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦	أحمد بن حنبل (الإمام) : ١٧٨ ، ٣٢٢
٢١ ، ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٧	أحمد بن السري : ١٧٥
٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١	أحمد بن طولون : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨ ، ٦٢ -
١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤	٦٤ ، ٦٩ ، ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ -	٣٥٢
١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥	أحمد بن المدبر : ٥٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٨
١٧٦ ، ١٨٥ - ١٨٩ ، ١٩١	٣٤٢
١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤١ - ٢٤٣	
٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥	
٣٠٠ - ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠	

الأمين : ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٩ - ١٦٣ ،

١٧٦ ، ٢٠٢ ، ٢٨٩ ، ٣٥٢ ،

الأندلس : ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

الأندلسيون (في مصر) : ١٦٠ ، ١٦٧ -

١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،

١٧٦

انصنا : ٢٦٩

احناسيا : ١٩١ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤ ،

ارناخ : ١٨١

الإيرانيون : (انظر القرس)

أيلة (القبة) : ١٣٣ ، ٣٠٠ ،

إلياء : (انظر بيت المقدس)

أيوب بن شرجيل : ٧٦ ، ٢٠٩ ،

(ب)

بابويوت (اليوة) : ١١ - ١٢ ، ١٤ ،

١٧ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ -

٤٥ ، ٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣ ،

٣٠٥

باخرا : ١٥٢

البيجة : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٠٢ ،

البحر الأبيض المتوسط : ٩ ، ٨٨ ، ٩٥ ،

٣٠٠ ، ٣٤١ ،

البحر الأحمر : ٩ ، ٢٩٩ - ٣٠٩ ، ٣١١ ،

٣١٢

البربر : ٨٢ - ٨٤ ، ٩١ ،

بردى (وثائق) : ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ،

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،

٤٨ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩١ ،

٣١٧ ، ٣٣٠ - ٣٣٦ ، ٣٤٤ ،

اسماعيل بن عبد الله القسري : ١٤٢ ،

اسماعيل بن اليح الكندي : ١٥٠ ،

٣٢٦

أسنا : ١٥٨

أبوان : ٥٧ ، ١٤٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٨ ،

٢٦٩ ، ٣١٢ ،

أسيوط : ٢٨٥ ، ٣٤٤ ،

الأشتر مالك بن الحارث النخعي : ١٢٥ ،

١٢٦

الأشموين : ١٤٧ ، ١٩١ - ٢٦٠ ،

٢٨٥

أشناس : ٣٥

الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان : ٥٣ ،

١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ،

إفريقية : ١ ، ٢١ - ٢٣ ، ٣١ ، ٣٤ ،

٨١ - ٨٤ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٤٠ ،

١٤٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

٣٥٠

الأفنين : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

إقطاع : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٥٥ ،

١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٢١ ، ٢٥٦ ،

ألكدر بن حام اللخمي : ١٣٢ ، ١٣٣ ،

أم دين (تدموناس) : ١١ ، ٥٦ ،

الأمويون والدولة الأموية : ٢٦٠ ، ٣٠ ،

٣٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٧٧ ،

٨٢ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٦ -

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٨١ ،

١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ،

٢٧٤ ، ٢٥٣

يوياط : ١٥٠
بيت المقدس (القدس أو إيلياء) : ٢٦
٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢١٣ ، ٢١٢
بيزنطة والدولة البيزنطية : ١ ، ٤ ، ٤٠ ، ٤٥
٢٦٦ ، ٥١ ، ١٣ ، ١١ ، ١٠
٢٨٦ ، ٢٨٠
البيزنطيون : (انظر الروم)

(ت)

تجارة وتجار : ٩ ، ١٠ ، ١٨ ، ٥٥ - ٥٧
٧٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠
٢٩٩ - ٣١٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
الترك : ٣٣ ، ٣٦ ، ٧٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧
١٥٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢
٣٤٣
تتيس : ٥٧ ، ٨٥ ، ١٦٤ ، ١٦٩
١٧٥ ، ١٨٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠
٢٨٢ - ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠
٣٠٢ ، ٣٤٤
توبة بن عمر الحضرمي : ١٠٠ ، ١٠٢
١٠٨ ، ٢٣٣
توتة : ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٤
تونس : ٨٨ ، ٩١

(ث)

ثابت بن نعيم الجذامي : ١٣٩
ثورة وثورات : ٢ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٤
٥٢ ، ٧٦ ، ٢٣٤ - ٢٣٨ ، ٢٤٠
٢٥٣ - ٢٥٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١
٣٤٥

٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧
٢٦٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
برقة (انطابلس) : ١٤ ، ١٥ ، ٢٣
٣١ ، ٣٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤
١٢٣ ، ١٥٨ ، ٣١٢
البرلس : ٨٥ ، ٩٠
البريد وصاحب البريد : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠
٣٤ ، ١٠٣ ، ١٥٤ ، ٣١١

برينيسي : (انظر رأس بناس)

بشر بن أوس (أبو الجراح الجرشي) :
١٤٠

بشر بن صفوان : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦
البشمور أو البشرد : (انظر بوكوليا)
١ ، ٢ ، ٤٨ ، ١٩٠ ، ٣٠٠
٣٠٢

بنا الأصغر : ١٥٨
بنا الأكبر : ١٥٨
بفسداد : ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٥٧
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٨
٢١١ ، ٣٢٧
البقط : ١٥ ، ١٦
بليس : ١٦١ ، ١٦٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
٣١٢

بنيامين (أبو يمامين) : ٧ ، ١٨٥ - ١٨٨
البهنسا : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤
بورة : ١٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٤٤
بوصيد (أبو بصيد) : ١٤٧
بوكوليا (البشمور أو البشرد) : ٣
١٤٤ - ١٤٦ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ، ٣٤٤
٣٤٥

١٥٦ ، ١٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٥
١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ -
١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ،
٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٣٤٢
الميزة : ١٤٠ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ٢٤٨

(ح)

حاتم بن هرثة بن أعين : ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٩٣
الحجاز : ٣٦ ، ٥٢ ، ١١١ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٩١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
٣٢١
الحري بن يوسف : ٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
حران : ١٤١ ، ١٤٢
الحرس (أهل الحرس) : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
٢٧٩ : الحرير
حسان بن عتاهية : ١٣٨ ، ١٣٩
حسان بن النعمان السائي : ٣١ ، ٨٣ ،
٨٤
الحسن بن التختاخ : ٧٧ ، ١٦٠
الحسين بن جيل : ٢٥٥
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٣٠
حفص بن الوليد : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٧٦ ،
١٣٨ - ١٤١ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥
حلوان : ٣٣ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ،
٢٦٩ ، ٢٧٤
حصص : ١٣٩ ، ١٤٠
جيد بن قطية : ١٥١ ، ١٥٢

(ج)

جابر بن الأشعث الطائي : ١٦١ ، ١٦٢
جابر بن الوليد المدلجي : ١٥٧ ، ١٥٨ ،
الجابية : ٨
جامع ابن طولون : ٦٢
جامع المعسكر : ٢٤٧ ، ٢٧٤
جامع عمرو بن العاص : ٢٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٧٧ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ،
٢٢٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ،
٣٢٨ ، ٣٥٠
جاية : ١٨ ، ٥٩ - ٦٤
الجروى (عبد العزيز بن الوزير) : ص
١٦٢ ، ١٦٤ - ١٧٠ ، ١٧٢ -
١٧٤ ، ٣٥٢
الجزيرة : ١٤٠ ، ١٤١
جزيرة الروضة : ٩٠ ، ٩١ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٦٩
الجزية : ١١ ، ١٢ ، ١٧ - ١٩ ، ٣٧ -
٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ -
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ،
جسطال : ٢٩ ، ٦٤
الجل (موقعة) : ١٢٩
جند وجيش : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ،
١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٢ ،
٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٧٠ -
٨٧ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣

(د)

داود بن يزيد بن حاتم : ٢٧ ، ١٠١
 ديق : ٢٨٥ ، ٣٤٤
 دحية بن مصعب : ١٤٩ ، ١٥١
 دقلديانوس : ٣ ، ١٩٨ ، ٣٣٧
 الدماحس بن عبد العزيز الكنانى : ١٤٣
 دمشق : ٧٦ ، ٨٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣١١
 دمياط : ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧ ،
 ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٣ ،
 ٣٤٤
 دمية : ٢٨٤ ، ٣٤٤
 دهلة : ١٥
 ديسفورس : ٤ - ٦

(ذ)

الذمة (أهل) : (اظفر أيضا «ذبط»
 و «يهود» و «مسيحيون») :
 ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٩٩ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 ذو النون بن ابراهيم الاخيمى : ١٨٠ ،
 ٣٣٠
 ذى الصوارى : ٢٣ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
 ١١٦

(ر)

رأس يناس (بريتسى) : ٣٠٠ ، ٣٠٨
 روط : ٢٣ ، ٨٠ ، ٨٧

حفظلة بن صفوان السكبي : ١٤٠ ، ٢٣٥
 حوثر بن سهيل الباهلى : ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ٢٥٢

الحورة (ميناء) : ٣٠٠
 الحوف : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٦١ ،
 ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٤ - ٢٥٦
 حيان بن سريج : ٢٣٠ ، ٢٣١

(خ)

خارجة بن حذافة : ٧٤ ، ١١٧ ، ١٢٩ ،
 ٣١٤
 خالد بن يزيد الشيباني : ١٧٤
 الخراج : ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٧ ،
 ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ -
 ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٦ ،
 ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٧٥ ، ٢١٧ - ٢٢٠ ،
 ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ ،
 ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٩ ، ٢٥٣ - ٢٥٦ ، ٢٨٨ ،
 ٣٣٨ - ٣٤٠

خراسان : ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦٥
 خربتا : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧
 خزف : ٢٩٥
 خشب : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٣
 خلقدونية : ٤ - ٦
 الخوارج : ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
 ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٠
 خير بن نيم : ٩٩ ، ١٠٣

(س)

- السائب بن كنانة بن هشام العامري : ١٣٢
١٣٣
سامرا : ١٥٧
سيطة : ٨١
سغا : ١٧٣ ، ٢٣٦
سرج الفول : ٢٦١
السري بن الحكم : ١٦١ ، ١٦٣ -
١٦٦ ، ١٦٨ - ١٧٦ ، ١٧٧
٣٥٢
سعيد بن يزيد : ١٣١ ، ١٣٢
السفاح (أبو عباس) : ١٣٧
سقين ومهاكب : (انظر أسطول)
السكة : (انظر قهود)
سلمت : ١٢٣
سلم بن عثر التيجي : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦
سليمان بن عبد الملك : ١٠١ ، ٢١٦ ،
٢٢٩ ، ٢٦٩
سمنود : ٢٣٥ ، ٢٣٦
سوسة Hadrumetum : ٨٢

(ش)

- الشافعي (الإمام) : ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٦١
٢٦٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٤
٣٢٧
الشام (سورية وفلسطين) : ٨ - ١٠
٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٧
٨٨ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٢٠ - ١٢٢

الربيع بن سليمان : ٣٢٧

- الرزق ودار الرزق : ٤٤ ، ٥٠ ، ٧٥ -
٧٨ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٦
رشيد : ٥٧ ، ٢٣٥
الريق : ١٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣
الروم (البيزنطيون) : ٩ ، ١١ - ١٤ ،
١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٨ ،
٤٤ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨١ - ٩٠ ،
٩٣ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ،
١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ،
٢٨٦ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ،
روما : ١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥١ ، ٢٨٠ ،
الرومان : ١ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
٥٧ ، ٥٩ ، ٩٧ ، ٣٠٠

(ز)

- الزاب : ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٤٢
زامل بن عمرو : ١٣٩
الزبير بن العوام : ١١ ، ١٨ ، ٤٤ ،
٣١٤
زجاج : ٢٩٥
زراعة وزراع : ٣ ، ١٠ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ -
٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ -
٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٤٨
الزكاة : ٣٧ ، ٤١ ، ٥٤
زهير بن قيس البلوي : ٨٣ ، ١٣٣

(ط)

طاهر بن الحنين : ١٦١ ، ١٧٠
طرابلس : ١٥ ، ٢٣ ، ٨١
طراز : ٢٨٦ - ٢٨٨
طليب بن كامل اللخمي : ٢٢٣
طنجة : ٨٣

(ع)

عابس بن عبيد المرادي : ٢٤
عباد بن محمد : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦
العباس بن موسى : ١٦٣ ، ١٦٤
العباسيون والدولة العباسية : ٢٣ ، ٢٦ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ،
١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ٧٦
١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ - ١٤٨ ،
١٤٩ - ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،
١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ،
٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ،
٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

عبد الرحمن بن بجنس : ١٣٤
عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر : ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٦

عبد الرحمن بن سالم الجبشاني : ١٠٦
عبد الرحمن بن عبد الله المصري : ١٠٤ ،
١٠٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
عبد الرحمن بن عتبة بن جعدم القهري :
١٣٢ ، ١٣٣

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ،
١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ،
٢٠٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ،
٣٠١ ، ٣٠٢
شاهد قبر : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٩
الصرط (ثياب) : ٢٨٢ ، ٢٨٣
الصرطة وصاحب الصرطة : ٢٣ - ٢٦ ،
١٤١ ، ١٦٣
شطأ : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٤٤
شطوف : ١٦٥
الشيعة والمالويون : ١٠٩ ، ١٣١ ، ١٣٤
١٥٦ ، ١٧١ ، ٣٧٨

(ص)

صالح بن عبد الله العباسي : ٣٢ ، ١٤٤ ،
١٤٧ ، ١٤٨
الصناعة والصناع : ٣٠ ، ٥٥ ، ٧٥ ،
٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ -
٢٩٧
الصوف : ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨
الصوفية : ١٦٨

(ض)

ضرائب : ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ -
٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ،
٧٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٣٣٨ -
٣٤٠

عبد الله بن لحيعة : ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٩٣ ،

٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠

عبد الله بن وهب بن مسلم : ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،

عبد الله بن يحيى (طالب الحق) : ١٤١ ،

عبد الله بن يزيد بن خنساء : ١٠٥ ،

عبد الملك بن رفاعة : ٧٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ،

عبد الملك بن محمد الحزبي (أبو الطاهر) :

١٠٦ ، ١٠٣ ، ٢٧

عبد الملك بن مروان : ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٢ ،

٦٥ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩١ ،

١٣١ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤

عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير :

١٤١ - ١٤٥ ، ٢٣٥

عبد الله بن الحبحاب : ٢١ ، ٢٢ ، ١٩٧ ،

٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٤٩ - ٢٥٣ ،

٢٩٥

عبد الله بن السري : ١٧٤ - ١٧٦ ،

عتبة بن أبي سفيان : ٧١ ، ٢٣ ، ٨٠ ،

١٠١

عثمان بن الحكم : ٣٢٣

عثمان بن عفان : ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ،

٥٢ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠ - ١٢٠ ،

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٨ ،

١٥٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٢٧٤ ،

٢٩٠ ، ٣١١

المراق : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٥٥ -

١٥٧ ، ٣٢١

العريش : ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٣١٢

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم :

٣٢٥

عبد الرحمن بن القاسم : ٣٢٣ ، ٣٢٩ ،

عبد الرحيم بن خالد بن يزيد : ٣٢٢ ،

٣٢٣

عبد العزيز بن عمران : ٣٢٧

عبد العزيز بن مهوان : ٢٠ ، ٢٤ ، ٣١ ،

٤٣ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٠٠ ،

١٠١ - ١٣٢ ، ١٣٤ - ١٩٠ ،

١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٢١ - ٢٢٤ ،

٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ،

٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٩

عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل (ابن

الارقط) : ١٥٨

عبد الله بن الزبير : ٦٦ ، ٨٣ ، ١٢٩ -

١٣٥ ، ٢٢٢ ، ٣١٦

عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ١١١ ،

١١٣ - ١١٦

عبد الله بن سعد بن أبي سرح :

١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ،

٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ -

٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٦ -

١١٩ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ،

٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٤٥

عبد الله بن طاهر بن الحسين : ١٧٥ ،

١٧٦

عبد الله بن عبد الحكم : ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،

عبد الله بن عبد الملك : ٨٥ ، ٢٠٠ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧٥ -

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٨ ، ٤٤ ،

٤٩ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٢٩ ، ٢٦٣ ،

٣١٤ - ٣١٦

٢٢٠ - ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

٢٢٦ ، ٢١٧ ، ٢٠٧

عمرو بن العاص : ٨ - ١٢ ، ١٤ - ١٨ ،

٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،

٩٧ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١٢١ ،

١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٦ - ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،

٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،

٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان :

١٤٣

عمير بن الوليد : ٢٥٥

عتبة بن اسحاق : ٣٣ ، ٨٦ ، ٩٣

عياض بن عبيد الله الأزدي : ١٠٤

عيد وأعياد : ١٩٣ - ١٩٦

عيزاب : ٥٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢

عيسى بن أبي عطاء : ١٣٨ ، ١٣٩

عيسى بن منصور : ٢٣٧ ، ٢٣٨

عيسى بن المنكر : ١٠٣ ، ١٠٧ ، ٣٢٧

عيسى بن يزيد : ٢٥٥

عين شمس : ١٢٣ ، ١٣٣

(غ)

غزة : ١٤٥

عسامة بن عمرو : ١٤٩ ، ١٥٢

المسكر (مدينة) : ٢٣ ، ٢٤٧

الطاء : ٢٣ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٤

٧٥ - ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،

٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢

عقبة بن عاصم الجهني : ١٠١

عقبة بن نافع الفهري : ٨١ - ٨٣

المالويون : (انظر الشيعة)

على الرضا : ١٧١ ، ١٧٢

على بن أبي طالب : ٨٢ ، ١١١ ، ١١٥ ،

١٢٠ - ١٢٩

على بن سفيان بن علي بن عبد الله العباسي :

١٥٤ ، ٢٠٩

على بن عبد العزيز الجروي : ١٧٤ ،

١٧٥

على بن محمد بن عبد الله - (ابن النفس الزكية) :

١٥١ ، ١٥٢

المهارة : ٢٧٣ - ٢٧٩ ، ٣١٣

عمر بن الخطاب : ٨ ، ١١ - ١٣ ، ١٥

٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ - ٤٧ ، ٥١

٥٣ ، ٦٥ ، ٧١ - ٧٣ ، ٨٠ ،

٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ -

٢١٢ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ،

٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ،

٣٠٢ ، ٣٠٤ - ٣٠٦ ، ٣١٦ ،

٣٣١ ، ٣٤٦

عمر بن عبد العزيز : ٥٦ ، ٧٦ ، ١٠١ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٧ ،

١٤٦، ١٤٣، ١١٠، ٩١، ٨٨
 ، ١٨٩، ١٨٢، ١٧٣، ١٤٨
 ، ٢٠٨، ٢٠٥، ٢٠٢، ١٩٦
 ، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٢، ٢٠٨
 - ٢٣٤، ٢٣٢، ٢٢٤، ٢٢٢
 ، ٢٧٣، ٢٦٠ - ٢٥٨، ٢٤٠
 ، ٢٩٥ - ٢٩٢، ٢٨٠ - ٢٧٧
 ، ٣٤٦، ٣٤٣، ٣٤٠، ٣٣٦
 ٣٠١، ٣٤٧

قرة بن شريك : ٣٨، ٣٠، ٢٩، ٢٣، ٢٢
 ٧٢، ٦٠، ٥٩، ٥٧، ٤٩، ٣٩
 ١٩٦، ١٣٥، ١٣٤، ٩٢، ٨٥
 - ٢٧٤، ٢٧٢، ٢٢٨ - ٢٢٥
 ٢٧٨، ٢٧٦

قريش : ١٣٥

القسطنطينية : ٤ - ٦، ١٠، ٨٩، ١٣٠
 ٣٠٧

قصب السكر : ٢٦٦، ٢٦٥

القصور : ٣٠٨، ٣٠٠

القضاء : ٣١، ٩٩ - ١٠٦، ٣٣٧

قطن : ٢٨٤، ٢٧٩، ٢٦٦

قفط : ٩ : Coptos

القارزم : ٩، ٩١، ١٢٥، ١٧٤

٣٠٠ - ٣٠٢، ٣٠٦ - ٣٠٨

٣١١

القمح : ١٦، ١، ٤٤، ٤٩ - ٥٢

٧٦، ٧٧، ١٧٣، ٢٦٥

٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٩١

٣٠٥، ٣١٢، ٣١٣

قنشرين : ١٤٠

قنسطانز الثاني (قنسططين بن هرقل) :

١٦، ٤٤، ٨٥، ٩٥

(ف)

الفرس (الاييرانيون) : ٦، ٧، ٣٣

٧٤، ١٥٧، ١٦١، ١٧١

٢٤٥، ٢٥٧، ٣٤٣

الفرما (بلوزيم) : ١١، ١٤٥، ١٤٦

١٦٥، ١٧٥، ٣٠٦ - ٣٠٨

٣١٢

القساط : ٢٣، ٣٣، ٥٦، ٦١، ٧٣

١٠٤، ١١٧، ١٢٢، ١٣٢

١٣٣، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١

١٤٣، ١٤٥ - ١٤٧، ١٥٠

١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨

١٦٢ - ١٦٤، ١٧٠، ١٧٢

١٧٤، ١٧٦، ١٨٩، ٢٠٩

٢٢٦، ٢٤١ - ٢٤٨، ٢٥٤

٢٥٥، ٢٥٨، ٢٧٣، ٢٧٤

٢٩٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣٤٤

٣٤٧، ٣٥٢

الفضل بن صالح بن علي العباسي : ١٥٠، ٢٥٤

الفضل بن غانم : ١٠٦

فتون : ٢٧٢ - ٢٩٨، ٣٤٢

القيوم : ١٤٧، ١٨٩، ٢٦٦، ٢٩١

٣٤٤

(ق)

قباطي : ٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩١

قبالة وقبال : ٦١ - ٦٣، ١٥٦

القبط : ٣، ٥، ٧، ١٠، ١٢، ٣٧، ٣٨

٤٠، ٤١، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١

(ج)

ليثورجيا (التزامات) : ٣٤١ ، ٣٤٠
 الليث بن سعد : ١٩٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠
 الليث بن الفضل : ٦٤ ، ١٦١ ، ٢٥٤
 لهيعة بن عيسى : ١٠٧

(م)

مارتينه (الأمباطورة) : ١٣ ، ١٤
 مازوت وموازيت : ٢٩ ، ٢٠١
 مالك (الإمام) : ١٠٥ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ،
 ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠
 المأموت : ٢٤ ، ٣٥ ، ٨٦ ، ١٥٩ ،
 ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
 ٢٠٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢
 التوكل : ٢٧ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٥٥ ،
 ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣٣٠
 مجاعات : ٣٤٤ ، ٣٤٥
 محفوظ بن سليمان : ٦٤
 محمد بن أبي بكر : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ،
 ١٢٨
 محمد بن أبي خديفة : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ،
 ١٢٤

قيس (المقلس) : ٧٠ ، ١٤ ، ١٢ ، ٧٠ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٩
 القيروان : ٨١ - ٨٣
 القيس : ٢٨٤ ، ٢٨٥
 قيس بن أبي الماس : ٩٩
 قيس بن سعد : ١٢٤ - ١٢٦
 القيس (القيسيون) : ١٣٧ - ١٣٩ ،
 ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ، ٢٤٩ -
 ٢٥٢ ، ٢٥٥

(ك)

كتان : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ - ٢٨٤ ،
 ٣١٣
 كسيلة : ٨٣
 كنائس : ٣ - ٦ ، ١٤ ، ٤١ ،
 ٤٦ ، ١٨ ، ١٩٠ - ١٩٣ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ - ٢٠٩ ،
 ٢١١ - ٢٣ ، ٢٣٢ ،
 ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨
 كورة وصاحب الكورة : ٢٣ ، ٢٨ -
 ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٧٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٢٢
 الكوفة : ١٣٧
 كرم اشقاو (كروم اشقوه) : ٢٣ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
 ٦٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٢٧٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٧٨
 كيدر نصر بن عبد الله : ٣٥ ، ٧٤ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧

مصر السفلى (أسفل الأرض أو الوجه
البحرى): ١٦، ٢٨، ٣٧، ٣٨،
١٤٥، ١٥٧، ١٧٤، ١٧٥،
١٩٠، ٢٣٤، ٣٣٥، ٢٤٠،
٢٤٣، ٣٣٨

مصر العليا (الصعيد): ٩، ١٠، ١٩، ٢٨،
٣٧، ٣٨، ١٢٢، ١٤٤، ١٤٩،
١٥٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧،
١٩٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٣،
٢٨٤، ٣٣٨

المصرية: (انظر القيسية)

المطلب بن عبد الخزاعي: ١٦٣ - ١٦٦
مظفر بن كيدر: ٢٥٧

معاذ بن: ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٣،
معاوية بن سفيان: ٢١، ٢٦، ٣٢،
٥٢، ٦٦، ٧٤، ٨١، ٨٢،
٨٧ - ٨٩، ٩١، ٩٤، ١٠٠،
١١٩ - ١٣٠، ١٩٨، ٢١٧،
٢٤٩، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٨٨،
٢٩٠

معاوية الثاني (ابن يزيد): ١٣٠

معاوية بن حديج: ٨٢، ١١٧، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٥ - ١٢٨

المتنصم: ٢٣ - ٣٥، ٧٤، ١٥٧،
١٧٨، ١٧٩، ٢٣٧، ٢٣٩،
٢٥٥ - ٢٥٨، ٢٩٧، ٣٥٢

المغرب: ١٥، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٨١،
٨٣، ١١٦، ١١٧، ١٥٣،
١٥٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٢،
٣٢٨، ٣٢٩

المغيرة بن شعبة: ٩

محمد بن أبي الليث: ١٧٩، ١٨٠،
٣٢٧

محمد بن الأشعث: ٦٢، ٦٣،
محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية):
١٥١، ١٥٢، ٣٠٥

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: ٣٢٥،
٣٢٧

محمد بن مسروق الكندي: ٩٩، ١٠٧،
الحجة (بخلق القرآن): ١٧٧ - ١٨١،
٣٢٧

المدينة المنورة: ٩، ٣٦، ٥٢، ١٠٦،
١١٣، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢،
١٢٣، ١٥١، ١٥٨، ٣٠٤،
٣٢١

مذاهب: ١٠٥، ١٠٦، ٣٢٠ - ٣٢٨،
مرو: ١٥٩

مروان بن الحكم: ١١٩، ١٣٠ -
١٣٣، ٢٤٩، ٢٧٤، ٢٨٥،
٣١٦

مروان بن محمد: ٧٧، ٧٩، ١٣٦ -
١٤٨، ٢٠٢، ٢٣٥، ٢٥٢،
٢٧٦، ٢٨٥، ٢٩٧

مزاجم بن خافان: ٢٥، ١٥٧،
مسألة: ١٥٠

مسلمة بن مخلد: ٣٧، ٣٣، ٨٢، ٨٥،
١٠١، ١١٨، ١٢٥، ١٩٢،
٢٠٩، ٢٧٥، ٣١٤

السنة: ١٢٨

السيحية والسيحيون: ٣ - ٦، ١٤،
١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٧ -
٢٠٠، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٣٦،
٣١٢، ٣٤٠، ٣٤٩، ٣٥٠

نفيسة (السيدة) : ١٥٤ ، ١٥٥
 النقود (السكة) : ٣٥ ، ٦٥ ، ٦٩ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٦
 النوبة : ١٥ - ١٨ ، ٢٣ ، ٨٠ ، ١١٦
 النيل (جسور) : ٢٦٧ ، ٢٦٨
 النيل (مقاييس) : ٢٦٨ ، ٢٦٩

(أ)

المهادى : ١٥١ ، ١٥٣ ، ٢٠٩
 هاشم بن أبي بكر البكرى : ٢٥٦ ، ٢٥٧
 هرثمة بن أعين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤
 هرثمة بن النضر الجبل : ١٨٠
 هرقل : ٦ ، ١٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٩
 هرون الرشيد : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ١٠١ ،
 ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ -
 ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
 ٢٨٩ - ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣٣٦
 هرون بن عبد الزهرى : ١٧٨ ، ١٧٩
 هشام بن عبد الملك : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
 ٧٤ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥
 ١٣٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٢ -
 ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧١

(و)

الواقف : ٣٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٣٩ ،
 ٣٢٧
 واضح بن عبد الله المنصورى : ١٥٤

المغيرة بن عبد الملك الفزارى : ١٤١
 المفضل بن فضالة : ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠
 القوقس : (انظر قيرس)
 مكة : ٣٦ ، ٦٦ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٩

مكتبة الاسكندرية (حريق) : ٣٣٠ -
 ٣٣٥

المكسر والمكوس : ٥٥ - ٥٧
 ملكانيين : ١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 المنصور (ابن الخليفة المتوكل) : ١٥٥ ،
 ١٥٦
 المنصور (الخليفة العباسى) : ٢٧ ، ٣٢ ،
 ٥٢ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥

منية الأصنع : ٥٣
 المهاجر بن أبي المثنى التيجي : ١٣٥
 المهدي (الخليفة العباسى) : ١٠٢ ، ١٤٩ ،
 ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٥٤ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٢٦ ، ٣٤٣
 موسى بن علي بن رباح : ٢٣٦
 موسى بن عيسى : ١٩٣
 موسى بن مصعب الحنظلى : ٥٨ ، ١٤٩ ،
 ٢٥٤ ، ٣٤٣
 موسى بن نصير : ٣٢ ، ٨٤

(ن)

نبح : ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤

يزيد بن عبد الله التركي : ٣٣ ، ١٥٥ -	وزدان : ١٨ ، ٢١ ، ٨٥
٢٠٢ ، ١٥٧	ورق : ٢٩١ - ٢٩٣
يزيد بن عبد الملك : ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٠١ ،	وقت : ١٠٨ ، ٧٩ ، ٤٨
٢٣٢ ، ٢٠٢	الوليد بن رقاعة : ٢٢ ، ١٠٠ ، ٢٣٤ ،
يزيد بن مسروق الحضرمي : ١٤٠	٢٥٠ ، ٢٤٩
يزيد بن معاوية : ٥٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ،	الوليد بن عبد الملك : ٢٩ ، ٨١ ، ٨٤ ،
١٩٧ ، ١٣١	٢٢٤ ، ٢٠٠ ، ١٣٤ ، ٩١ ، ٨٥
بغابة : (انظر ارتودكس)	٢٢٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
اليمين : ١٣٠ ، ١٥٣ ، ٣٠٢	الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ١٣٧
اليمية (اليمانية ، اليمينوت) : ١٣٧ -	
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ،	(ي)
٢٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٤٩	يزيد بن حاتم : ٣٢ ، ١٥٢ ، ٢٣٦
اليهود : ١٤ ، ٢٤ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ،	يزيد بن حبيب : ٣١٧ ، ٣١٨
٣٤٢ ، ٣٠٢ ، ٢٧٧ ، ٣١٠	يزيد بن خطاب الكلبي : ١٦٤ ، ١٦٥
يوسف يحيى البويعلى : ١٨٠ ، ٣٢٧	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٨٧٣٠

I.S.B.N 977-01-4111-9

صدر فى هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د . عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
إعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر جا
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د . عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د . على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د . محمد أنيس

- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د . نبيل راغب
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى
د . على حسنى الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر
د . حلمى أحمد شلبي
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد نور فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د . على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د . أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د . محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج٢

توفيق الطويل

٢٤ - الصحافة الوفدية

د . نجوى كامل

٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب

تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة

د . سعيد إسماعيل على

٢٧ - فتح العرب لمصر ج١

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين

د . سيدة إسماعيل كاشف

٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٣١ - خمسون شخصية وشخصية

شكرى القاضى

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢

لمعى المطيعى

- ٣٣- مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د . خالد الكومى
- ٣٤- تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د . يونان ليبي رزق
- ٣٥- اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبدالحميد توفيق زكى
- ٣٦- المجتمع الإسلامى والغرب ج ٢
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين
ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى
- ٣٧- الشيخ على يوسف
تأليف : د . سليمان صالح
- ٣٨- فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم
- ٣٩- قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠- الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبدالمنعم الدسوقى الجميى
- ٤١- محمد فريد الموقف والمأساة
د . رفعت السعيد
- ٤٢- تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال
- رحلة فى عقول مصرية
إبراهيم عبد العزيز

- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج ١
تأليف : وليم الصوري
ترجمة : د . حسن حبشي
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
د . عبدالرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث
د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصري
د . زبيدة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
د . سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية
اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر
تأليف : د . إلهام محمد على ذهني
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د . محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي

- ٥٥ - الحروب الصليبية ج٢
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د . حلمى أحمد شلبى
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د . إبراهيم عبدالله المسلمى
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر
د . عبد السلام عبدالحليم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٣
لمعى المطيعى
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
إعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان
د . محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د . سهام نصار

- ٦٦- المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د . نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧- الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٨- الحروب الصليبية ج٣
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٦٩- نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية
د . محمد أبو الأسعاد
- ٧٠- أهل الذمة فى الإسلام
تأليف : أ.س. تريتون
ترجمة : د. حسن حبشى
- ٧١- مذكرات اللورد كليرن
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٧٢- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى
د . أمينة أحمد إمام الشورى
- ٧٣- تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤوف عباس حامد
- ٧٤- تاريخ الطب والصيدلة
د . يحيى سمير الجمال
- ٧٥- أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول
د . سلام شافعى محمود
- ٧٦- دور التعليم فى مصر
د . سعيد إسماعيل على

٧٧- الحروب الصليبية جء

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٧٨- تاريخ الصحافة السكندرية

نعمات أحمد عثمان

٧٩- تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر

تأليف : فريد يونج

ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

٨٠- قناة السويس والتنافس الاستعمارى

د . السيد حسين جلال

٨١- تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر

د . رمزى ميخائيل

٨٢- مصر فى فجر الإسلام

د . سيدة إسماعيل كاشف

٨٣- مذكراتى فى نصف قرن ج١

أحمد شفيق باشا

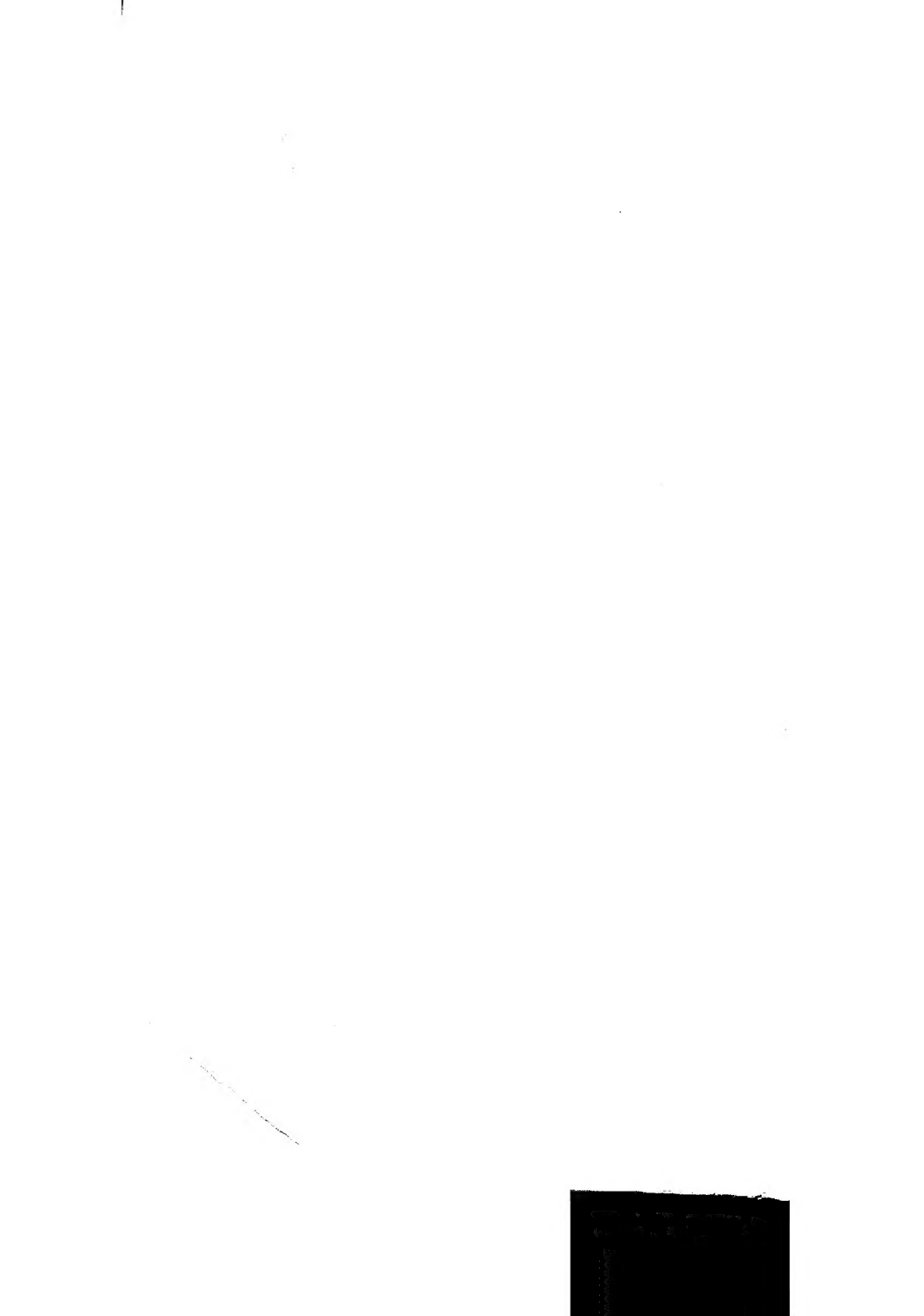
٨٤- مذكراتى فى نصف قرن ج٢ - القسم الأول

أحمد شفيق باشا



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Beit el-Hayat el-Alexandrina



يتناول هذا الكتاب الهام تاريخ مصر في فجر الإسلام، فيتعرض للنظام الحكم والملكية المقارية، ونظام جباية الضرائب، والنظام الحربي. ويتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في الخلافة، وموقف مصر من محنة خلق القرآن، كما يتناول إنتشار الإسلام والتعريب، وحضارة مصر الزراعية والصناعية والتجارية، والحركة العلمية والدينية.

وقد رجعت فيه الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف إلى أوثق المصادر والمراجع، مما يجعل هذا الكتاب مرجعاً لا غنى عنه للباحث المتخصص والمتقف.